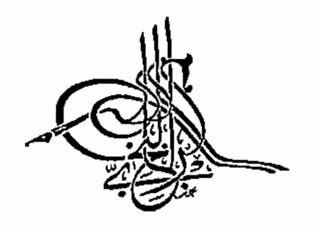


« الإتْقَانُ لا حَدَّ لَهُ »



بسم الله الرحمن الرحيم

محمد شفيق غربال

أستاذ جيل وصاحب مدرسة تاريخية

تصدير

أ.د. عادل حسن غنيم

القاهرة
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢١٣٤٩ / ٢٠١٣م

ISBN
٩٧٨ ٩٧٧ ٤٨١ ١٠٠ ٥

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق المصرية
إدارة الشئون الفنية

محمد شفيق غربال أستاذ جيل وصاحب مدرسة تاريخية / تصدير عادل غنيم ؛ القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٣ .
٢٤٨ ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ٥ ١١٠ ٤٨١ ٩٧٧ ٩٧٨
١- المؤرخون المصريون
٢- شفيق غربال - محمد شفيق غربال، ١٨٩٤-١٩٦١
أ- غنيم، عادل (مُصَدِّر)　　ديوي ٩٠٧,٢٠٢

مكتبة الإمام البخاري
الإسماعيلية ٤٦ شارع الجمهورية .. الثلاثيني .. بعد السنترال
تليفون ٠١٢٢٣٦٧٦٧٩٧

المحتويات

***



الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال

تصديـر

أ.د. عادل غنيم

كان من نتائج الكفاح الوطني خلال النصف الأول من القرن العشرين بشكل خاص أن شهدت مصر رُوَّادًا عديدين في مختلف التخصصات أثروا الحياة السياسية والأدبية والثقافية والفنية وكانوا بداية لنهضة حقيقية.

ففي مجال السياسة كان هناك على سبيل المثال : أحمد لطفي السيد ، وسعد زغلول . وفي مجال الشعر كان هناك أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم . وفي مجال القصة القصيرة كان هناك محمد حسين هيكل ، ويحي حقي . وفي مجال الموسيقى والغناء كان هناك سيد درويش ، ومحمد عبد الوهاب . وفي مجال المسرح كان هناك توفيق الحكيم . وفي مجال الأدب نجد طه حسين ، وعباس العقاد. وفي مجال الفن نجد محمود مختار. وفي مجال الرواية نجد نجيب محفوظ . وفي مجال النقد الأدبي نجد سيد قطب ، ومحمد مندور. وفي مجال التأريخ والدراسات التاريخية كان هناك محمد شفيق غربال ومعه رفيقاه محمد رفعت ، ومحمد صبري.

وقد رأى معظم المؤرِّخين أن محمد شفيق غربال هو مؤسس مدرسة التاريخ المصري الحديث. ولم يكن ذلك باعتباره أحد الرواد الذين خاضوا معركة تمصير الوظائف في الجامعة المصرية وأول مصري تولى وظيفة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة وأنه المؤسس الحقيقي للجمعية المصرية التاريخية، بل يرجع إلى أنه علَّم وثقَّف واستخدام المنهج العلمي في الكتابة التاريخية، ونبَّه إلى أهمية استخدام الوثائق ليس في كتابة التاريخ السياسي فقط بل أيضًا في التاريخ الاجتماعي.

كان محمد شفيق غربال مؤرِّخًا موسوعيًّا من طراز فريد . مَزَج بين الحقب التاريخية المختلفة، وحطَّم الحواجز التى تُفَرِّق بين تخصصات التاريخ، وأحسن الاستفادة من العلوم المساعدة للتاريخ من أدب واجتماع وعلم نفس وفلسفة وجغرافيا وغيرها.

كان يملك رُؤية خاصَّة للعلوم الاجتماعية والإنسانية ، ويتمتَّع بقُدْرة علمية كبيرة على النقد والتحليل والتفسير. ويجمع بين جمال العرض وحُسْن استخدام التعبيرات والمصطلحات وبين

فلسفة التاريخ وإبراز عبقرية المكان، ولعل كتابيه « تكوين مصر »، و « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية » بشكل خاص أبرز مَثَلٍ على ما أقول.

وقد كان من آثار غربال أنه أشرف على عدد من طلابه تحمَّلوا بعد وفاته مسئولية الدِّراسات التاريخية كان من أبرزهم : أحمد عزت عبد الكريم الذي أنشأ سمنار التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس والذي تخرَّج على يديه عشرات المؤرِّخين، وعبد العزيز الشناوي الذي قاد الدراسات التاريخية بجامعة الأزهر، وحسن عثمان مؤلِّف الكتاب الشهير « منهج البحث التاريخي »، وأحمد الحتة الذي أنشأ مدرسة في التاريخ الاقتصادي الحديث وغيرهم.

وقد سُئِل غربال قبل وفاته عن أبرز كتبه فأشار إلى طلابه الجالسين « هؤلاء هم كتبي »، فمن المعروف أن غربال ترك لنا مؤلفات محدودة لكنها كانت عميقة الأثر دافعة للعديد من البحوث والدراسات.

وتقديرًا لهذا العطاء وهذه الشخصية العلمية المتفرِّدة احتفلت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بتأبينه، كما احتفل مجمع اللغة العربية بذلك أيضًا في حفل شارك فيه المؤرِّخ البريطاني الشهير « أرنولد توينبي » الذي ذكر في كلمته أنه كان أستاذًا لغربال لكنه تعلَّم منه أكثر مما علَّمه.

وقد أصدرت الجمعية التاريخية عام ١٩٦٣م المجلد الحادي عشر من مجلة الجمعية الذي ضمَّ كلمات التأبين التي شارك فيها بعض أساتذة التاريخ والجغرافيا واللغة العربية مما يوضِّح الآثار الكبيرة التي تركها غربال في مختلف المدارس والتخصصات.

كما ضمَّ الموسم الثقافي للجمعية ١٩٧١/١٩٧٢م بعض المقالات العلمية عن محمد شفيق غربال ورَدَت ضمن المجلد التاسع عشر من مجلة الجمعية (١٩٧٢م)

وكان من الإنجازات المهمة للتعريف بباقي تراث محمد شفيق غربال أن أمكن لباحث موهوب هو الدكتور حسام عبد الظاهر الذي يعمل بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية أن يجمع في مجلدين صدرا سنة ٢٠١٢م الكثير من كتابات غربال -من غير مؤلفاته-

ضمت بحوثه ومقالاته وأحاديثه التي نُشرت في الدوريات المختلفة أو مُقَدِّمات الكتب ومطبوعات النَّدوات والهيئات والمجامع العلمية، حيث انكبَّ الدكتور حسام عبد الظاهر على مدى سنوات لجمع هذا التراث ومُراجعته وتحقيقه بشكل علمي مُتمَيِّز يجعلنا نقوم بقراءة جديدة لغربال أو كما قال أحمد زكريا الشلق في تقديمه المتميز للمجلدين « نعيد اكتشاف شفيق غربال من جديد ونعيد قراءته وفهمه والتعلم منه ».

ولم يكتف الباحث حسام عبد الظاهر بذلك بل أرفق بالجزء الثاني كشافات تحليلية للبحوث والمقالات الواردة بالجزءين إضافة إلى كشاف زمني خاص بهما مما أعطى للمجلدين قيمة فنية خاصة. فتحية وتقديرًا لهذا الباحث وللأستاذ الدكتور أحمد زكريا الذي تابع العمل ورَعَاه.

ونظرًا لأن تراث غربال يستحق مزيدًا من الدراسة والبحث والتعمق فقد حرصت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية على انتهاز فرصة مرور خمسين عامًا على رحيل غربال لإقامة ندوة عنه إحياء لدوره الرائد في النهوض بالدراسات التاريخية وإنشاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ورعايتها حتى وفاته. وكان ذلك بناءً على اقتراح مُقَدَّم من الأستاذ فايز على عضو الجمعية ، حيث وافق مجلس الإدارة في ٢٠١٢/٣/٢٤م على قيام الدكتور عبد المنعم الجميعي بالترتيب لندوة تعقد عن هذا المؤرخ الكبير ، وطُلب منه إعداد مذكرة بالموضوع ومَحَاوره المختلفة للعرض على مجلس الإدارة الذي وافق على عقد الندوة يوم السبت الموافق ٢٠١٢/١٢/٢٩م بمقر الجمعية ، حيث عقدت جلستان احداهما برئاسة الأستاذ الدكتور عاصم الدسوقي تحدث فيها الأستاذ الدكتور رأفت غنيمي الشيخ ، و الأستاذ الدكتور عبد المنعم الجميعي ، ورأس الجلسة الثانية الأستاذ الدكتور رأفت غنيمي حيث عرض الأستاذ الدكتور أحمد زكريا مُلخصًا لبحث الأستاذ الدكتور محمد محمد السروجي الذي لم يتمكَّن من الحضور لظروفه الصحية ، لكن الدكتور أحمد زكريا أفاض في حديثه عن غربال مما دفعني إلى أن أطلب منه نص حديثه لنشره ضمن أعمال الندوة، كما تحدث في الجلسة الثانية الأستاذ فايز على ، والدكتور حسام عبد الظاهر.

والجمعية إذ تنشر البحوث التي ألقيت بالندوة، تنشر إضافة إليها عدة بحوث: الأول أعده

الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم عن غربال بعنوان « محمد شفيق غربال أستاذ جيل وصاحب مدرسة » والثاني أعدّه الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى بعنوان « شفيق غربال مؤرخًا » ونُشر الأول في المجلد التاسع عشر من مجلة الجمعية (١٩٧٢ م)، ونُشر الثاني بالمجلد الحادي عشر من المجلة (١٩٦٣م) .

وقد رأيت وأخي الدكتور أحمد زكريا الشلق إعادة نشرهما ليس لقيمتها العلمية فقط بل أيضًا لنفاد المجلدين من مجلة الجمعية وحرصًا على تعريف شباب المؤرخين بهما.

كما ننشر معها أيضًا مقالًا أعدّه الأستاذ الدكتور علي بركات مشاركة في أعمال الندوة، والثاني بحثًا نُعيد نَشره للدكتور حسام عبد الظاهر بعنوان « من قضايا التاريخ الإسلامي في كتابات محمد شفيق غربال » لتسليطه الضوء على جانب من اهتمامات غربال لم يكن معروفًا للكثيرين.

ويَسُرُّ الجمعية أن تنشر تلك البحوث مع تلك التي أُلْقِيت في ذكرى مرور خمسين عامًا على رحيل غربال في كتاب خاص تقديرًا لتراث هذا العالم الرائد في مجال الدراسات التاريخية واعتزازًا بذكراه المتجددة إن شاء الله.

والله ولي التوفيق

المقطم في أبريل ٢٠١٣م

كلمة مُقَرِّر النَّدوة

أ.د. عبد المنعم الجميعي

الوفـاء من شـيم أصحاب النفوس الكبيرة وما أحوج أبناء هـذا الجيل إلى أن يتعلموا دروس الوفاء، وما أحوجهم إلى أن يتعرفوا على العظماء من الأجداد والآباء.

شـفيق غربال أسـتاذ من بقايا الزمن الجميل الذي عرف معنى الوفاء ، ونحن في هذه الأيام لا نرى في أبناء الجيل الحالي من يتمسـك بهذه الخصلة الحميدة، بل نرى جيلًا في معظمه لا يعرف للوفاء معنى، ولا للانتماء أهمية !!

فَمَن مِنْ شـباب الباحثين يعرف أو يذكر محمد أَنيس مؤسـس مدرسة التاريخ الاجتماعي في مصر الحديثة ؟

ومَـنْ منهـم يذكر أحمد عـزت عبد الكريـم الذي أفنى حياتـه في خدمة تكويـن جيل من المؤرخين وآثر العيش في خلوته بين كتبه وتلاميذه ؟

ومـن هنا فـإن الجمعية التاريخية رأت هذه الندوة تكريمًا لهذا الرجل العظيم، صاحب اليد الطولي في تأسيس الجمعية التاريخية.

إنَّ دور غربال في إنشاء « الجمعية التاريخية » التي تعتبر وبحق ربيبته القريبة من قلبه واضح وملموس؛ فبعد عودته من بعثته بإنجلترا سعى سعيًا ملموسًا من أجل إنشائها، وحاول عن طريق حسين حسني أحد كبار رجالات القصر الملكي إقناع الملك فاروق بأهميتها حتى صدر المرسوم الملكي في عام ١٩٤٥ بإنشـاء الجمعية ، وصدر بعده أمر ملكي بتعيينه نائبًا لرئيس الجمعية واستمر الحـال على ذلـك حـتى انتخب لمنصب الرئيس بعد صدور القانون رقم ٣٨٤ لسـنة ١٩٥٦ بشـأن الجمعيات. وخلال ذلك أشرف غربال على إنشـاء الجمعية التي تَدين له بالكثير من الفضل، هذا إلى جانب رئاسته لتحرير مجلة الجمعية، وإخراجه لمجموعة قيمة من مطبوعاتها.

يُضاف إلى ذلك أن الأستاذ غربال كان سبَّاقًا إلى المساهمة في أنشطة الجمعية الثقافية فشارك فيها بمحاضراته التي كانت تتعدد أحيانًا في الموسم الثقافي الواحد ، وإلى جانب ذلك عمل غربال على بناء مكانة مرموقة للجمعية بين مثيلاتها في العالم وذلك عن طريق اتصالاته العديدة بالمؤرِّخين الأجانب وحُضور بعض مؤتمراتهم ودعوة بعضهم لإلقاء محاضرات بالجمعية.

لقد كان الأستاذ شفيق غربال يتمتع بجانب عمله بدمائة الخُلق ونُبل الطِّباع .

⊙ قال عنه الأستاذ أرنولد توينبي: المؤرِّخ العالمي المشهور، والذي تتلمذ غربال على يديه إنه كان موهوبًا: « والطلاب الموهوبون لا يتعلمون من أستاذهم، ولا أذكر أنني علَّمت شفيق غربال شيئًا بل على العكس أذكر جيدًا أنني تعلَّمت منه كثيرًا » .

⊙ وقال عنه زميله في مجمع اللغة العربية الدكتور منصور فهمي: « إنه من أولئك الإعلام الذين يحرصون على التجويد، فإذا كتب فالدِّقة والجودة كانت رائده ».

⊙ وقال عنه أحد تلاميذه: « إن المناصب الكبرى لم تصرفه عن مواصلة الدراسات التاريخية، فكان تلاميذه يلتفون حوله في الجامعة، أو في الجمعية التاريخية ليناقشهم في بحوثهم ودراساتهم ».

لقد استمر عطاء شفيق غربال للجمعية التاريخية ، كما استمرت جهوده من أجل تشجيع حركة تمصير التاريخ المصري ودراسته وفق الأسلوب العلمي حتى وافته المنية في عام ١٩٦١ .

⊙⊙⊙

مُحَمَّد شَفِيق غُرْبال
سِـيرةٌ وتحيَّة

(١٨٩٤-١٩٦١م)

أ.د. عبد المنعم الجميعي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الفيوم

كان عالمًا فذًّا رزقه الله من حب العلم، والانصراف إلى البحث والتحصيل ، وعشق المعرفة، وتقدير جهود العلماء، وسعة الأفق وسماحة الخلق ما جعله بين أفراد جيله ملء السمع والبصر والفؤاد. وكان من القلائل الذين أسسوا لأنفسهم مدرسة خاصة في البحث العلمي تحمل طابعه وتسير على منهاجه، وكان المعلم الأول الذي لقن شباب الجيل الماضي دروسهم الأولى في التاريخ القومي والوطني فكان اهتمامه بتاريخ مصر الحديث الباب الرئيسي الذي نفذ منه إلى تاريخ العرب.

لقد كانت له فلسفة في التاريخ، وكان محبًا للحقيقة، حرًّا في تصويرها وكان رفيقًا في نقده، مُرَحِّبًا به إذا وُجِّه إليه، وكان مُتواضعًا، سخيًّا بعلمه يجود به على من يقصده.

قال عنه أستاذه «أرنولد توينبي» : «إن الطلاب الموهوبين لا يتعلمون من أساتذتهم، فهو لا يتذكر أنه علَّم شفيق غربال شيئًا، بل إنه يتذكر أنه تعلم من غربال شيئًا كثيرًا ذلك أنه في الدراسات العليا يشترك كل من الأستاذ والطالب في تعليم كل منهما الآخر».

ولد محمد شفيق غربال في حي غربال الممتد على ضفاف ترعة المحمودية في الإسكندرية في عام ١٨٩٤، ونشأ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارسها، ثم اختار الالتحاق بمدرسة المعلمين الخديوية العليا بالقاهرة حيث وجد فيها- كما يذكر- المعهد الذي يصله بالدراسات الإنسانية، وتخرج فيها عام١٩١٥ ثم أوفدته الحكومة المصرية في بعثة دراسية لدراسة التاريخ الحديث بجامعة«ليفربول»بإنجلترا إبان الحرب العالمية الأولى.

ومع فداحة الأخطار التي كان يتعرض لها العالم في خلال هذه الفترة، وعلى الرغم من مصاعب السفر خلال تلك الآونة، فإن غربال لم يتردد في الذهاب إلى إنجلترا ليواصل دراسته للتاريخ هناك. وقد استطاع أن يثبت مقدرته فحصل على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف في عام ١٩١٩، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسًا بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية لمدة ثلاث سنوات أوفد بعدها مرة أخرى إلى إنجلترا للحصول على درجة الماجستير بجامعة لندن ثم بمعهد البحوث التاريخية التابع لهذه الجامعة. وخلال ذلك التقى بالمؤرخ الإنجليزي الشهير «أرنولد

توينبي» الذي كان يشرف على بحوث الدراسات العليا هناك ويذكر «توينبي»أنه منذ لقائه الأول بـه وجـد فيه طالبًـا موهوبًا وأنه تنبأ بأنه سيكون في مستقبل حياته باحثًا متميزًا، كما تنبأ له بمسلكه الأخلاقي الذي تميز به، وبكونه موضوعي التفكير، مستقلًا في الرأي ذا حزم وعزم فيما يتصل بالعمل الذي يتناوله[١].

ومـن المعـروف أن «توينبـي»أشرف على رسـالة غربـال للماجسـتير الـتي حصـل عليها في عام١٩٢٤م وكانت بعنوان:

The beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali.

وبعـد أن عاد غربـال إلى مصر في عام١٩٢٥ عُيِّن مدرسًـا للتاريخ الحديث بمدرسـة المعلمين العليـا، وهنـاك بدأ في تدريس تاريخ الحضارة الإسـلامية والكتابة في هـذا المجال فكتب فصلًا بالإنجليزية عنوانه : «الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي»

Ideas and Movements in Islamic History.

ثم نقل غربال أستاذًا مساعدًا للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية في عام١٩٢٩ ثـم مـا لبـث أن رُقِّي بها أُسـتاذًا للتاريـخ الحديث عام١٩٣٦ فـكان بذلك أول مـصري يتولى هذا المنصـب بالجامعة خلفًا للمـؤرخ الإنجليزي «جرانت». ومن هنا بدأ غربال يشـق طريقًا طويلًا في خدمـة الدراسـات التاريخيـة المصرية، وفي نقـل الإشراف على هذه الدراسـات من يد القصر الملـكي والمؤرخـين الأجانب إلى يد الجامعة فبدأ في تكوين المدرسـة التاريخية المصرية، وتمصير الدراسـات الخاصة بالتاريخ المصري، وخاصة بعد إنشـاء الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه بالجامعة، وإشرافه وتوجيهه للبحوث التاريخية.

وقـد تمكَّـن غربـال بفضل مقدرتـه العلمية، ودقّة ملاحظتـه، وقوة تأثـيره على طلابه، أن تكون له الرِّيادة الفكرية للمدرسـة التاريخية فأقبل عليه تلاميذه بشـغف، وأخذ يمنحهم من

(١) من كلمة الأستاذ أرنولد توينبي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة أثناء تأبين غربال.

علمه وفكره ما يُنير لهم السبيل دون أن يضن على أحد منهم بما يعلمه أو يصُد عن بابه طالب علم. فدفع ذلك تلاميذه إلى السَّعي للحاق به والسمو إلى قرب قمته عن طريق الحرص على الإجادة وتوخي الدقة[1].

ولم تقتصر جهود غربال في الجامعة على الناحية العلمية بل تعدَّتها إلى نواحي النشاط الاجتماعي حين صار وكيلًا للاتحاد العام لطلاب الجامعة المصرية[2] وبذلك كان لغربال فضل عظيم في توجيه أجيال متعاقبة من تلاميذه الذين أخلصوا له الإجلال والتقدير، وامتد فضله عن طريقهم إلى العديد من أبناء هذه الأمة[3].

أما عن الرسائل العلمية التي أشرف عليها غربال فهي متعددة، وقد ارتبط معظمها بالعصر العثماني وعصر محمد علي. ويرجع السبب في ذلك إلى إهمال المؤرخين دراسة هذه الفترة في ذلك الوقت؛ ولهذا دعا غربال طلابه إلى الاهتمام بدراسة التاريخ العثماني باعتباره مدخلا لدراسة التاريخ المصري الحديث، ووجههم كذلك إلى الاهتمام بدراسة تاريخ القرن التاسع عشر بصفة عامة وعصر محمد علي بصفة خاصة نظرًا لأن نبض الحياة المصرية قد اشتد في ذلك العصر، وكانت التطورات السريعة والمتلاحقة التي وقعت بمصر خلاله قد أحدثت فيها ما يشبه الثورة في كافة مناحي الحياة. نتيجة لذلك خرج على يد غربال العديد من الدراسات الأكاديمية في هذه الموضوعات نذكر منها: الدراستين اللتين قدمهما محمد رفعت رمضان ونال بهما درجتي الماجستير والدكتوراه وهما «ثورة علي بك الكبير» و «مصر والدولة العثمانية دراسة تاريخية للعلاقات السياسية بين الطرفين من ١٨٥٠-١٨٦٣»، والدراسة التي قدَّمها حسن عثمان للماجستير تحت عنوان «فخر الدين بن معن الثاني أمير لبنان»، والدراستين اللتين أعدهما أحمد الحته للماجستير والدكتوراه «الفلاح المصري في عهد محمد علي» و «تطور الزراعة المصرية في

---

(١) المجلة التاريخية المصرية: المجلد التاسع عشر ١٩٧٢ مقال للدكتور أحمد عزت عبد الكريم تحت عنوان محمد شفيق غربال أستاذ جيل وصاحب مدرسة ص ٢٦.

(٢) مذكرة مُقدَّمة من كلية الآداب جامعة القاهرة بترشيح الأستاذ غربال لجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٠.

(٣) من كلمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد في مجمع اللغة العربية خلال حفل تأبين الأستاذ غربال.

النصف الأول من القرن التاسع عشر» ، والدراستين اللتين قدمهما أحمد عزت عبد الكريم ونال بهما الماجستير والدكتوراه وهما «تاريخ التعليم في عصر محمد علي» و«تاريخ التعليم منذ أواخر عصر محمد علي إلى أوائل حكم توفيق» ، والدراسة التي أعدها أبو الفتوح رضوان للماجستير وعنوانها «تاريخ مطبعة بولاق» ، والدراسة التي قدمها محمد محمد توفيق للماجستير تحت عنوان «مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر» ، والدراسة التي أعدها فائق جبره للماجستير تحت عنوان «ضرائب الأطيان المصرية في عهد محمد علي» ، والدراسة التي قدمها أمين عفيفي للدكتوراه بعنوان «تجارة مصر في عهد محمد علي» ، والدراسة التي قدمها عياد دوس للماجستير بعنوان «الفتح المصري للسودان في عهد محمد علي» ، والدراسة التي قدمها عبد العزيز الشناوي للماجستير تحت عنوان «السخرة في حفر قناة السويس».

ولغربال مؤلفات ليست بالكثيرة ولا بالضخمة، ولكن ما كتبه يقترن دائما باسمه خصوصًا وأنه كان يرى من الحقائق ما لا يراه غيره، إذا كتب تاريخًا صاغه في لفظٍ أنيقٍ فيه فطانة، وبُعْد نظر، وحسن إدراك مع دعابة لطيفة تجعل من يقرأ له يحس أنه ليس مع مؤرخ أو فيلسوف و إنما مع فقيه من فقهاء التاريخ[١] .

ومن أبرز مؤلفات غربال رسالته للماجستير «بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي»[٢] والتي تعد حدثًا علميًا استرعى أنظار الأساتذة والباحثين، خاصة لأنها اتَّسمت باستقراء الأحداث، والفحص العلمي، والمقارنات، والناحية التحليلية، وكثرة المصادر والأسانيد كما اتسمت بالحياد في تقويم الأشخاص والبُعْد عن التحامل والعواطف.

وقد استطاع غربال في هذه الدراسة تناول التطورات السياسية في مصر منذ الحملة الفرنسية حتى وصول محمد علي إلى الباشوية، وأثبت أن المسألة المصرية كانت جزءًا مهمًا من المسألة الشرقية، وأنه لا يمكن فهم هذه المسألة إلا إذا ربطنا بينها وبين ما كان يجري في الدولة

(١) حسين مؤنس:التاريخ والمؤرخون، دراسة في علم التاريخ ص ٢٠٤.

(٢) كُتبت هذه الدراسة بالإنجليزية ولم تترجم بعد.

العثمانية وأوروبا، وهي الطريقة التي سار عليها أستاذه «توينبي» في مؤلفاته، وهي أنه لا يمكن للباحث أن يدرك كنه حقيقة تاريخ أمه من الأمم إذا هو قصر بحثه على تاريخ هذه الأمة، واكتفى بتتبع الحوادث التي وقعت فيها وحدها خصوصًا وأن حوادث العالم متشابكة فلا تقع حادثة في بلد من البلدان إلا امتدت آثارها إلى البلدان الأخرى بدرجات متفاوته قد تكون قوية أحيانًا، وغير مؤثرة في أحيان أخرى.

وتظل هذه الفترة بالذات محور اهتمام غربال ففي عام ١٩٣٢ كتب بحثًا بعنوان «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنه١٨٠١» اهتم فيه بدراسة شخصيتين هما المعلم يعقوب حنا أو الجنرال المصري يعقوب والفارس الإيطالي لاسكاريس.

والمعروف أن الجنرال يعقوب دخل في خدمة الفرنسيين، وقد أشار إليه الجبرتي أكثر من مرة في كتابيه «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» و«عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ذاكرًا مساعدته لقادة الحملة، وقيامه بتأليف فرقه من الأقباط وإنشاء قلعة لها في الأزبكية.

أما الفارس لاسكاريس فهو نبيل إيطالي، دخل في سلك فرسان القديس يوحنا الذين يتخذون من مالطة مقرًّا لهم، وحضر مع بونابرت إلى مصر، وتقلد بعض المناصب الإدارية، وكان يرى أن مصر جديرة بالاستقلال عن الدولة العثمانية بحكم موقعها وتاريخها ومواردها.

وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر تبعها الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس للسعي لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال مصر، ولكن يعقوب وافته المنية في الطريق، وكان نصيب مسعاه الإهمال.

ولا جدال في أن الأستاذ غربال قد نجح في تمحيص كل ما كُتب في هذا الموضوع[١]، وبذل ،

(١) أثارت شخصية الجنرال أو المعلم يعقوب الكثير من الجدل الثقافي أو التاريخي حينًا أو الطائفي حينًا آخر ؛ خاصة مع ممالأة يعقوب للاحتلال الفرنسي ومساعدته له ، ولهذا لم يكن رجال الدين المسيحي وقتها - لا سيما البطريرك - راضين عن تصرفاته وأحواله . وعلى هذا فقد اتَّهمه كثير من الدارسين بالخيانة ، في حين صوَّره البعض بأنه كان بطلًا يسعى إلى استقلال مصر !! . انظر أصداء هذا الجدل في كتابات : أحمد الصاوي ، وجلال كشك ، ورجاء النقاش ، ولويس عوض ، ويعقوب روفيلة ، وغيرهم . (المحرِّر) .

جهدًا في ترجمة الوثائق التي كتبها لاسكاريس وبذلك قدم بما كتبه خدمة للتاريخ المصري، وألقى شعاعًا على أول رؤية حقيقية لاستقلال مصر عن الدولة العثمانية.

وفي الثلاثينيات من هذا القرن نشر غربال دراسة تحت عنوان «مصر عند مفرق الطرق ـ رسالة حسين أفندي الروزنامجي» وتشتمل هذه الدراسة على تحقيق مخطوط بعنوان «ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين أفندي أحد أفندية الروزنامه في مصر العثمانية» وهو عبارة عن أسئلة موجهة إلى «المسيو ستيف» مدير مالية مصر - خلال الحملة الفرنسية - إلى حسين أفندي حول أحوال الفلاحة في مصر ونظام الالتزام والضرائب، وبعض النواحي المالية، وإجابات حسين أفندي عليها[1].

وقد مهدت دراسة هذا المخطوط الطريق لكل من تصدى لتاريخ الدولة العثمانية بالدراسة، وأكدت أن شفيق غربال كان محققًا من الطراز الأول خاصة وأنه أضاف إلى المخطوط من الشروح والتعليقات ما أوضح فهم غربال الصادق لحقائق التاريخ المصري، وإيمانه بدور مصر الحضاري.

ويستمر غربال في دراسته عن هذه الفترة فيخرج كتابًا بعنوان «محمد علي الكبير»[2]، وفيه وصف المناخ الذي كانت تعيشه مصر قبيل عصر محمد علي، ونجاح محمد علي في إقامة سلطة مركزية تجمع كل القوى المتصارعة في إطار واحد، وقيامه بحركات إصلاحية وعمرانية واسعة في شتى المناحي حتى عادت مصر كما كانت مهدًا للحضارة، كما وصف الصفوة المثقفة التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا لدراسة العلوم الحديثة، وعادت إلى مصر لتطبيق العلم على العمل بأنها ساعدت في النهوض بالزراعة والصناعة وبناء الجيش والأسطول، وأخذت عبقريتها تدب في جسم مصر وروحها كما تدب الخميرة في العجين، وأوضح أن ما قام به محمد علي من إصلاحات فاق ما كان يقوم به الفرنسيون لو امتد حكمهم في مصر، ثم أرجع نجاح محمد علي في إصلاحاته،

(١) مجلة كلية الآداب:المجلد الرابع جا مايو ١٩٣٦ ص ١-٧١.

(٢) نشر ضمن سلسلة أعلام الإسلام في عام ١٩٤٤ ، وأعادت دار الهلال نشره في أكتوبر ١٩٨٦.

وفشل السلطان العثماني محمود الثاني في الإصلاحات التي قام بها في تركيا إلى أن محمد علي كان يعتمد على ثلاثة أسس وهي القوة والعلم والمال في حين اعتمد السلطان العثماني على القوة العسكرية وحدها.

أما عن مساوئ السخرة والاحتكار وقصر المناصب العليا على الأرستقراطية العثمانية وغيرها فقد بررها غربال بأنه كان لابد من التضحية بجيل أو جيلين في سبيل بناء حكومة قوية ومعمرة في مصر.

وأما عن مواقف محمد علي من السلطنة العثمانية وأوروبا فقد تمكن غربال بفضل اتساع ثقافته، وتمكنه من أساليب الكتابة التاريخية إلى ربط تاريخ محمد علي بالأوضاع العامة في الدولة العثمانية وأوروبا، وطبيعة المؤامرات الدولية التي أحاطت به، كما رأى أن محمد علي وهو قائد عثماني مسلم كان لابد له من مساعدة الخليفة العثماني على إصلاح دار الإسلام وعلى الاحتفاظ بها مصونه ضد غزوات أعداء الإسلام وأنه ظَلَّ على إيمانه بهذا الموقف حتى فقد الثقة بالسلطان بعد صلح كوتاهيه في عام ١٨٣٣، وبدأ يفكر في الانفصال عن الدولة العثمانية، وإعلان استقلال ما يسمى «عربستان» أي البلاد العربية عنها، ولكنه كان يتردد في اتخاذ هذه الخطوة خشية ما يترتب عليها من المحاذير.

وعند تحليلنا لما كتبه غربال عن محمد علي نجد أنه تأثر تأثيرًا واضحًا بأستاذه «توينبي» في إيمانه بدور الصفوة المبدعة في مجالات النشاط البشري، وبنظريته عن فكرة التحدي والاستجابة Challenge and Response حين تطرق إلى معالجة العلاقات بين الشرق والغرب. يضاف إلى ذلك أنه دافع عن كل أعمال محمد علي وإنجازاته على حين أن هناك العديد من المآخذ على محمد علي وبعض أعماله التي كان يجب عليه توضيحها لا تبريرها. والى جانب ذلك نجد للأستاذ غربال دراسة قيمة تحت عنوان «تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ـــ بحث في العلاقات المصرية البريطانية من الاحتلال إلى عقد معاهدة التحالف ١٨٨٢-١٩٣٦»[1] . وهو

(١) نشرته مكتبه النهضة المصرية في مايو ١٩٥٢ و قبيل ثورة يوليو بشهرين.

كما يرى صاحبه في مقدمته« محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث، والوقائع، والسياسات، والخطط، والبواعث والأغراض والأماني والأحلام والشهوات التي توالت على مصر، والتي يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وإنجلترا ».

ويُلاحـظ على هذا الكتاب بصفة عامـة أنه بحث علمي مدعم بالوثائق والتحليلات العلمية البعيدة عن التحيز والمعروضة بأسـلوب مشـوق جذاب.

وفي فصـول هـذا الكتاب تعرض غربـال للمفاوضات المصرية البريطانيـة بصفة عامة، وبين كيفيـة نشـأتها، وكيف رضي بهـا الإنجليز والمصريون بوصفها وسـيلة لتحقيق الأمـاني، وصيانة المصالـح. وتعـرض للأحداث الـتي سـايرت المفاوضات، وقـدم وصفًا موجـزًا للسياسـة العامة للاحتـلال تجاه المصريين ثم تطـرق إلى العلاقات المصرية البريطانية إبـان الحرب العالمية الأولى بصورة مبدعة، ووصف المبررات التي استندت إليها إنجلترا كي تفرض حمايتها على مصر، وموقف الزعمـاء المصريين من ذلك. كما تعرض المؤلف للتحفظات الأربعة التي صحبت انتهاء الحماية في فبراير١٩٢٢، وتوقف عند عقد معاهدة١٩٣٦.

ومع أن كتاب الأسـتاذ غربال يعتبر أثرًا فريدًا من نوعه من حيث الموضوع وطريقة عرضه، وتدعيمـه بالوثائـق، وكثرة التحليـلات المدعمة بوجهات النظر المختلفة الـتي تؤكد فهم غربال الصـادق لحقائـق التاريخ المـصري فإنه مما يؤخذ على هـذا الكتاب أن صاحبه لـم يتعرض كثيرًا للظـروف الدولية العامـة ذات التأثير المباشر في العلاقات المصريـة البريطانية وربما يكون قد أجّـل كتابـة ذلك للجزء الثاني من الكتاب الذي كان يعـتزم إصداره،ولكنه لم ير النور فقد توفي دون أن ينتهي من كتابته.

وعلى كل حال فإن لهذه الدراسة مغزى مهمًا وهى أنها كانت المحاولة الأولى من جانب غربال للكتابة في القضايا المعاصرة، والتعرض للحركة الوطنية المصرية بعد أن كان القرن التاسع عشر وحده يحتل مكان الصدارة من اهتماماته.

وبعـد أن قامت ثورة ١٩٥٢ألقى غربال عشرة أحاديـث باللغة الإنجليزية في البرنامج الأوروبي

بالإذاعة المصرية في عام ١٩٥٤[١] عن «تكوين مصر» وفيها تحدث عن محبوبته ذات الأحرف الثلاثة وهي مصر فأوضح أن «مصر هبة المصريين» لا هبة النيل كما قال هيردوت لأن النيل الذي تقع مصر على ضفتيه قد قطع آلاف الأميال قبل أن يصل إلى مصر ومع ذلك فلا توجد غير مصر واحدة على طول مجراه، أقامها المصريون بكدهم وعرقهم، فهم الذين فلحوا الأرض وسقوها وزرعوها، وهم الذين أقاموا السدود والعمران في شتى أرجائها، ولولا جهودهم هذه لتحولت مياه النيل إلى مستنقعات وأماكن خربة تنتشر منها الملاريا والأوبئة ومن هنا فان البشر هم الذين صنعوا مصر، وهؤلاء البشر الذين فعلوا ذلك هم المصريون. كما أثبت غربال في أحاديثه أيضًا أن مصر مهد الحضارة التي تجمعت حولها كل الأحداث، وأن موجات الغزاة التي وفدت إليها لم تستطع أن تفُتَّ في عضدها أو تؤثر في شخصيتها.

ونظرًا لأهمية هذه الأحاديث فقد جمعت في كتاب صدر في القاهرة باللغة الإنجليزية في عام١٩٥٥ ثم ترجم إلى العربية، ونشرته وزارة الثقافة المصرية في عام١٩٥٧، كما ترجمته «كارمن برافو» الباحثة بقسم الدراسات السياسية بكلية الآداب جامعة مدريد إلى الإسبانية[٢].

أما عن آخر ما كتبه غربال فكان بعنوان «منهاج مفصل لدراسة العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم»، وقد بين فيه العوامل التاريخية التي أثَّرت في بناء الأمة العربية وحدَّدَها فيما يلي:

١- الأثر العثماني في الأمة العربية

٢- الغزو الأوروبي وأثره في الأمة العربية

٣- التطور الداخلي للأمة العربية

وشرح كذلك ظروف وقوع العالم العربي تحت الحكم العثماني والظروف التي أدت إلى الغزو الأوروبي للأقطار العربية. والنتيجة التي خرج بها غربال من دراسته لهذا الموضوع

---

(١) أذيعت هذه الأحاديث بعد ذلك من محطات إنجليزية وأمريكية متعددة.

(٢) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد: مدريد، المجلد الرابع عشر ١٩٦٧، ص٧-٤٧.

تتلخص في أن عوامل التدافع والتصادم بين الأمة العربية والقوى الغازية لها انجلت عن ظهور النهضة العربية الحديثة، وإلى جانب ذلك فإن لغربال جهودًا كبيرة في مجال الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبخاصة في مجال التوجيه والمراجعة والإشراف على نقل عدد من أمهات الكتب التاريخية اللازمة لتثقيف الجيل العربي، وإفادة الدارسين والباحثين. كما أن له العديد من البحوث والمقالات التاريخية المنشورة في المجلات العلمية[1]، وفي الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية[2]، وفي تقديمه لكتب تلاميذه وأصدقائه وفضلاً على ذلك فله عدد كبير من الأحاديث الإذاعية في موضوعات تاريخية متنوعة منه موضوعات في التاريخ الإسلامي، وسلسلة أخرى عنوانها «العالم الإسلامي من المحيط إلى الخليج» لو جمعت في صورة مدونات لكانت تُراثًا ضخمًا من المؤلفات.

وبعد أن تعرضنا لمؤلفات غربال يتضح لنا مدى قدرته، وتمكنه من أصول فن التاريخ، وإدراكه لحقائق تاريخ بلده، يُضاف إلى ذلك أن كتاباته كانت تتحلى بالعمق ويتجلى فيها الموضوعية، وعدم إلقاء الأحكام جزافًا، وأنه وإن كان قد تأثر بمدرسة «توينبي» كثيرًا ؛ فإنه لم يخضع في كثير من الأحيان لفلسفة تاريخية معينة بل كان يأخذ من كل تفسير بقدر طبيعة الدراسة التي يتعرض لها والملابسات التي تحيط بها. وحينما يتعرض لإحدى القضايا الشائكة التي تتعدد الآراء فيها كان في معظم الأحيان لا يفرض على القارئ رأيًا بعينه بل كان يستشهد بآراء من تعرض لهذا الموضوع ليبحث القارئ معه عما هو أقرب من الموضوعية، وأحيانًا كان يبدي رأيه في همس هادئ أبعد ما يكون عن التكلف، وأقرب إلى اللمسات الفكهة الإنسانية المهذبة. وعلى كل حال لم تكن مؤلفات غربال ومصنفاته العلمية وحدها كل ما قدمه بل لعل أهمها تلاميذه الذين تشربوا ثمرات فكره، ونبضات عقله .

---

(١) انظر على سبيل المثال مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية، المجلد الثاني، العدد الأول، مايو ، تحت عنوان أمير سوري في إيطاليا ص٧٦-١١١.

(٢) انظر مادة الترك في الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية.

فقد سأله يوما أحد الأجانب عن آخر مؤلفاته، وكان في مجلس العلم من تلاميذه فأشار إليهم قائلا: «هؤلاء هم كتبي» .

هذا عن غربال وجهوده المتعددة في المجالات التاريخية. أما عن أنشطته العلمية الأخرى والمناصب المتعددة التي تولاها فقد انتخب شفيق غربال وكيلًا لكلية الآداب فعميدًا لها في مايو١٩٣٩ وحتى مارس١٩٤٠.

وفي عام ١٩٤٠ نُقِلَ غربال من الجامعة إلى وزارة المعارف ليبدأ مرحلة جديدة في خدمة التربية والتعليم، وهى خدمة وطنية جليلة، وظل هناك حتى ديسمبر١٩٤٢ يعمل وكيلًا مُساعدًا بالوزارة، ثم عاد إلى منصبه بالجامعة لإدارة دفة المدرسة التاريخية.

وفي يناير١٩٤٥ نقل غربال إلى وزارة المعارف مستشارًا فنيًا فوكيلًا لها إلى جانب تعيينه أستاذًا غير متفرغ بكلية الآداب في فبراير١٩٤٩ وأتاح له ذلك الالتقاء بطلابه والاستمرار في مدرسته التاريخية ثم نقل وكيلًا لوزارة الشئون الاجتماعية لفترة أُعيد بعدها إلى وزارة التربية والتعليم حيث نهض بنصيب كبير في أعمال لجان المناهج بالوزارة[1] .

وخلال عمل غربال بوزارة التربية كان له دور بارز في حركة تمصير المقررات التاريخية بالمدارس، كما كانت الكتب الدراسية التي أسهم في وضعها بمثابة النواة التي اهتدى بضوئها الطلاب والكتّاب من بعده.

وإلى جانب ذلك لمس غربال عن قرب مشكلات المجتمع المصري والحياة المصرية بوجه عام. وقد قدم غربال للدراسات التاريخية في مصر خدمات جليلة تمثلت في إنشاء «الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» التي كانت تعتبر وبحق ربيبته القريبة من قلبه. فقد سعى سعيًا ملموسًا من أجل إنشائها حتى صدر المرسوم الملكي في عام ١٩٤٥ بإنشاء الجمعية، وصدر بعده أمر ملكي بتعينه نائبًا لرئيس الجمعية، واستمر الحال على ذلك حتى انتخب لمنصب الرئيس في عام ١٩٥٦

---

(١) ظل غربال بوزارة التربية إلى أن أحيل إلى التقاعد في عام١٩٥٤ بعد أن بلغ الستين.

وخلال ذلك أشرف شفيق غربال على إنشاء مكتبة الجمعية التي تدين له بالكثير من الفضل، وكانت سياسته في هذه المرحلة ترمي إلى اقتناء كل كتاب طيب يمكن اقتناؤه، ثم عمل بعد ذلك على أن يكون لكل موضوع مراجعه الأساسية فقام بتزويد المكتبة بمجموعات قيمة من الكتب والمراجع التي تعالج الكثير من القضايا التاريخية المهمة ، هذا إلى جانب رئاسته لتحرير مجلة الجمعية السنوية، وإخراجه لمجموعة قيمة من مطبوعاتها. يضاف إلى ذلك أن شفيق غربال كان سبَّاقًا إلى المساهمة في أنشطة الجمعية الثقافية فشارك فيها بمحاضراته التي كانت تتعدد أحيانًا في الموسم الثقافي الواحد[١] .

وإلى جانب ذلك عمل شفيق غربال على بناء مكانة مرموقة للجمعية بين مثيلاتها في العالم، وذلك عن طريق اتصالاته العديدة بالمؤرخين الأجانب وحضور بعض مؤتمراتهم، ودعوة بعضهم لإلقاء محاضرات بالجمعية علاوة على تشجيعه على نشر بعض البحوث بلغات أجنبية في مجلد خاص ، ومن مآثر غربال أيضًا إشرافه على إنشاء متحف الحضارة المصرية في عام١٩٤٩ فقام بتوجيه لجانه المختلفة بآرائه وتحقيقاته .كذلك مثَّل غربال الحكومة المصرية في عدة مؤتمرات تاريخية فقد ترأس وفد مصر إلى الجمعية العمومية لليونسكو في عام١٩٤٨ وانتخب عضوًا بالمجلس التنفيذي لهذه الهيئة عدة سنوات فظل يمثل الشرق الأوسط لدى هذه المنظمة من عام١٩٤٦ إلى عام١٩٥١. يضاف إلى ذلك أن هيئة اليونسكو اختارته في عام١٩٥١ لعضوية لجنة من اثنى عشر مؤرخًا من أبرز مؤرخي العالم ليكونوا مستشارين لها في شئون العالم وهو مشروع المؤلف الضخم الذي تكفلت به اليونسكو[٢] .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان غربال عضوا بمجمع اللغة العربية في الفترة بين عام١٩٥٦ وسنه وفاته، كما كان عضوا بالمجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية، والمجلس الأعلى للآثار، ومركز تسجيل الآثار المصرية القديمة، وجمعية الآثار القبطية، ولجنة التاريخ والآثار بالمجلس

(١) لتفاصيل ذلك انظر كتابنا الجمعية المصرية للدراسات التاريخية دراسة تاريخية لمؤسسة علمية، ص١٤٧-١٥٢.

(٢) المجلة التاريخية المصرية: المجلد الحادي عشر ١٩٦٣.

الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ورئيس الشعبة التاريخية للجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية.

هذا إلى جانب أنه رأس مجلس مديري الموسوعة العربية الميسرة فيما بين عامي١٩٥٩-١٩٦١ [١].

وعلى الرغم من مشاغل غربال في وظائفه التي استنفدت الكثير من وقته ظلت صلته بالدراسات التاريخية مستمرة، واستمرت مدرسته التاريخية القائمة على حب البحث والتزام المنهج العلمي قائمة.

وبعد تقاعده تولى منصب مدير معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية خلفًا للأستاذ ساطع الحصري فبعث فيه الحركة والنشاط، ووَّثق علاقته بالهيئات العلمية والجامعية التي لم تعرف قبل غربال أن هناك معهدًا بهذا الاسم، كما نهض المعهد في عهده نهضة علمية كبيرة.

يضاف إلى ذلك أن غربال عمل على توجيه طلابه بالمعهد توجيهًا علميًا فأخذ يشرف على عدد كبير من الرسائل التاريخية في المعهد تتناول تاريخ الأمة العربية الحديث والمعاصر حتى خرجت على يديه موضوعات عن العرب والترك (١٩٠٨-١٩١٦) و«تاريخ الوحدة العربية حتى عام١٩٤٥» و«المسألة المراكشية١٩٠٢-١٩١٢» و«اليمن في عهد الإمام يحي ١٩١١-١٩٤٨» وغيرها.

وظل غربال يشغل منصبه في هذا المعهد بجدارة وهمة حتى وفاته في ١٩ أكتوبر١٩٦١ بعد مرض قصير لم يمهله إلا أيامًا فذهب إلى جوار ربه، فبكاه أصدقاؤه وتلاميذه ومقدرو علمه وعارفو فضله [٢] .

---

(١) مذكرة الجمعية التاريخية بشأن ترشيح الأستاذ غربال لجائزة الدولة التقديرية١٩٦٠.

(٢) Abdel Rahman Zaki:Mohammed Shafik Ghorbal 1894-1961,Cairo 1962

مما سـبق يتضح أن شـفيق غربال كان مؤرخًا وعالمًا من الطراز الأول يستقرئ الحضارات كما يستقرئ الوثائق والنصوص وأنه مصري أصيل عمل في تواضع ورحابة أفق على النهوض بالدراسات التاريخيـة فأرسى قواعدها، ووجهها التوجيه العلمي السـليم، كمـا يتضح أن جهوده لم تقتصر على إنعـاش الدراسـات التاريخية في مصر بل تعداها إلى المشـاركة في الحركـة الفكرية بكل جوانبها وأبعادهـا ومما يحمد له أنه لم يتملق السراي الملكية رغم إعجابه بشـخصية محمد علي، فكان بحق المثـل الأعلى للأسـتاذ الجامعي الذي يحق لمصر أن تفخر به. وحسـنًا فعلـت جامعتا القاهرة وعين شمس عندما أطلقتا اسمه على مدرج في كليتي الآداب بهما.



العَطَاءُ العِلْمِيّ للمُؤَرِّخ محمد شفيق غُربال

(محاولة ببليوجرافية وقراءة ببليومترية)

د. حسام أحمد عبد الظاهر
باحث في التراث والتاريخ الإسلامي
بدار الكتب والوثائق القومية

رُوي أكثر من مرة أن البعض قام بتوجيه سؤال إلى المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال[١] (١٣١١-١٣٨١ هـ/١٨٩٤-١٩٦١م) عن عدد مؤلفاته فأشار إلى تلامذته قائلًا: «هؤلاء هم أهم مؤلفاتي». وقد شاعت هذه المقولة شيوعًا كبيرًا خاصة أن من رواها اثنين من كبار مؤرخينا وهما الدكتور أحمد عزت عبد الكريم[٢]، والدكتور محمد أنيس[٣].

ونتيجة لشيوع هذه المقولة ظن الكثيرون بل وأكدوا على قلة الإنتاج العلمي لشفيق غربال ومحدوديته؛ وهي مقولة ظالمة تحاول ورقتي هذه دفعها والرد عليها، حيث تقوم على تغطية الإنتاج العلمي والثقافي لشفيق غربال وفقًا لما تم التوصل إليه حتى الآن.

وهدف هذه الدراسة ليس دراسة حياة هذا المؤرخ الكبير وأفكاره وفلسفته التاريخية ومنهجه ومكانته؛ فالهدف الرئيس هو عمل قائمة ببليوجرافية لأول مرة عن أعمال شيخ المؤرخين المصريين في العصر الحديث، وتقديم قراءة ببليومترية لهذه القائمة. ومن المعروف أن الكم وإن كان أحد جوانب الدراسة الموضوعية إلا أنه غالبًا ما يكون تقريبيًا أو بمعنى أكثر وضوحًا قاصرًا عن الاستيفاء الكامل. والمتغيرات البحثية التي سآخذ بها في هذه الورقة تتمثل في الأبعاد الزمنية، وأشكال الإنتاج العلمي، والدرجات العلمية، والمراحل العمرية، وعدد الطبعات. مع محاولة الربط بين بعض هذه المتغيرات وبعضها الآخر.

***

---

(١) عن شفيق غربال وكتاباته ومنهجه في الكتابة التاريخية، انظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى: شفيق غربال مؤرخًا. المجلة التاريخية المصرية. مج ١١، ١٩٦٣م، ص ص ٢٥٥-٢٧٨؛ عبد المنعم الجميعي: اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر «القرنين التاسع عشر والعشرين». القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٤م، ص ص ١٥٩-١٧٠؛ أحمد زكريا الشلق: من الحوليات إلى التاريخ العلمي - نهضة الكتابة التاريخية في مصر. سلسلة مصر النهضة (٨٤). القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١١م، ص ص ١٧٤-١٨٠.

(٢) أحمد عزت عبد الكريم: كلمته في تأبين محمد شفيق غربال بمعهد الدراسات العربية العالية، ديسمبر ١٩٦١م. المجلة التاريخية المصرية. مج ١٩، ١٩٧٢م، ص ١٩.

(٣) محمد أنيس: شفيق غربال ومدرسة التاريخ المصري الحديث. مجلة المجلة. السنة الخامسة، العدد ٥٨، نوفمبر ١٩٦١م، ص١٣.

في البدايـة يجـب أن أذكـر أن هنـاك مشـكلات عديدة واجهتـني أثناء قيـامي بإعداد ببليوجرافية شفيق غربال ومنها:

١. طُول الفـترة الزمنيـة الواقعة بيننا ـ في سـنة ٢٠١٣م ـ وبين السـنة رحل فيها شـفيق غربال -١٩٦١م ـ منـذ أكـثر من خمسـين(٥٠) عامًا، وكذلـك طول الفترة الزمنية الـتي تمثلها حياة شفيق غربال العلمية في الإنتاج العلمي والتأليف والنشر، والتي بلغت سبعة وثلاثين(٣٧) عامًـا خلال الفـترة (١٩٢٥-١٩٦١م) أي إلى السـنة الـتي رحل فيها، بالإضافـة إلى أن عطاء غربال العلمي لم ينته برحيله؛ فبجانب هذه الفترة هناك سـبع (٧) سـنوات أخرى تمتد إلى سنة ١٩٦٨م والتي ظهرت له فيها بعض جوانب العطاء العلمي التي لم تكن نشرت من قبل.

٢. وجود بعض الأعمال التي ذكر شـفيق غربال نفسـه أنه انتهى منها، ولا يوجد دليل على نشرهـا. ومن ذلك ما ذكره في مقالته «مصر عنـد مفرق الطرق» التي نشرها قبل رحيله بربـع قـرن، بأن مـا ينشره عـن ترتيب الديـار المصريـة للروزنامجي ما هـو إلا المقالة الأولى وأن مقالـة إسـتيف عـن ماليـة مصر هي المقالـة الثانية التي يعمـل بها[١]، وعلى الرغـم من السـنوات الطويلة الـتي أعقبت نشر المقالة الأولى إلا أن شـفيق غربال لم يقـم بنـشر مقالتـه الثانية على الإطلاق. وينطبق ذلك أيضًا على الجـزء الثاني من كتابه «تاريـخ المفاوضـات المصريـة البريطانية» حيـث ذكر في أحد الحـوارات الصحفية معه قبـل رحيلـه بأكثر من ثلاث (٣) سـنوات أنه قـد انتهى من تأليفه وأنه سـوف يصدره قريبًـا[٢]؛ وبالرغـم مـن هـذا التصريـح إلا أن هـذا الجـزء الثـاني لـم يـر النـور.

٣. اعتمـد البعـض في دراسـاتهم وكتبهم على محاضرات لشـفيق غربـال ذاكرين إياها في قائمـة مراجعهـم غـير أننـا لم نعـثر على مثل هذه المحـاضرات. ومن ذلـك محاضراته

(١) محمد شفيق غربال: مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨ـ١٨٠١م. مجلة كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع، الجزء الأول، مايو سنة ١٩٣٦م، ص٦.

(٢) انظر: الحوار الذي أجراه الأسـتاذ عبد التواب عبد الحي مع الأسـتاذ محمد شـفيق غربال. مجلة الإذاعة. العدد ١١٩٢، السبت ١٨ يناير ١٩٥٨م، ص ١٤.

في «تاريخ الشرق الأدنى في العصر العثماني»، والتي أشار إلى ذكرها الدكتور حسن عثمان في قائمة مراجعه في كتاب «منهج البحث التاريخي»[١]. وأيضًا محاضراته في تاريخ السودان الحديث، وهي مجموعة محاضرات ألقاها شفيق غربال في معهد الدراسات السودانية بالقاهرة، خلال السنوات ١٩٤٨ـ١٩٥١م، وقد تم جمعها معًا واعتمد عليها بعض الباحثين مثل: الدكتور إبراهيم عبده في كتابه «في السودان»[٢]. وقد قام الدكتور علي إبراهيم عبده في كتابه «المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠ـ١٩٠٦م»[٣]. الصادر سنة ١٩٥٨م بتقديم تقرير شبه واف عن هذه المحاضرات ذاكرًا أنها اشتملت على تسعة موضوعات كبيرة هي: الإدارة في السودان قبل الحركة المهدية، وحركة الكشف الجغرافي وآثارها بالنسبة للاستعمار الأوروبي في أفريقيا، وقدوم العرب إلى ساحل أفريقيا الشرقي ونتائجه، والرّق الأفريقي واتصاله بالاستعمار، والحركة المهدية ومقارنتها بالحركات الدينية الأخرى كالوهَّابية والسنوسية، وإخلاء السودان، والأحوال الداخلية في السودان في عهد المهدي وخليفته عبد الله التعايشي، واسترداد السودان، وأزمة فاشودة. ويبدو أن هذه المحاضرات كانت موجودة إلى عهد قريب، والذي يجعلنا نؤكد ذلك أن هناك كتاب صدر سنة ١٩٨٥م ضمن سلسلة «مصر النهضة» وهو كتاب «الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادي بين مصر والسودان» لنسيم مقار[٤] والذي ذكر في مراجعه هذه المحاضرات مرفقة ببيان أنها غير مطبوعة. ويحدونا الأمل في أن يعثر بعض الباحثين على مثل هذه المحاضرات وإعدادها للنشر في كتب تضاف إلى الرصيد العلمي المنشور لشفيق غربال.

---

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي. القاهرة، دار المعارف، ط٧، ١٩٩٦م، ص ٢١١.

(٢) إبراهيم عبده: في السودان. القاهرة، دار مجلتي، د.ت، صو و٤٠ و ٤٧.

(٣) علي إبراهيم عبده: المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠ـ١٩٠٦م. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م، ص ص ٣٩٥ـ٣٩٦.

(٤) نسيم مقار: الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادي بين مصر والسودان. سلسلة مصر النهضة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ص٢١٧.

٤. وجود بعض الأخبار عن قرب صدور بعض أعمال شفيق غربال، ومن ذلك ما نشر في بعض الصحف سنة ١٩٤٠م[١] خبر مفاده اشتراك شفيق غربال مع طه حسين ومحمد رفعت وجاستون فييت وآخرين في وضع كتاب عن مدينة القاهرة يصور نشأتها وتاريخها السياسي والفني والعقلي؛ غير أنه لم يثبت صدور مثل هذا الكتاب. كما يصدق ذلك أيضًا على إعلان الجمعية الفلسفية سنة ١٩٤٥م عن قرب صدور كتاب لشفيق غربال عنوانه «فلسفة التاريخ» وذلك في ذيل كتاب «الحياة الروحية في الإسلام»، لمحمد مصطفى حلمي[٢]، إلا أن هذا الكتاب لم ير النور، ولا نعرف ما هو المصير الذي آلت إليه أصوله.

٥. ومن المشكلات أيضًا ما يشير إليه البعض[٣] من انتهاء شفيق غربال سنة ١٩٥٢م أو ١٩٥٤م من تحقيق كتاب «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» للجبرتي، إلا أنه لم يُنشر. وقد أشار البعض الآخر[٤] نقلاً عن محضر اجتماع مجلس إدارة الجمعية التاريخية بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٦٧م إلى أن هناك أوراقًا لشفيق غربال أودعت في الجمعية كان منها كتاب «مظهر التقديس»، فهل هو التحقيق الذي قام به شفيق غربال؟ الحقيقة لا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال؛ خاصة وأن هذه الأوراق لا توجد في الجمعية التاريخية الآن.

٦. الأخطاء العديدة التي وقع فيها البعض في توصيف أعمال شفيق غربال مثل عمله المعروف «أمير سوري في إيطاليا في القرن السابع عشر» والمنشور في مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٤م، تورده الدكتوره عايدة نصير في كتابها «الكتب العربية

(١) جريدة الأهرام، ٢٥ يناير ١٩٤٠م.

(٢) محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية،١٩٤٥م، ص ١٦٤.

(٣) محمد أنيس: شفيق غربال ومدرسة التاريخ المصري الحديث، ص١٤؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية. الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٩م، ص٢٩٨. ويذكر البعض أن شفيق غربال حقق كتاب الجبرتي قبل سنة من إصدار كتاب «تكوين مصر» أي في سنة ١٩٥٤م. انظر: سامي خشبة: مفكرون من مصر، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص ١٩٩.

(٤) عبد المنعم الجميعي: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (دراسة تاريخية لمؤسسة علمية ١٩٤٥ـ١٩٨٥م)، ص ١٥٠.

التي نشرت في مصر بين عامي ١٩٢٦–١٩٤٠م»[١] على أنه كتاب وهو ليس كذلك. وأيضًا مثل مقالة «تونس المعاصرة» والتي كتبها شفيق غربال في الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية، ثم أعادت لجنة دائرة المعارف نشرها ضمن كتاب «تونس الخضراء» سنة ١٩٤٣م؛ نجد البعض[٢] يذكر أنه أحد كتب شفيق غربال.

٧. الخلط الذي تقع فيه فهارس بعض المكتبات من نسبة أعمال لشفيق غربال وهي ليست له. ومن ذلك ما يرد في فهارس دار الكتب من وجود كتاب لشفيق غربال عنوانه «الحكر وتقديره»، صدر سنة ١٩٢٦م؛ وهو كتاب لمحمد شفيق باشا عضو مجلس الشيوخ ووزير الزراعة والأشغال العمومية. وكذلك فهرس مكتبة الجمعية التاريخية والذي ينسب لشفيق غربال كتب مثل: «البحث العلمي»، و«التشريعات الاجتماعية العمالية»... وغيرها، والصواب أنها للدكتور محمد شفيق بجامعة الإسكندرية.

٨. وجود مجموعة من المحاضرات والأحاديث الإذاعية التي ألقاها شفيق غربال في مناسبات مختلفة، ولم نجد لها نصًا مكتوبًا[٣]. وقد آثرنا استبعاد هذه المحاضرات والأحاديث التي لم نجد نصوصها، ولم نوردها في القائمة البيليوجرافية المرفقة بهذه الدراسة، التي اقتصرنا فيها على ما له نص مكتوب.

***

والتحليل المبدئي لهذه القائمة البيليوجرافية يبين أنه يمكن تقسيم جوانب العطاء العلمي لشفيق غربال التي تبلغ مائة وثمانية وسبعين (١٧٨) عملًا علميًا إلى عشرة (١٠) أقسام على النحو الوارد في الجدول (١):

---

(١) ص ١٦٣.

(٢) عبد الرحمن زكي: محمد شفيق غربال ١٨٩٤ـ١٩٦١م. مجلة جمعية الآثار القبطية. المجلد ١٦ (١٩٦١ـ١٩٦٢م). القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٦٢م، ص ٣.

(٣) انظر تفصيلات ذلك في: حسام عبد الظاهر: تراث محمد شفيق غربال. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٢م، ج١ ص ص ٣٠ـ٣٢.

النوع	العدد	النسبة المئوية
الكتب	٨	٤,٤٩٪
التحقيق ونشر النصوص	٢	١,١٢٪
البحوث والمقالات	٧٣	٤١,٠١٪
المقدمات	٣٣	١٨,٥٣٪
الحلقات النقاشية	١	٠,٥٦٪
الحوارات الصحفية	٦	٣,٣٧٪
الترجمة	٢	١,١٢٪
التحرير	٢	١,١٢٪
المراجعة	٢٠	١١,٢٣٪
الإشراف	٣١	١٧,٤١٪
المجموع	١٧٨	١٠٠٪

جدول (١)

ويفهـم من الجدول (١) عـدة حقائق من بينها أن البحوث والمقـالات تحتل المرتبة الأولى في مجالات العطاء العلمي لشـفيق غربال بعدد ثلاثة وسـبعين (٧٣) عمـلًا تمثل ٤١,٠١٪ من جملة العطاء العلمي، تليها مقدمات الكتب بعدد إجمالي ثلاث وثلاثين (٣٣) مقدمة تمثل ١٨,٥٣٪ ، ثم يأتي بعدها الإشراف على الرسائل الجامعية بعدد إحدى وثلاثين (٣١) رسالة بنسبة ١٧,٤١٪ ، وبعد ذلك تأتي الكتب بنسبة ٤,٤٩٪.

وإذا حاولنـا تَفَهُّـم إنتاجية العطاء العلمي زمنيًا ـ في ضوء الببليوجرافية ـ سـيتبين لنا وجود قمة إنتاجية لشـفيق غربال تتمثل في سـنة ١٩٤٨م، والتي شهدت وحدها ظهور أربعة عشر (١٤)

عملًا علميًّا[1]، تليها قمة أقل منها خلال سنة ١٩٦٠م حيث ظهر فيها ثلاثة عشر (١٣) عملاً علميًّا[2]. وعامة فإنه يلاحظ أن الفترة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٦١م يزيد فيها إنتاج شفيق غربال العلمي كثيرًا عن الفترة التي تسبقها (١٩٢٥-١٩٤٧م) .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه يُستنتج من البيليوجرافية أن شفيق غربال لم يتوقف قط عن الإنتاج العلمي إلا لسنوات قليلة تمثل فترات انقطاع عن ظهور أو نشر أي عمل له فيها، وتتمثل تحديدًا في خمس (٥) سنوت هي ١٩٢٦، ١٩٢٧، ١٩٢٩، ١٩٣١، ١٩٣٥م. ويلاحظ أن هذه السنوات الخمس تقع ضمن السنوات العشر الأولى من رحلة العطاء العلمي لشفيق غربال، والذي لم يكن قد التحق بالجامعة في السنوات الأربع الأولى منها؛ حيث كان لا زال يعمل مدرسًا في مدرسة المعلمين.

***

ويجدر الذكر أن إنتاجية الكتب عند شفيق غربال توزع ـ في ضوء البيليوجرافية ـ على ثمانية أعوام كالآتي:

---

(١) انظر القائمة البيليوجرافية، أرقام: ١٥، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٤، ٣٧، ٤٩، ٧٠، ٧٥، ٧٦، ٩٤، ١١٢، ١٢٥، ١٦٥.

(٢) انظر البيليوجرافية، أرقام: ١٤، ٥٩، ٦٢، ٩١، ١١١، ١١٩، ١٢٩، ١٣٨، ١٣٨، ١٤٤، ١٥٧، ١٧١، ١٧٨.

السنة	الكتب
١٩٢٥م	التاريخ القديم
١٩٢٨م	The Beginning of the egyption question and the rise of Mohamed Ali بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي
١٩٣٢م	الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١م.
١٩٤٤م	محمد علي الكبير
١٩٥٢م	تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية. الجزء الأول ـ بحث في العلاقات المصرية البريطانية من الاحتلال إلى عقد معاهدة التحالف ١٨٨٢ـ١٩٣٦م
١٩٥٥م	The Making of Egypt تكوين مصر
١٩٦١م	منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم
١٩٦٢م	من زاوية القاهرة

جدول (٢)

ويُفهم من ذلك أن مؤرخنا الكبير بدأ باكورة إنتاجه العلمي بعد عام واحد من حصوله على درجة الماجستير وذلك في سنة ١٩٢٥م، وهي تتمثل في كتابه «التاريخ القديم» والذي شاركه فيه المؤرخ الإنجليزي إدجار.

ويلاحظ أن شفيق غربال بعد صدور كتابه الأول هذا انقطع عن نشر الكتب لمدة ست (٦) سنوات كاملة أي إلى سنة ١٩٣٢م حين نشر كتابًا يتضمن محاضراته التي ألقاها في الجمعية الجغرافية عن «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١م»، وفي منتصف هذه السنوات الست أي في سنة ١٩٢٨م طبعت في لندن أطروحته

التي حصل بها على درجة الماجستير[١].

وقد تضاعفت فترة عدم نشر كتب لشفيق غربال بعد ذلك؛ حيث انتظرنا اثنا عشر (١٢)عامًا لكي يظهر كتاب جديد له وهو كتابه «محمد علي الكبير» الصادر سنة ١٩٤٤م. وظهر بعد ذلك بثماني (٨) سنوات الجزء الأول من كتابه «تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية».

نريد من ذلك أن نذكر أن كتب شفيق غربال والتي لم تبلغ سوى ثمانية (٨) فقط نشرت على فترات متباعدة إجمالًا، ولم يتواصل إنتاج الكتب سوى في عامي ١٩٦١و١٩٦٢م وقد ظهر فيهما كتابيه «منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم» و«من زاوية القاهرة».

* * *

وبخصوص مقدمات الكتب الآتية في المرتبة الثانية من الناحية العددية كما ذكرنا يجدر الذكر أن بعضها مقدمات قصيرة لا تخلو من أهمية ودلالات مفيدة، وبعضها الآخر يُعتبر بحوثًا قائمة بذاتها، منها ـ على سبيل المثال ـ مقدمة كتاب: «تاريخ التعليم في عصر محمد علي»، ومقدمة كتاب «تاريخ التعليم من نهاية حكم محمد علي إلى أوائل حكم توفيق»، لأحمد عزت عبد الكريم[٢]، وأيضًا مقدمته للترجمة العربية لكتاب «القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط» لأرشيبالد لويس[٣].

* * *

---

(١) انظر رقم ٦ في القائمة الببليوجرافية. ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب بالإنجليزية، بتقديم المؤرخ العالمي أرنولد توينبي، وهو في أصله الرسالة التي حصل بها شفيق غربال على درجة الماجستير في التاريخ الحديث، وهذا الكتاب يقوم بترجمته حاليًا الدكتور مصطفى رياض بالمركز القومي للترجمة، بمراجعة وتقديم: الدكتور أحمد زكريا الشلق.

(٢) انظر رقمي ٨٩ و٩٠ في الببليوجرافية.

(٣) رقم ٩١ في الببليوجرافية.

أما أعمال التحقيق ونشر النصوص فلم يقم شفيق غربال فيها إلا بنشر نصين يرجعان إلى العصر العثماني :

أحدهما : نشره سنة ١٩٣٤م وهو خاص بتاريخ الشام وهو «أمير سوري في إيطاليا في القرن السابع عشر» للصفدي[١].

وثانيهما : يختص بتاريخ مصر وهو نص حسين أفندي الروزنامجي المعروف بـ «ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية»، ونشره بعد عامين من النص الأول أي في سنة ١٩٣٦م[٢].

والملاحظ ارتباط اهتمام غربال بنشر النصوص بالفترة الأولى من عطائه العلمي، وهو الاهتمام الذي لم يستمر بعد ذلك، غير أننا نجده في السنوات الأخيرة يقوم على مراجعة بعض الأعمال التحقيقية مما يدل على عودته مرة أخرى إلى الاهتمام والتشجيع على نشر النصوص التاريخية[٣].

***

والحديث عن النشاط العلمي الذي قام به شفيق غربال في المراجعة العلمية على المؤلفات يدفعنا إلى تناول هذه الظاهرة في العطاء العلمي لدى هذا المؤرخ الكبير؛ حيث اشتهر عنه قيامه بمراجعة الكثير من المؤلفات، وهو ما يمكن تصويره على النحو الآتي:

نوع المراجعة	المراجعة على المؤلفات	المراجعة على التحقيقات	المراجعة على المترجمات	المجموع
عدد المراجعات	٤	٢	١٤	٢٠

جدول (٣)

(١) رقم ٩ في الببليوجرافية.

(٢) رقم ١٠ في الببليوجرافية.

(٣) انظر رقمي ١٣٠ و١٣٤ في الببليوجرافية.

ويلاحظ من الببليوجرافية أن مراجعة شفيق غربال على المؤلفات بدأت معه سنة ١٩٣٩م بمراجعته لكتاب «مصر في العصور القديمة» للأساتذة إبراهيم نمير سيف الدين، وزكي علي، وأحمد نجيب هاشم[١]، أما المؤلفات الثلاثة الأخرى التي راجعها فكانت خلال فترة الخمسينيات[٢].

كما يلاحظ أيضًا أن النسبة الغالبة من جهود المراجعة عند شفيق غربال تذهب إلى المترجمات، والتي لم تبدأ معه إلا متأخرة في سنة ١٩٥٠م حتى رحيله، وخلال هذه المرحلة الأخيرة من حياته قام بمراجعة أربعة عشر (١٤) كتابًا، ثلاثة (٣) منها فقط في التاريخ[٣] و أحد عشر (١١) عملًا أدبيًا للأديب الإنجليزي وليم شكسبير[٤] راجع ترجمتها بالاشتراك مع الأستاذ محمد بدران، وهي الأعمال التي قام بترجمتها: سهير القلماوي، ولويس عوض، وإبراهيم زكي خورشيد، ومحمد عوض محمد... وغيرهم. كما راجع الجزء الثالث من ترجمة محمد بدران لمسرحية الملك هنري السادس، وهي أيضًا لشكسبير.

ومن الجدير بالذكر أن معظم هذه الأعمال الأدبية التي راجع ترجمتها شفيق غربال ظهرت إلى النور بعد رحيله سنة ١٩٦١م مستمرة في الصدور حتى سنة ١٩٦٨م.

* * *

ومراجعة الترجمات تنقلنا إلى موضوع آخر خاص بالترجمات التي قام بها شفيق غربال بنفسه، والتي يمكن تقسيمها إلى قسمين: أحدهما ترجمة الكتابات التي كتبها هو بالإنجليزية وهو ما لم يتوافر سوى في حالة واحدة تتمثل في كتابه «تكوين مصر» والذي نشر أولًا بالإنجليزية سنة ١٩٥٥م ثم قام شفيق غربال بترجمته إلى اللغة العربية بالاشتراك مع محمد رفعت.

---

(١) رقم ١٢٧ في القائمة الببليوجرافية.

(٢) انظر الببليوجرافية، أرقام ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦.

(٣) انظر أرقام ١٢٩، ١٣١، ١٣٢ في الببليوجرافية.

(٤) انظر الببليوجرافية الأرقام من ١٣٧ إلى ١٤٧.

وهذا الاشتراك قد يدلنا على عدم اهتمامه بترجمة أعماله المكتوبة بالإنجليزية؛ والتي يأتي على رأسها كتابه «بداية المسألة المصرية» ، هذا بالإضافة إلى بحثه عن «الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي» والذي نشره سنة ١٩٥٨م وظهرت ترجمته إلى اللغة العربية سنة ١٩٦١م على يد الأستاذ محمود عبد الله يعقوب[١]؛ غير أن أوراق شفيق غربال التي أودعت في الجمعية التاريخية تضم ثلاث كراسات بها ترجمة أخرى لبحثه هذا قام بها الأستاذ أحمد خاكي وزميل له[٢]. وقد يشير وجود مثل هذه الكراسات ضمن أوراق شفيق غربال إلى أنه كان يقوم بمراجعة هذه الترجمة. ومن نافلة القول وجود أربعة (٤) أعمال لشفيق غربال باللغة الإنجليزية والتي لم تترجم إلا في العام الماضي[٣].

والقسم الثاني من الأعمال المترجمة هي الأعمال التي ترجمها شفيق غربال لآخرين ولا تتمثل إلا في حالتين فقط أولاهما مقالة قصيرة لكولنجوود في التعليق على مقالة كنت حول التاريخ العام بالمعنى العالمي. والتي نشرها سنة ١٩٤٨م بالمجلة التاريخية المصرية. أما الكتاب الوحيد الذي قام بترجمته كاملًا فيتمثل في كتاب «المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر» لكارل بيكر[٤].

وهو الأمر الذي يستغربه الباحث كثيرًا وذلك لإتقان شفيق غربال للإنجليزية إتقانًا كاملًا تحدثًا وكتابة؛ وهو ما لا يدل عليه تأخر نشاطه في مجال الترجمة الذي لم يبدأ إلا بعد أربعة وعشرين (٢٤) عامًا من حصوله على درجة الماجستير في لندن سنة ١٩٢٤م.

ويؤكد هذا الإتقان السابق ذكره أحاديث شفيق غربال الإذاعية باللغة الإنجليزية.

---

(١) رقم ١٢ في القائمة الببليوجرافية.

(٢) عبد المنعم الجميعي: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ص ١٥١.

(٣) انظر بيانات هذه المقالات الأربع في القائمة الببليوجرافية، أرقام ٢٠، ٤١، ٤٢، ١١٦.

(٤) انظر رقم ١٢٤ في الببليوجرافية.

وصلة شفيق غربال بالإذاعة صلة قديمة، وقد حظي بمكانة كبيرة فيها حتى أنه تولى سنة ١٩٤٨م مهمة إدارة الإذاعة المصرية أثناء غياب محمد قاسم المدير العام للإذاعة المصرية في روما[1].

وقد كثرت أحاديث شفيق غربال الإذاعية، والتي نُشر بعضها في كتابين :

أحدهما : صدر في حياة شفيق غربال وهو كتاب «تكوين مصر» والذي كان في أصله عشرة (١٠) أحاديث ألقاها غربال بالإنجليزية في الإذاعة الأوروبية.

أما الكتاب الثاني : فقد نُشر سنة ١٩٦٢م، وهو كتاب «من زاوية القاهرة»، ويضم هذا الكتاب خمسة عشر (١٥) حديثًا إذاعيًا.

وبجانب هذه الأحاديث المنشورة في الكتابين السابقين هناك الكثير من الأحاديث التي ألقاها شفيق غربال ولم يضمها كتاب حتى الآن، وقد نجحت في العثور على نصوص أكثر من عشرين (٢٠) حديثًا إذاعيًا غير تلك المنشورة في الكتابين سابقي الذكر[2].

* * *

هذا كله بعض دلالات العطاء العلمي لشفيق غربال، التي تُفصح عنها الببليوجرافية المرفقة بهذه الدراسة. ويمكن تناول هذا العطاء العلمي زمنيًا على عدة مستويات خاصة بتوزيعها على المراحل العمرية، والدرجات العلمية، والوظائف الإدارية وفترات التفرغ العلمي.

أولًا بالنسبة للتوزيع على المراحل العمرية يمكن تصويره على النحو الآتي:

---

(١) مجلة الإذاعة. العدد ٧٠٥، السبت ١٨ سبتمبر ١٩٤٨م، ص٣.

(٢) عن بيانات هذه الأحاديث الإذاعية انظر الببليوجرافية المرفقة، أرقام ١٥، ١٦، ٢٢، ٢٤، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٣، ٤٩، ٥٢، ٥٤، ٥٧، ٦١، ٦٥، ٧٠، ٧٤، ٧٦، ٨٢، ٨٣.

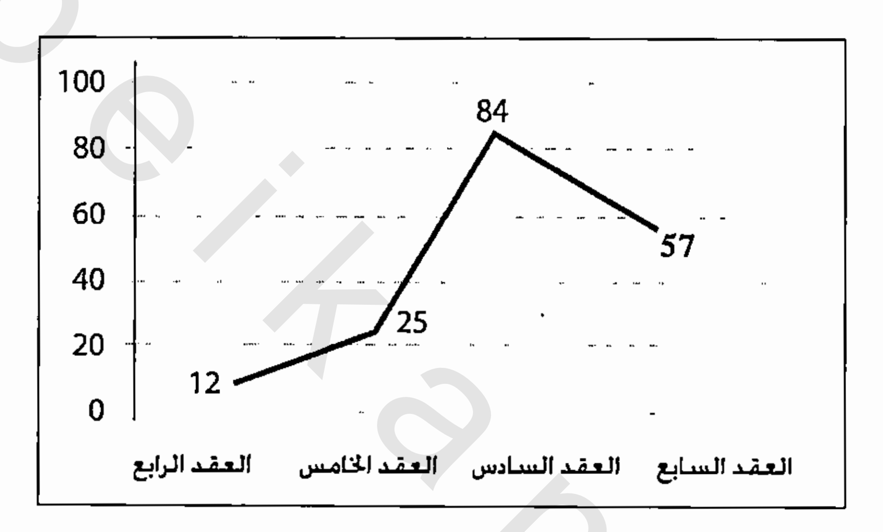
	العقد الرابع ١٩٢٤-١٩٣٤م	العقد الخامس ١٩٣٥-١٩٤٥م	العقد السادس ١٩٤٦- ١٩٥٦م	العقد السابع ١٩٥٧- ...	المجموع
الكتب	٣	١	٢	٢	٨
التحقيق والنشر	١	١	–	–	٢
البحوث والمقالات	٦	٨	٤٦	١٣	٧٣
المقدمات	–	٥	١٥	١٣	٣٣
الحلقات النقاشية	–	–	١	–	١
الحوارات الصحفية	–	–	١	٥	٦
الترجمة	–	–	٢	–	٢
التحرير	–	–	١	١	٢
المراجعة	–	١	٤	١٥	٢٠
الإشراف	٢	٩	١٢	٨	٣١
المجموع	١٢	٢٥	٨٤	٥٧	١٧٨
النسبة المئوية	٦,٧٤٪	١٤,٠٤٪	٤٧,١٩٪	٣٢,٠٢٪	١٠٠٪

جدول (٤)

في بداية قراءة جدول (٤) ينبغي أن نذكر أن شفيق غربال حصل على درجة الماجستير سنة ١٩٢٤م وعمره ثلاثين (٣٠) عامًا، أي أن عمر غربال عندما بدأ رحلة العطاء العلمي في السنة التالية ١٩٢٥م كان واحدًا وثلاثين (٣١) عامًا. ويتضح من تحليل المعطيات الرقمية للجدول السابق وارتباطها بالمراحل العمرية أن أعلى إنتاجية علمية لشفيق غربال كانت في العقد السادس من عمره، وهو العقد الممتد من سنة ١٩٤٦م إلى سنة ١٩٥٦م حيث أنتج خلاله أربعة وثمانين (٨٤) عملًا تمثل ٤٧,١٩٪ من جملة الإنتاج، وهي تتوزع على: كتابين، وستة وأربعين (٤٦) بحثًا ومقالة، وخمس عشرة (١٥) مقدمة، وحلقة نقاشية واحدة، وحوار صحفي، وترجمتين، وعمل تحريري واحد، وأربع (٤) مراجعات، واثنى عشر (١٢) إشرافًا.

ويلي العقد السادس في الإنتاج العقد السابع والذي أنتج خلاله سبعة وخمسين (٥٧) عملًا تمثل ٣٢,٠٢٪ من جملة عطائه العلمي. أي أن العقدين الأخيرين من عمر شفيق غربال شهدا معًا ما يقرب من ٨٠٪ من جوانب إنتاجه العلمي.

وعمومًا إذا حاولنا معرفة منحنى الإنتاج العلمي وفقًا للمراحل العمرية لشفيق غربال سيكون التعبير عنه كما يظهر في شكل (١) :



شكل (١)

ويؤكد هذا الرسم المنحنى التصاعدي لإنتاج شفيق غربال فالعقد الرابع يمثل المرتبة الدنيا في حجم إنتاجه العلمي، أما العقد الخامس فحجم الإنتاج فيه أكثر من ضعف إنتاج العقد الرابع. ويستمر المنحنى في الصعود إلى أن يبلغ أوجه في العقد السادس من عمره، وانخفاض الإنتاج العلمي في العقد السابع لا يؤثر على الملاحظة التصاعدية لإنتاج غربال وذلك لأن المنية قد وافت شفيق غربال بعد أربع سنوات فقط من هذا العقد.

* * *

والمستوى الزمني الثاني الذي يمكن دراسة إنتاج غربال من خلاله هو مستوى الدرجات

الجامعيـة، ومـن المعروف أن هنـاك ارتباط وثيق بـين العطاء العلمي لمن اختـار مهنة التدريس الجامعي وبين الدرجات العلمية، وأن الفهم السـليم للدرجـة العلمية يكون بالنظر إليها كأحد مؤشرات الإمكانات العلمية للباحث المتخصص أكبر من كونها مجرد درجة وظيفية أو أكاديمية أومالية. وفي ضوء ذلك يمكن تصور الإنتاج العلمي لشفيق غربال موزعًا على الدرجات العلمية في الجدول رقم (٥) :

	المرحلة الأولى مدرس ١٩٢٥- ١٩٢٩م	المرحلة الثانية أستاذ مساعد ١٩٢٩- ١٩٣٦م	المرحلة الثالثة أستاذ ١٩٣٦- ...	المجموع
الكتب	٢	١	٥	٨
التحقيق ونشر النصوص	-	٢	-	٢
البحوث والمقالات	١	٥	٦٧	٧٣
المقدمات	-	-	٣٣	٣٣
الحلقات النقاشية	-	-	١	١
الحوارات الصحفية	-	-	٦	٦
الترجمة	-	-	٢	٢
التحرير	-	-	٢	٢
المراجعة	-	-	٢٠	٢٠
الإشراف	-	٥	٢٦	٣١
المجموع	٣	١٣	١٦٢	١٧٨
النسبة المئوية	٪١,٦٨	٪٧,٣٠	٪٩١,٠١	٪١٠٠

جدول (٥)

يعطي الجدول السـابق عدة إشـارات من بينها أن العطاء العلمي لشـفيق غربال يأخذ منحى تصاعديًا من مدرس إلى أستاذ مساعد إلى أستاذ، فإنتاجه وهو أستاذ مساعد أكثر من أربعة (٤) أضعاف إنتاجه وهو مدرس كما أن إنتاجه وهو أسـتاذ يبلغ أكثر من اثنى عشر (١٢) ضعفًا من إنتاجه كأستاذ مساعد، وأكثر وأربعة وخمسين (٥٤) ضعفًا من إنتاجه وهو مدرس؛ وهو ما يشير

إلى أن الانطلاقة الإنتاجية الكبيرة لمؤرخنا بدأت بوصوله إلى درجة الأستاذية؛ حيث شهدت مرحلة أستاذيته إنتاج ٩١٪ من حجم عطائه العلمي.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يشير الجدول إلى تميز كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث من الدرجات الجامعية بنوع أو أكثر من أنواع الإنتاج العلمي؛ فالمرحلة الأولى وهو مدرس تبرز فيها الأعمال المتصلة بالتعليم، أما المرحلة الثانية وهو أستاذ مساعد فتظهر فيها بجلاء أعمال التحقيق ونشر النصوص والتي لم تشهدها حياة شفيق غربال سوى في هذه المرحلة فقط، أما المرحلة الثالثة وهو أستاذ فتتعدد فيها أوجه العطاء العلمي فتوجد بها ستة أوجه للإنتاج العلمي لم توجد في المرحلتين السابقتين وهي: مقدمات الكتب، والحلقات النقاشية، والحوارات الصحفية، والترجمة، والتحرير، والمراجعة.

* * *

والمستوى الزمني الثالث في رحلة العطاء العلمي لإنتاج شفيق غربال يختص بعلاقة هذا الإنتاج بالوظائف الإدارية التي تولاها غربال. وإذا جمعنا سنوات شغل غربال للوظائف الإدارية المختلفة سنجدها تبلغ اثنا وعشرين (٢٢) عامًا تقريبًا تتمثل في: رئيس قسم التاريخ ١٩٣٦-١٩٣٧م، ووكيل كلية الآداب ١٩٣٧-١٩٣٩م، وعميد الآداب ١٩٣٩-١٩٤٠م، ووكيل وزارة المعارف خلال ثلاث فترات ١٩٤٠-١٩٤٢م و١٩٤٥-١٩٥٠م و ١٩٥٢-يناير ١٩٥٤م، ووكيل وزارة الشئون الاجتماعية ١٩٥٠-١٩٥٢م، و مدير معهد الدراسات العربية ١٩٥٥-١٩٦١م. وقد بلغ حجم عطائه العلمي خلال هذه الفترات مائة وثمانية وأربعين (١٤٨) عملًا علميًا من مجموع مائة وثمانية وسبعين (١٧٨) عملًا أي بنسبة تزيد عن ٨٣٪ ، وهذا يدل على أن الوظائف الإدارية العديدة التي تولاها شفيق غربال في حياته لم تمثل معوقًا كبيرًا أمام إسهاماته العلمية العديدة والمستمرة.

* * *

وإذا تركنا التوزيع الزمني لعطاءات شفيق غربال العلمية إلى التوزيع وفقًا للمجالات

التاريخية سنجد كتابات لشفيق غربال في مختلف العصور التاريخية القديمة والوسطى والحديثة، وهو ما يظهر في الجدول (٦) الذي تبين دلالاته أن شفيق غربال كان مؤرخًا موسوعيًا وشاملًا، لا يحصر نفسه في إطار ضيق، بل يمتلك الأدوات التاريخية المناسبة لكي يكتب ويدلي برأيه في أية قضية تاريخية أيًا كان انتماؤها الزمني. وبالرغم من ذلك تشير القائمة الببليوجرافية إلى أن إنتاج شفيق غربال في التاريخ الحديث والمجالات الثقافية العامة يفوق بطبيعة الحال ـ وذلك لتخصصه الدقيق ـ إنتاجه في حقلي التاريخ القديم والتاريخ الإسلامي والوسيط.

	التاريخ القديم	التاريخ الإسلامي والوسيط	التاريخ الحديث والإنتاج الثقافي العام	المجموع
العدد	٥	١٤	١٥٩	١٧٨
النسبة المئوية	٢,٨٠٪	٧,٨٦٪	٨٩,٣٢٪	١٠٠٪

جدول (٦)

* * *

وبخصوص الرسائل العلمية التي أشرف عليها شفيق غربال فهي تبلغ إحدى وثلاثين (٣١) رسالة، اثنا وعشرين (٢٢) منها ماجستير وتسع (٩) للدكتوراه.

ويمكن باستقراء بيانات الرسائل الواردة في القائمة الببليوجرافية المرفقة بهذه الدراسة التوصل إلى مجموعة من الملاحظات يأتي من بينها:

١. يبلغ عدد الباحثين الذين أشرف شفيق غربال على رسائلهم ستة وعشرين (٢٦) باحثًا، أشرف على سبعة عشر (١٧) باحثًا منهم في درجتهم للماجستير فقط، وأربعة (٤) باحثين أشرف عليهم في الدكتوراه فقط، أما الخمسة (٥) الباقين فقد أشرف عليهم في درجتي الماجستير والدكتوراه وهؤلاء الخمسة يعتبرون بذلك أبرز تلاميذ مدرسة شفيق غربال وهم تحديدًا: أحمد أحمد الحتة، وأحمد عزت عبد الكريم، وأمين مصطفى عفيفي، وشوقي عطا الله

الجمل، ومحمد رفعت رمضان.

٢. يمكن ملاحظة أن مجموعة الرسائل التي أشرف عليها شفيق غربال يمكن تقسيمها إلى قسمين: الأول منها يتصل بالتاريخ المصري والآخر يتصل بالتاريخ العربي، وهو الأمر الذي بدأ مع غربال منذ بداية إشرافه على الرسائل حيث أن أول رسالتين أجيزتا بإشرافه كانتا سنة ١٩٣٤م، الأولى هي رسالة أحمد أحمد الحتة عن«الفلاح المصري في عهد محمد علي»، ورسالة حسن عثمان عن «فخر الدين بن معن أمير لبنان». إلا أن هناك غلبة لموضوعات التاريخ المصري والتي يبلغ عدد الرسائل الخاصة به إحدى وعشرين (٢١) رسالة. ويلاحظ في هذا الصدد أن الفترة ١٩٣٤-١٩٥٥م شهدت غلبة موضوعات التاريخ المصري في الرسائل التي أشرف عليها غربال حيث بلغت في هذه الفترة تسع عشرة (١٩) رسالة في مقابل ثلاث (٣) رسائل فقط في التاريخ العربي. أما الفترة ١٩٥٦-١٩٦١م فغلب التاريخ العربي على موضوعات الرسائل بها؛ حيث أجيزت سبع (٧) رسائل في التاريخ العربي مقابل رسالتين فقط في التاريخ المصري، وقد يرجع ذلك إلى سببين أولهما حركة المد القومي العربي بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م، وثانيهما رئاسة شفيق غربال لمعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية خلال هذه الفترة.

٣. يتبين من النظر إلى مجموع الرسائل وجود تسع (٩) رسائل خاصة بموضوعات العصر العثماني، وثلاث وعشرين (٢٣) رسالة تختص بالقرن التاسع عشر، وثلاث (٣) رسائل تتناول بعض جوانب القرن العشرين. ويفهم من ذلك أن الاتجاه الغالب عند شفيق غربال هو الاهتمام بدراسات القرن التاسع عشر أكثر من غيرها، وأنه كان يشجع تلامذته في الدراسات العليا على تناول موضوعات ترجع إلى هذا القرن.

٤. يلاحظ غلبة موضوعات التاريخ السياسي في الرسائل التي أشرف عليها شفيق غربال حيث نرى الموضوعات السياسية في سبع عشرة (١٧) رسالة، أما الأربع عشرة (١٤) رسالة الباقية فتتوزع مناصفة ما بين الموضوعات الاقتصادية من ناحية والثقافية والاجتماعية

من ناحية أخرى.

٥. كان شفيق غربال **يميل إلى الإشراف الفردي** والذي تمثل في إشرافه بمفرده على تسع وعشرين (٢٩) رسالة، ولم يشترك مع آخرين في الإشراف على رسائل إلا مرتين أولاهما مع تلميذه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم في الإشراف على رسالة أحمد عبد الرحيم مصطفى عن «الخديو إسماعيل وعلاقته بالباب العالي» والتي أجيزت سنة ١٩٥١م، والرسالة الثانية اشترك في الإشراف عليها مع قرينه الدكتور محمد فؤاد شكري في الإشراف على رسالة نصيف يوسف صليب عن «تاريخ العلاقات السياسية بين مصر وأثيوبيا»، والتي أجيزت سنة ١٩٦٠م.

٦. إذا قسمنا رسائل الماجستير والدكتوراه على العقود الزمنية سنجد أن شفيق غربال لم يشرف طوال عقد الثلاثينيات إلا على رسائل لدرجة الماجستير فقط وعددها سبع (٧) رسائل، أما العقد التالي وهو عقد الأربعينيات فقد تساوت فيه رسائل الماجستير والدكتوراه التي أشرف عليها حيث وجدت أربع (٤) رسائل في كل منها، أما عقد الخمسينيات فهو أكثر العقود كثافة في إشراف شفيق غربال على الرسائل الجامعية؛ حيث أشرف على ست عشرة (١٦) رسالة أي ما يفوق النصف من مجموع الرسائل التي أشرف عليها في حياته الجامعية.

٧. يتبين من القائمة الببليوجرافية أن معظم الرسائل التي أشرف عليها شفيق غربال كانت في كلية الآداب بالجامعة المصرية [جامعة فؤاد الأول، ثم جامعة القاهرة بعد ذلك]، والتي ظل يشرف على الرسائل بها بدءًا من سنة ١٩٣٤حتى سنة ١٩٥٦م، وشهدت السنوات الأخيرة من حياته قيامه بالإشراف على عدة رسائل بجهات أخرى، وتتمثل في أربع (٤)رسائل في معهد الدراسات العربية، ورسالة واحدة بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

* * *

نختتم الحديث عن العطاء العلمي لشفيق غربال بتناول هذا العطاء من زاوية عدد

الإصدارات أو الطبعات. ويُعد عدد الطبعات من المؤشرات الإحصائية ذات الدلالة على أهمية الأعمال وتميزها بخصائص تبرر إعادة طبعها لمرات عديدة. والملاحظ في هذا الصدد ـ في ضوء الببليوجرافية ـ أن جميع أعمال شفيق غربال العلمية أعيد طباعتها فيما عدا ستة (٦) أعمال فقط لم تطبع إلا مرة واحدة في حياة شفيق غربال، وهي تتمثل في ثلاثة كتب ومقالتين ومقدمة[١].

وإذا استثنينا أعمال المراجعة والإشراف من الحديث عن عدد الطبعات فسيقتصر التناول على مائة وسبعة وعشرين (١٢٧) عملًا علميًا تضم ثلاثمائة وإحدى وثلاثين (٣٣١) وحدة ببليوجرافية، وتتوزع هذه الأعمال من حيث عدد الطبعات تصاعديًا على النحو الآتي:

الأعمال	٦	٨٨	١٠	١٤	٤	١	١	١	١	١
عدد الطبعات	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٩	١٠	١١

جدول (٧)

ويعد كتاب «التاريخ القديم» هو أكثر كتب شفيق غربال طباعة، حيث طبع إحدى عشرة (١١) طبعة، ويرجع تعدد طبعاته إلى أنه كان كتابًا مقررًا في المرحلة الثانوية لعدة سنوات. يليه بعد ذلك كتاب «تكوين مصر» الذي طبع عشر (١٠) مرات منها مرتان في حياة غربال، وثمان (٨) طبعات بعد رحيله بدءًا من سنة ١٩٦٧م الذي ظهرت فيه ترجمة إسبانية للكتاب، غير أن إعادة طباعته باللغة العربية تأخر كثيرًا حيث لم يتم الالتفات إليه وإعادة طبعه إلا في سنة ١٩٩٠م أي بعد صدور الطبعة العربية سنة ١٩٥٧م بثلاثة وثلاثين (٣٣) عامًا. وهو أمر غريب جدًا، ويرجع الفضل في إعادة طبعاته إلى الدكتور عبد العظيم رمضان، الذي تبنى طبعه في سلسلة «تاريخ المصريين». وهنا يجب الإشارة إلى أخطاء كثيرة وقعت فيها هذه الطبعة التي ظهرت سنة ١٩٩٠م وكذلك الطبعة التي صُورت عنها وظهرت في سلسلة «مكتبة الأسرة» سنة ١٩٩٦م وهي تشتمل على أخطاء مطبعية عديدة، وأخطاء أخرى تمثل إسقاطات من نصوص الكتاب الأصلي.

---

(١) انظر الببليوجرافية أرقام: ٢، ٦، ٨، ٢٢، ٧٥ ، ١٠٩ .

ومن أبرز نماذج هذه الأخطاء:

١.تحريف عنوان الكتاب من«تكوين مصر» إلى «تكوين مصر عبر العصور».

٢.صفحة ٤٦ سطر ١١ توجد جملة ساقطة من النص، وهي «فالنظر الأول يغفل أن كل إنسانية لها وجودها الذاتي»[١].

٣.صفحة ٧١ سطور ١٤ـ١٧ يوجد تحريف لغوي متعمد يظهر في جملة «فشكل المعبد ذاته في جملته بأبهائه ومدخله، والعمودين البارزين القائمين كالمسلتين أمام المدخل، وكذلك الأسدين القائمين». وهذا التحريف يرجع إلى عدم فهم السياق فكلمات: «العمودين البارزين القائمين...الأسدين القائمين» ترد في الأصل مرفوعة كالآتي:«العمودان البارزان القائمان...الأسدان القائمان»[٢]وليست مجرورة ـ كما في الطبعة المحرفة ـ لأنها معطوفة على كلمتي «فشكل المعبد» وليست معطوفة على كلمتي «بأبهائه ومدخله». ولم يراع معد هذه الطبعة عضوية شفيق غربال في مجمع اللغة العربية وقام بتغيير ما كتبه دون فهم للنص الذي يغيره.

٤.صفحة ٩٣ سطر ٦–٨ توجد جملة ساقطة، وهي جملة «تدريجيًا، كما جاء نتيجة لاستيطان الوافدين من بلاد العرب. وقد تمشى انتشار اللغة العربية مع انتشار الإسلام»[٣].

٥.جملة ساقطة صفحة ١٠٢ سطر٤، وهي جملة «أو إلى عصر هارون الرشيد. أو إلى تقشف صدر الإسلام»[٤].

ويأتي بعد كتاب «تكوين مصر» في عدد الطبعات كتاب «محمد علي الكبير» والذي طبع خمس (٥) مرات، واحدة منها فقط في حياة شفيق غربال، وهي الطبعة الأولى من

(١) قارن مع: تكوين مصر. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م، ص ٣٤ س ٣ـ٤.

(٢) قارن مع: تكوين مصر، ص ٥٧ س ١٠ـ١٢.

(٣) قارن مع: تكوين مصر، ص٧٧ س ٧ـ٩.

(٤) قارن مع: تكوين مصر، ص٨٥ س ١٤ـ١٥.

الكتاب سنة ١٩٤٤م، أما الطبعات الأربع الأخرى فقد بدأت متأخرة هي أيضًا بدءًا من سنة ١٩٨٦م أي بعد اثنين وأربعين (٤٢) عامًا من صدور طبعته الأولى، وتصدت دار الهلال لإصدار هذه الطبعة وبتقديم أحد أساتذة التاريخ الحديث الكبار وهو الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى. وهذه الطبعة أيضًا تحتوي على أخطاء عديدة سواء كانت طباعية أو تمثل سقطًا من نصوص الكتاب، ومن بين ذلك:

١. ما ورد في صفحة ٢٧ سطر ٢ من إسقاط لكلمة «حياة»[١].

٢. يوجد سقط آخر صفحة ٩٨ سطر ٨ يتمثل في جملة «إلى هذا أن من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر»[٢].

٣. والنموذج الثالث والأخير الذي نقتصر به في الحكم على فساد طبعة دار الهلال من كتاب محمد علي الكبير يتمثل في تكرار أوردته هذه الطبعة صفحة ١١٤ في السطور الأربعة الأخيرة[٣].

ولم تقتصر إعادة طبع أعمال شفيق غربال على الكتب المؤلفة وحدها بل شملت أيضًا الكتب المحررة، وكذلك المترجمة، والنوع الأول يتمثل في«الموسوعة العربية الميسرة» التي طُبعت تسع (٩) طبعات حتى الآن[٤]، أما النوع الثاني فيتمثل في الكتاب الوحيد الذي قام بترجمته شفيق غربال وهو كتاب «المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر» لكارل بيكر والذي طبع خمس (٥) مرات اثنتين (٢) منها في حياة غربال وثلاث (٣) أخرى بعد رحيله[٥].

كما أن إعادة الطبع شملت كذلك ال بحوث والمقالات؛ والتي أعيد نشر أربعة (٤) منها ضمن

(١) قارن مع: محمد علي الكبير. لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، أعلام الإسلام ـ٨. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٤م، ص١٠ س١.

(٢) قارن مع: محمد علي الكبير، ص٩١ س٧.

(٣) قارن مع: محمد علي الكبير، ص١١٠ س١٠ـ١١.

(٤) راجع رقم ١٢٦ في القائمة الببليوجرافية.

(٥) انظر رقم ١٢٤ في الببليوجرافية.

بعض الكتب أو الدوريات خلال الفترة ١٩٦٦-٢٠٠٨م. وهذه الأعمال الأربعة أعيد طباعتها دون مراعاة شروط السلامة الطباعية فيها؛ حيث احتوت على العديد من الأخطاء التي تجعل الاعتماد عليها أمرًا لا يتفق مع المصداقية العلمية التي تحتم الرجوع للنص كما كتبه المؤلف بعيدًا عن أخطاء الناشرين وتحريف المحررين وسهوات الطباعة.

وهذه الطبعات تحديدًا تتمثل في: طبعة الأستاذ عبد التواب عبد الحي للسيرة الذاتية لشفيق غربال ضمن كتابه «عصير حياتي»(١)، ومقالة شفيق غربال عن الدكتور محمد حسين هيكل، التي أعاد نشرها الأستاذ نبيل فرج في كتابه «محمد حسين هيكل في عيون معاصريه»(٢)، وكذلك مقالة شفيق غربال التي عنوانها: «محمد علي والمجتمع المصري»، والتي أعاد الدكتور يونان لبيب رزق طبعها مرتين الأولى في إحدى حلقات سلسلة مقالاته بجريدة الأهرام(٣)، والثانية في كتابه «محمد علي الكبير ملف وثائقي(٤)».

والعمل الأخير الذي أُعيد طباعته لشفيق غربال على نحو غير دقيق هو مقالته الشهيرة «مصر عند مفرق الطرق»، والتي أُعيد نشرها في مجلة مصر الحديثة(٥) أثناء قيام الدكتور جمال زكريا قاسم برئاسة تحريرها.

وقد سبق أن بينت عَوار هذه الطبعات من أخطاء عديدة وإسقاطات وتشويه، وذلك في البحث التقديمي لكتاب «تراث محمد شفيق غربال»(٦) فلا داعي هنا لتكرار ما ذكرته هناك.

* * *

---

(١) القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٦م، ص ص ١٥٤ - ١٥٦.

(٢) دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، سنة ١٩٩٦م، ص ص ٥٩-٧٩.

(٣) ٧ إبريل ٢٠٠٥م.

(٤) القاهرة، مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٥م، ص ص ٥٠-٥٦.

(٥) القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، العدد السابع، ٢٠٠٨م، ص ص ٣٢٥-٣٩٦.

(٦) انظر: حسام عبد الظاهر: أضواء جديدة على كتابات المؤرخ محمد شفيق غربال. [ضمن تراث محمد شفيق غربال، ج١]، ص ص ٤٢-٤٥.

ببليوجرافية العطاء العلمي للمؤرخ محمد شفيق غربال

أولًا ـ الكتب:

١. كتاب التاريخ القديم لتلاميذ السنة الأولى الثانوية. [بالاشتراك مع: ج. إدجار]. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٢٥م. [وقد صدرت منه طبعات كثيرة بعد ذلك عن المطبعة الحديثة بالقاهرة: ط١، إبريل ١٩٢٦م؛ ط٢، أغسطس ١٩٢٦م؛ ط٣، نوفمبر ١٩٢٦م؛ ط٤، يوليو ١٩٢٧م؛ ط٥، ١٩٢٨م؛ ط٦، يونيه ١٩٢٩م؛ ط٧، سبتمبر ١٩٢٩م؛ ط٨، ١٩٣٠؛ كما صدرت الطبعة التاسعة عن مطبعة المعارف سنة ١٩٣١م؛ والطبعة العاشرة عن المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٤م...].

٢. تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية. الجزء الأول ـ بحث في العلاقات المصرية البريطانية من الاحتلال إلى عقد معاهدة التحالف ١٨٨٢ـ١٩٣٦م. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٢م.

٣. The Making of Egypt. القاهرة،إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم، مطبعة دار مصر للطباعة، ط١، ١٩٥٥م؛ ونقله شفيق غربال إلى العربية بمعاونة محمد رفعت تحت عنوان: **تكوين مصر**. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م؛ وقامت كارمن رويث برافو بترجمة الكتاب من الإنجليزية إلى الإسبانية، ونُشرت الترجمة في: مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد ١٤، ١٩٦٧م، P.7-47 ؛ وفي سلسلة (تاريخ المصريين) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م؛ وبـ (مكتبة الأسرة) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م؛ القاهرة، دار أخبار اليوم، ٢٠٠٧م؛ وبتقديم: محمد صابر عرب. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٨م؛ وبـ (مكتبة الأسرة) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨و٢٠٠٩م؛ و القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية،٢٠١١م [ضمن سلسلة (الثورة والحرية)].

٤. الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١. القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٣٢م؛ وبتقديم ودراسة: محمد عفيفي. القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٩م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٢١٢ـ٢٦٨.

٥. محمد علي الكبير. لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، (أعلام الإسلام ـ ٨) . القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٤م؛ وبتقديم: أحمد عبد الرحيم مصطفى. كتاب الهلال (٤٣٠) القاهرة، دار الهلال، ١٩٨٦م. وبتقديم: محمد صابر عرب. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٠م و٢٠١١م؛ و بتقديم: سمير مرقص. سلسلة: بناة المواطنة (١) القاهرة، المصري للمواطنة والحوار،٢٠١١م.

٦. بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي [بالإنجليزية]

The Beginning of the egyption question and the rise of Mohemed Ali .London.1928.

٧. من زاوية القاهرة. القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٢م؛ وبتقديم: أحمد زكريا الشلق. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩م.

منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم. القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٦١م .

ثانيًا ـ التحقيق ونشر التراث:

٩. أمير سوري في إيطاليا في القرن السابع عشر (مشاهدات فخر الدين المعني في إيطاليا حسب ما أورده أحمد الخالدي الصفدي). مجلة كلية الآداب ـ الجامعة المصرية. مج٢، ج١، مايو ١٩٣٤م، ص ص ٧٦ـ١١١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٣٥٤ـ٣٩٧.

١٠. مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨ـ١٨٠١م. مجلة كلية الآداب ـ الجامعة المصرية، المجلد الرابع، الجزء الأول، مايو سنة ١٩٣٦م، ص ص ١ـ٦٩؛ مجلة مصر الحديثة. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، العدد السابع، ٢٠٠٨م، ص ص ٣٢٥ـ٣٩٦؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص١٢٩ـ٢١١.

ثالثًا- البحوث والمقالات:

١١. الآثار السياسية لأبحاث المسيو فيكتور برونت الفنية وإعادة فتح السودان.[ملخص محاضرة ألقاها شفيق غربال في المجمع العلمي المصري]. مجلة المجمع العلمي المصري، المجلد ٣٢، ١٩٥١م، ص ص ٣٨٢-٣٨٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص٤٤٥-٤٤٦.

١٢. الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي.[ضمن كتاب: الإسلام الصراط المستقيم Islam-the straight] إشراف: كنيث.و.مورغان Kenneth. W. Morgan، الصادر بالإنجليزية عن مطابع شركة رونالد بنيويورك Ronald Press Company, New york سنة ١٩٥٨م ترجمة: محمود عبد الله يعقوب، مراجعة: نور الدين الواعظ. القاهرة، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، بغداد- القاهرة- بيروت - نيويورك، ١٩٦١م، ج١ ص ص ٦٢- ١١٨؛ بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٣م؛ و [ترجمة: أحمد خاكي، وزميل له. ٣ كراسات بالجمعية التاريخية، ورد ذكر ذلك في محضر اجتماع الجمعية التاريخية بتاريخ ١٩٦٧/١٢/٤م]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٢٣٣-٢٩٦.

١٣. أحكام المؤرخين على الرجال. مجلة الهلال. السنة ٦٣- الجزء٤، إبريل ١٩٥٥م، ص ص ٤٠-٤٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص٢٢-٢٦.

١٤. أساليب كتابة التاريخ عند العرب. مجلة الأديب. السنة ١٩، ج٦، يونيو ١٩٦٠م، ص ص ٦-١٠ [مختصر]؛ مجلة مجمع اللغة العربية. ج١٤ سنة ١٩٦٢ص ص ٢٥-٣٥؛ مجمع اللغة العربية: محاضر جلسات المجمع في الدورة الرابعة والعشرين. القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٨٢م، ص ص ٣١١-٣٢٠؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٣٦-٥٠.

١٥. أعظم كتب التاريخ في هذا الزمان (دراسة التاريخ A Study of History). مجلة الراديو المصري. العدد ٦٧٨. السبت ١٣ مارس ١٩٤٨م، ص ٩ و١٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص١٠٠-١٠٦.

١٦. الأعلام الثلاثة (شريف - نوبار - رياض). مجلة الراديو المصري. العدد ٥٧٥، السبت ٢٣

مارس ١٩٤٦م، ص ٤؛ مجلة التربية الحديثة. السنة ١٩، العدد٤، إبريل ١٩٤٦م، ص ص ٢٤١ـ٢٤٤؛ مجموعة الإذاعات الثقافية لعام ١٩٤٥ـ١٩٤٦م»، كتاب أصدرته وزارة المعارف العمومية سنة ١٩٤٧م، ص ص ٢١٥ـ٢١٩؛وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤٠٠ـ٤٠٤.

١٧. ألبانيا المستقلة ـ بعد ١٩٠٢م. [ضمن: دائرة المعارف الإسلامية]. القاهرة، لجنة نشر دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٣م ـ، ج٢، ص ص ٢٦ـ٢٨؛ القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٩م؛ بيروت، دار المعرفة، د.ت؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص٤٩٤ـ٤٩٧.

١٨. أهم الأحداث في تاريخ مصر الحديث وأثرها في مركز مصر الحاضر. [ضمن محاضرات الموسم الثقافي الأول للجامعة الشعبية (التي أُلقيت بدار الجمعية الجغرافية الملكية، مارس ـ مايو ١٩٤٦م). القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٤٧م، ص ص ٦ـ٢٢]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٧٣ـ٩٢.

١٩. إيران بين الأمم. مجلة الثقافة. العدد ١١، الثلاثاء ١٤ مارس ١٩٣٩م، ص ص ٢٥ـ٢٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص٥٦٩ـ٥٧٤.

٢٠. البعثتان الدبلوماسيتان لعلي أفندي في باريس وصدقي أفندي في لندن ١٧٩٧-١٨١١م مساهمة في الدراسة الغربية للمؤسسات العثمانية [بالانجليزية].

THE MISSIONS OF ALI EFFENDI IN PARIS AND OF SEDKI EFFENDI IN LONDON 1797-1811 A CONTRIBUTION TO THE STUDY OF THE WESTERNISATION OF OTTOMAN INSTITUTIONS.

مجلة كلية الآداب ـ الجامعة المصرية.مج١، ج١، مايو ١٩٣٣م، pp.114-129 . والترجمة إلى العربية ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٤٠٤ـ٤٢٦.

٢١. بناء الوطن المصري السوداني في القرن التاسع عشر ـ عهد محمد علي وإسماعيل. [ضمن: رئاسة مجلس الوزراء: وحدة وادي النيل أسسها الجغرافية ومظاهرها في التاريخ. القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٤٧م، ص ص ٨٤ـ٨٥]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤٠٩ـ٤١٢.

٢٢. بناء وطن واحد لمصر والسودان في القرن التاسع عشر. مجلة الراديو المصري. العدد ٦٤٧.

السبت ٩ أغسطس ١٩٤٧م، ص ٤ـ٥؛ العدد ٦٤٨. السبت ١٦ أغسطس ١٩٤٧م، ص ٤ـ٥.

٢٣. تاريخ مجمل للحركة العلمية في مصر في العصر الحديث. الكتاب السنوي للمجمع المصري للثقافة العلمية، مج ١٨، محاضرات ١٩٤٨م. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٩م. ص ص ١٠ ـ ١٦؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص١٠٧ـ١١٦.

٢٤. التجمع والتفرق في الشرق العربي. الأهرام.الأربعاء ١٩٤٨/١٢/٨م، ص ٣[عرض مختصر]؛ مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧١٩، السبت ٢٥ ديسمبر ١٩٤٨م، ص ص ٦ـ٧؛؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٤٣٤ـ٤٣٩.

٢٥. تحية إعجاب ووفاء وتقدير [عن إبراهيم باشا]. جريدة الأهرام، الأربعاء ١٩٤٨/١١/١٠م، ص ٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٣٦٨ـ٣٧٠.

٢٦. تعليم التاريخ في المدارس المصرية للمبتدئين. مجلة التربية الحديثة. السنة الثانية، العدد الثاني، ديسمبر ١٩٢٨م، ص ص ٨١ـ ٩٠؛ السنة الثالثة، العدد الثالث، فبراير ١٩٣٠م، ص ص ١٨٤ـ ١٨٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص١٥٥ـ١٧٢.

٢٧. التعليم الجامعي. مجلة الهلال. السنة ٤٩ـ الجزء٦، يونيو١٩٤١م، ص ص ٥٢٥ـ٥٣١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٥٠٦ـ٥١٦.

٢٨. تونس المعاصرة. [ضمن: دائرة المعارف الإسلامية]. القاهرة، لجنة نشر دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٣م ـ، ج٦، ص ص ١٠٤ـ١١٤؛ القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٩م؛ بيروت، دار المعرفة، د.ت؛ وأعيد نشرها في كتاب: تونس الخضراء. القاهرة، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٤٣م، ص ص ٣ـ٢٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٤٤٧ـ٤٦٥.

٢٩. الجامعات والحضارة الحديثة. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٦١، السبت ١٤ أكتوبر ١٩٤٩م، ص ص ٤ـ٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٥٠١ـ٥٠٥.

٣٠. الجامعة الإسلامية واتحاد العرب. مجلة الهلال. السنة ٦٣ـ الجزء١، يناير ١٩٥٥م، ص ص ٤٦ـ٥٠؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٤٢٧ـ٤٣٣.

٣١. الجلاء وتحرير سياسة مصر الخارجية. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ١٠١٩، السبت ٢٥ سبتمبر ١٩٥٤م، ص ١٥و٤١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤٦٧ـ٤٧٢.

٣٢. الجمهورية التركية . [ضمن: دائرة المعارف الإسلامية]. القاهرة، لجنة نشر دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٣م ـ ، ج٥، ص ص ١٩٥ـ٢٠٨؛ القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٩م؛ بيروت، دار المعرفة، د.ت؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص٤٦٨ـ٤٩٣.

٣٣. حديث وكتب عن إيطاليا الحديثة. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٠١، السبت ٢٢ يوليو ١٩٥٠م، ص ص ٤ـ٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٣٢٧ـ٣٣٢.

٣٤. حروب مصر في فلسطين. مجلة الكتاب. السنة الثالثة، مج ٦ـ ج٧، شعبان ١٣٦٧هـ/ يوليو ١٩٤٨م، ص ص ١٨٩ـ١٩٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٥٦١ـ٥٦٨.

٣٥. حضارات البحر الأبيض المتوسط. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٤٥، السبت ٢٦ مايو ١٩٥١م، ص ص ٧ـ٨؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص١٨٧ـ١٩٢.

٣٦. الحضارة العربية بإسبانيا.مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٢٧، السبت ٢٠ يناير ١٩٥١م، ص ص ٦ـ٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص٣٠٣ـ٣٠٨.

٣٧. حياة إبراهيم. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧١٣، السبت ١٣ نوفمبر ١٩٤٨م، ص ص ٨ـ٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٣٣٧ـ٣٤٣.

٣٨. الحياة جديرة بأن نحياها. ضمن كتاب: علمتني الحياة. أشرف على إصداره الدكتور أحمد أمين. القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال (٣١) ، أكتوبر ١٩٥٣م، ص ص ٥٢ـ٥٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٥٧ـ٥٩.

٣٩. خبير سويسري في خدمة التعليم المصري في عهد إسماعيل (ف. إدوار دور بك V.Edouard Dor Bey) مجلة التربية الحديثة . (كلية المعلمين بالجامعة الأمريكية بالقاهرة). السنة العاشرة، العدد الرابع، إبريل ١٩٣٧م، ص ص ٣٧٧ـ٣٨٢؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ص ص٣٨٦ـ٣٩٣.

٤٠. الدكتور أحمد بدوي. [نص الكلمة التي ألقاها محمد شفيق غربال في الجلسة العاشرة لمؤتمر مجمع اللغة العربية، في ٢٥/١/١٩٦٠م]، نُشرت بمجلة مجمع اللغة العربية. ج١٤، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٦٢م، ص ص ٢٧١ـ ٢٧٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٥٠٣ـ٥٠٨.

٤١. الدكتور بورنج ومحمد علي [بالإنجليزية] .

Dr.Bowring And Muhammad Ali. Bulletin de L' Institut d' Egypte. T.24, Session 1941-1942, Le Caire: Imprimerie de L'Institut Francais d'Archeologie Orientale,1942, PP.107-112.

والترجمة إلى العربية ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٣٢٧ـ٣٣٦.

٤٢. الدكتور علي مصطفى مشرفة . [بالإنجليزية] .

Dr. Ali Mustafa Musharrafa Pasha. Bulletin de L' Institut d' Egypte. T.33, Session 1950-1951, Le Caire: Imprimerie de L'Institut Francais d'Archeologie Orientale,1952, PP.431-432.

والترجمة إلى العربية ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤٧٣-٤٧٥ .

٤٣. ذكرى إبراهيم الخالد. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨١٩، السبت ٢٥ نوفمبر ١٩٥٠م، ص ص ٦ـ٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٣٦٢ـ٣٦٧.

٤٤. رسالة المؤرخ. مجلة الهلال. السنة ٦٥ـ الجزء٤، إبريل ١٩٥٧م، ص ص ١٢ـ١٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص١٧ـ٢١.

٤٥. سندباد مصري أو جولات في رحاب التاريخ. المجلة التاريخية المصرية. مج ١١، ١٩٦٣م، ص ص ٢٩٩ـ٣٠١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٩٢ـ٩٥.

٤٦. السياسة البريطانية والوطن المصري السوداني. [ضمن: رئاسة مجلس الوزراء: وحدة وادي النيل أسسها الجغرافية ومظاهرها في التاريخ. القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٤٧م، ص ص ٨٦ـ٩٣]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤١٣ـ٤٢٦.

٤٧. [سيرتي الذاتية]. في مقالة: «مع المؤرخ شفيق غربال» للأستاذ عبد التواب عبد الحي. مجلة

الإذاعة. العدد ١١٩٢، السبت ١٨ يناير ١٩٥٨م، ص ص ١٣-١٤و٢٧؛ و أعاد الأستاذ عبد التواب نشر ها في كتابه: «عصير حياتي»، والذي نشرته الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٦م، ص ص ١٥٤ - ١٥٦؛ ونُشرت أيضًا ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٥٣-٥٦.

٤٨. الشام. [ضمن: دائرة المعارف الإسلامية]. القاهرة، لجنة نشر دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٣م-، ج١٣، ص ص ١٠٥-١٠٩؛ القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٩م؛ بيروت، دار المعرفة، د.ت؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص٣١١-٣١٧ [تحت عنوان: ردًا على المستشرق لامنس].

٤٩. الشخصيات البارزة في تاريخ مصر الحديث . مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٠١، السبت ٢١ أغسطس ١٩٤٨م، ص ص ٦-٧و١١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٩٦-١٠٠.

٥٠. الصحراء في الحياة القومية. الكتاب السنوي للمجمع المصري للثقافة العلمية، مج ٢٠، مجموعة بحوث مؤتمر الصحاري والثروة القومية (٢٢ - ٢٧ إبريل ١٩٥٠م) . القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠م. ص ص ٩ - ١٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٦٣-٦٨.

٥١. صحيفة من تاريخ الأزهر. مجلة الأزهر. المجلد ٢٣- الجزء ٩، رمضان ١٣٧١هـ- مايو ١٩٥٢م، ص ص ٥٩- ٦٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ص ص١١٧-١٢٥.

٥٢. العرب في التاريخ. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٥٣، السبت ٢١ يوليو ١٩٥١م، ص ص ٦-٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٢٩٨-٣٠٢.

٥٣. عرض وتحليل لكتاب عن حياة الجنرال ونجت حاكم عموم السودان وسردار الجيش المصري. المجلة التاريخية المصرية، المجلد السادس، ١٩٥٧م، ص ص ١٦٧- ١٧٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤٢٧-٤٣٦.

٥٤. العصر الذي نعيش فيه. مجلة الراديو المصري. العدد ٣٥٩، السبت ٣١ يناير ١٩٤٢م، ص ص ٣-٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٥٤٥-٥٥١.

٥٥. فلننقـذ الغرب من شر نفســه. مجلة الهلال. الســنة ٦٤ـ ج١، ينايـر١٩٥٦م، ص ص ٩٦ـ ٩٨؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٣٤١ـ٣٤٥.

٥٦. في أعقـاب الثورة المصرية لعبد الرحمن الرافعي. مجلة الكتاب. الســنة السـابعة، مج١١ـ ج٧، شـوال ١٣٧١هـ/يوليـو١٩٥٢م، ص ص ٨٥٧ـ٨٦١؛ وضمـن: تـراث محمد شـفيق غربال ج١ص ص٤٥٤ـ٤٦٠.

٥٧. في متحـف الحضـارة المصرية. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٣١، السـبت ١٨ مارس ١٩٤٩م، ص ص ٦ـ٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٥٥٤ـ٥٦٠.

٥٨. قراءتان في كتابات المؤرخين في مناهجهم وأهدافهم. المجلة التاريخية المصرية. مج ٦، ١٩٥٧م، ص ص ١٥٩ـ١٦٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٩٤ـ٩٩.

٥٩. كتابـة الأعـلام الأجنبية بحروف عربيـة. المجلة التاريخية المصرية. مـج ٧، ١٩٥٨م، ص ص ٢٩٩ـ٣١٢؛ مجمـع اللغـة العربيـة. الدورة ٢٥، ج٨ للمؤتمـر، مجموعـة البحـوث والمحاضرات، القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٦٠م، ص ص ١٥٣ـ١٦٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص٥١ـ٦٦.

٦٠. كتب أوروبية موضوعها تاريخ الهضبة الحبشية والسهول المتصلة بها والبحر الذي تطل عليه الهضبـة والســهول. المجلة التاريخية المصرية. مـج ٢ ـ ج ١، مايـو ١٩٤٩م، ص ص ٢٣٣ـ٢٣٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص٥٧٨ـ٥٨٤.

٦١. كتـب جديـدة. مجلة الإذاعـة المصرية. العدد ٨٠٨، السـبت ٩ سـبتمبر ١٩٥٠م، ص ص ٦ـ٧؛ وضمن: تراث محمد شـفيق غربال ج٢ص ص٣٩٨ـ٤٠٣ [تحت عنوان: المجتمع الإسـلامي في القرن الثامن عشر]

٦٢. كلمة [كلمته التي ألقاها في احتفال العيد الخمسـيني للجمعية المصرية للاقتصاد السـياسي والإحصـاء والتشريـع]. مجلـة مصر المعاصرة. السـنة ٥١، العـدد ٢٩٩، ينايـر ١٩٦٠م، ص ص ٢٢ـ٢٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص٥٨٥ـ٥٨٦.

٦٣. كيف دخلت بعض المصطلحات السياسية في اللغة العربية. مجمع اللغة العربية. الدورة ٢٦، ج٩ للمؤتمر، مجموعة البحوث والمحاضرات، ١٩٥٩ـ١٩٦٠م، ص ص ١٩٥ـ٢٠٢؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٦٨ـ٧٨.

٦٤. [محمد حسين هيكل]. مجلة الأديب. العدد الرابع، ص ١٢، ٧٥؛ السنة ١٦، العدد الخامس، ص ٧٨. [مختصر] ؛ [الكلمة التي ألقاها محمد شفيق غربال في حفل استقباله عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، في الجلسة الخامسة لمجلس المجمع في ١٩٥٧/١١/٤م، «الدورة الرابعة والعشرون»]. وقد نُشرت في: الدكتور محمد حسين هيكل، لأحمد لطفي السيد. القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٥٨م، ص ص ١٧١ـ١٩٧؛ وبمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج ١٤ سنة ١٩٦٢م ص ص ٢٠٧ـ٢٢٦، كما نشرها المجمع في كتاب محاضر جلسات المجمع في الدورة الرابعة والعشرين، الصادر في القاهرة سنة ١٩٨٢م، ص ص ٥٦ـ٧١]؛ وضمن: محمد حسين هيكل في عيون معاصريه، لنبيل فرج. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ١٩٩٦م، ص ص ٥٩ـ٧٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤٧٦ـ٥٠٢ تحت عنوان: محمد حسين هيكل... رجل القلم.

٦٥. محمد علي الكبير توليته وإصلاحه. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٦٧، السبت ٢٥ نوفمبر ١٩٤٩م، ص ص ٨ـ ٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٢٧١ـ٢٧٦.

٦٦. محمد علي الكبير في ذكراه المئوية. [ضمن كتاب: الذكرى المئوية لوفاة المغفور له محمد علي الكبير ١٨٤٩ـ١٩٤٩م. القاهرة، دار المعارف، ١٩٤٩م، ص ص ٦ـ١٤]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٢٧٧ـ٢٨٦.

٦٧. محمد علي والمجتمع المصري. جريدة الأهرام. ١٩نوفمبر ١٩٤٩م، ص ٧. وأعيد نشرها في: يونان لبيب رزق:جريدة الأهرام. ٧ إبريل ٢٠٠٥م؛ يونان لبيب رزق: محمد علي الكبير (ملف وثائقي) . القاهرة، مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٥م، ص ص ٥٠ـ٥٦]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٢٨٧ـ٢٩٥.

٦٨. مركز مصر السياسي. مجلة الكتاب. السنة السادسة، مج ١٠ـ ج١، ربيع الأول ١٣٧٠هـ/يناير

١٩٥١م، ص ص ١٧ـ٢٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤٤٣ـ٤٥٠.

٦٩. مصادر الإلهام عند بعض المؤرخين. مجلة الهلال. السنة ٦٢ـ الجزء ١١، نوفمبر ١٩٥٤م، ص ص ٤٣ـ٤٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٢٧ـ٣٥.

٧٠. مصر بلد الأحرار... ولهذا رحبت بدستور اليونسكو. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧١٥، السبت ٢٧ نوفمبر ١٩٤٨م، ص ٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٥٣٣ـ٥٣٥.

٧١. معرض الكتاب العربي الأول لسنة ١٩٤٦م. مجلة الرسالة. باب (البريد الأدبي)، السنة الرابعة عشرة، العدد ٦٦٨، ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٦م، ص ص ٤٥٣ـ٤٥٤. [بالاشتراك مع محمد عبد الواحد خلاف]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٥٧٦ـ٥٧٧.

٧٢. مكان الثورة في تاريخ مصر الحديث. مجلة الهلال. السنة ٦٢ـ الجزء ٧، يوليو ١٩٥٣م، ص ص ٣٢ـ٣٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤٦١ـ٤٦٦.

٣٧. [من تاريخ الصحافة المصرية] عرض لمناقشة شفيق غربال لإبراهيم عبده في رسالته للحصول على درجة الماجستير. جريدة الأهرام، الخميس ١٩٤٠/٦/٦م، ص ٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص٣٢٦.

٧٤. من روائع القراءات... كتاب «الدستوران» [الإنجليزي والأمريكي]. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٩٠، السبت ٦ مايو ١٩٥٠م، ص ص١٤ـ١٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص٣٣٣ـ٣٣٨.

٧٥. مواجهة الأزمات الفكرية. [ملخص محاضرة ألقاها شفيق غربال في جمعية الشبان المسلمين]. مجلة الرسالة. السنة ١٦، العدد ٧٧٠، ١٩٤٨/٤/٥م، ص ٤٠٠.

٦٧. المؤرخ الفرنسي فرانسوا شارل رد ماذا قال في كتبه عن مصر؟ مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٠٥، السبت ١٨ سبتمبر ١٩٤٨م، ص ص ٦ـ٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص١٠٧ـ١١٢.

٧٧. مؤلفان في أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية (مؤلف للسيدة دورين وارينر عن الأرض

والفقـر في الشرق الأوسـط ومؤلـف للدكتور الجريتلي عن قوام الصناعـة الحديثة في مصر). المجلـة التاريخيـة المصرية، مـج٢ ـ ج١، مايـو ١٩٤٩م، ص ص ٢٢٧ـ٢٣١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص١٠١ـ١٠٦.

٧٨. نظام الحكومة في عهد إسـماعيل. [ضمن كتاب: إسـماعيل بمناسبة مرور خمسين عامًا على وفاتـه]. القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٥م، ص ص ٢٥٥ـ٢٥٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٣٩٤ـ٣٩٩.

٧٩. نظـرات تاريخيـة في الريف المصري. [ملخص محاضرة ألقاها شـفيق غربال في المعهد العالي للتربية الفنية]. السجل الثقافي لسنة ١٩٥٣م، المطبعة الأميرية، ١٩٥٥م، ص ٣٠٣؛ وأعيد نشر هذا الملخص ضمن: تراث محمد شـفيق غربال ج١ ص ٦٩.

٨٠. هـل انتهى عصر الاسـتعمار؟ مجلة الهلال. السـنة ٦٤ـ ج١١، نوفمـبر ١٩٥٦م، ص١٦؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٣٣٩ـ٣٤٠.

٨١. وجوب العودة للتأليف التاريخي على أساس الخطط. [ضمن التاريخ والآثار ـ الحلقة الدراسية الأولى ٤ـ٩ من فبراير سـنة ١٩٦١م]. القاهرة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦٢م. ص ص ١٤٩ـ١٥٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٨١ـ٨٤.

٨٢. اليونسـكو. مجلة الراديو المصري. العدد ٦٦١، السـبت ١٥ نوفمـبر ١٩٤٧م، ص ٥و١٠؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٥٢٧ـ٥٣٢.

٨٣. اليونسكو في سنة ١٩٤٩م. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٥١، السبت ٥ أغسطس، ١٩٤٩م، ص ص ٤ـ٥؛ وضمن: تراث محمد شـفيق غربال ج ٢ص ص٥٣٦ـ٥٤١.

رابعًا ـ المقدمات:

٨٤. أحمـد أحمـد الحتة: تاريـخ الزراعة المصريـة في عهد محمد عـلي الكبير. القاهـرة، دار المعارف، ١٩٥٠م. ص ص (ط ـ ن) ؛ وضمـن: تراث محمد شـفيق غربـال ج١ص ص٣٠٠ـ٣٠٦؛ وبتصدير: محمد صابر عرب، وصبري أحمد العدل. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م [سلسلة

تاريخ المصريين (٢٩١)].

٨٥. أحمد بدوي: في موكب الشمس. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦م، ج١، ص ص (ج ـ د) ؛ ١٩٥٥م، وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص١٧٩ـ١٨٠.

٨٦. يحيي الخشاب ، والسيد الباز العريني: ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة في كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي. المجلة التاريخية المصرية. المجلد السابع، ١٩٥٨م، ص١٦١، و٢١٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص٦٧.

٨٧. أحمد طربين: الوحدة العربية بين (١٩١٦ـ١٩٤٥م) بحث في تاريخ العرب الحديث منذ قيام الثورة العربية حتى نشوء جامعة الدول العربية. القاهرة، معهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية، ١٩٥٩م، ص ص أـ ج؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٤٤٠ـ٤٤٢.

٨٨. أحمد عبد الفتاح بدير: الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية. القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٠م. ص ص (م ـ ن) ؛ القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٨م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤٥١ـ٤٥٣.

٨٩. أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في عصر محمد علي. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٨م، ص ص (ط ـ ت) . وطبعت في السنة نفسها منفصلة عن الكتاب تحت عنوان: محمد علي والتعليم؛ وبتقديم: أحمد زكريا الشلق.القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١م [مصورة عن الطبعة الأولى]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٣٠٧ـ٣٢٢.

٩٠. أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم من نهاية حكم محمد علي إلى أوائل حكم توفيق ١٨٤٨ـ١٨٨٢م. الجزء الأول ـ عصر عباس الأول وسعيد ١٨٤٨ـ١٨٦٣م. القاهرة، وزارة المعارف العمومية، مطبعة النصر، ١٩٤٥م، ص ص (ي ـ س) ؛ وبتقديم: أحمد زكريا الشلق. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١م [مصورة عن الطبعة الأولى]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٣٨٠ـ٣٨٥.

٩١. أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط. ترجمة: أحمد عيسى.

القاهـرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م، ص ص ١١ـ٤٥؛ وضمن: تراث محمد شـفيق غربال ج٢ص ص١٩٣ـ٢٢٩.

٩٢. إيمري نف: المؤرخون وروح الشعر، دراسة لإسهام الأدب والعلوم الأدبية في تدوين التاريخ منـذ عهد فولتير. ترجمة: توفيق إسـكندر. القاهرة، مكتبـة الأنجلو المصرية، ١٩٦١م، ص ص (ط ـ ل) ؛ ط٢، بـيروت، دار الحداثـة، ١٩٨٤م؛ وضمـن: تـراث محمـد شـفيق غربـال ج٢ص ص١٤٦ـ١٤٩.

٩٣. الجـبرتي: عجائـب الآثار في التراجـم والأخبـار. تحقيق وشرح: حسـن محمد جوهر، وعبد الفتاح السرنجاوي، والسـيد إبراهيم سـالم. القاهرة، لجنة البيان العربي، ١٩٥٨م، ج١، ص ص ١ـ٢؛ وضمـن كتـاب: « عبـد الرحمن الجبرتي دراسـات وبحوث». بإشراف: أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م، ص ص ٩ـ١١ [مختصر]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٧٩ـ٨٠.

٩٤. الجمعية الملكية للدراسات التاريخية: ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨ـ١٩٤٨ [المقدمة تحت عنوان: إبراهيم باشـا وبنـاء النهضة المصرية]. القاهرة، ، مطبعـة دار الكتب المصرية، ١٩٤٨م.ص ص (ط ـ خ) ؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ص ٣٤٤ـ٣٦١.

٩٥. حسـين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث. القاهرة، مطبعة حجازي، ط٢، ١٩٣٨م؛ المكتبـة التجاريـة الكـبرى، ١٩٦٧م، ص ص (ج ـ ز) ؛ وضمـن: تـراث محمد شـفيق غربال ج٢ص ص٣٤٩ـ٣٥٣.

٩٦. رئاسـة مجلس الوزراء: وحدة وادي النيل أسسـها الجغرافية ومظاهرها في التاريخ. القاهرة، المطبعـة الأميريـة، ١٩٤٧م، ص ص (هـ ـ ز)؛ وضمـن: تـراث محمـد شـفيق غربـال ج١ص ص٤٠٥ـ٤٠٨.

٩٧. الشـاطر بصيـلي عبد الجليل: معالم تاريخ سـودان وادي النيل من القـرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي. القاهرة، ط١، ١٩٥٥م، ص (ز ـ ح)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال

ج٢ص ص٤٤٣_٤٤٤.

٩٨. شفيق شحاتة: تاريخ حركة التجديد في النظم القانونية في مصر منذ عهد محمد علي. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م، ص ٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص٥٧٥.

٩٩. شوقي عطا الله الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣_١٨٧٩م). القاهرة، مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٩م، ص ص (ش ـ ث) ؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٣٧٥_٣٧٩.

١٠٠. عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في عهد محمد علي الكبير. القاهرة، مطبعة حجازي، ١٩٣٩م، ص ص (و_ ح) ؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ص ص٢٩٦_٢٩٩.

١٠١. عبد الرحمن زكي: السلاح في الإسلام. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٣٠٩_٣١٠.

١٠٢. علي إبراهيم عبده: المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠_١٩٠٦. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م، ص ص (أ ـ د)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٤٣٧_٤٤٠.

١٠٣. أبو الفتوح رضوان: تاريخ مطبعة بولاق ولمحة من تاريخ الطباعة في بلدان الشرق الأوسط. القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٣م، ص ص (ج ـ هـ) ؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٣٢٣_٣٢٥.

١٠٤. فردريش شلر : ما المراد بتاريخ العالم. ترجمة: حسين مؤنس. المجلة التاريخية المصرية. مج ٢ ـ ج ٢، أكتوبر ١٩٤٩م، ص ص ١٧١_١٨٧. [تقديم شفيق غربال ص ص ١٧١_١٧٢]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٩٢_٩٣.

١٠٥. كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول: رحلة كلية الآداب إلى ساحل البحر الأحمر وبعض مناطق الآثار بالصعيددراسات جغرافية تاريخية لبعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب. القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٣٩م، ص ١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص٥٨٧ تحت عنوان: إهداء.

١٠٦. لتن ستريتشي: الملكة فكتوريا. تعريب: وديع الضبع. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١م، ص ص (ز ـ ط)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٣٢٤ـ٣٢٦.

١٠٧. محمد خلف الله أحمد: معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها ـ ١ مصر في القرن التاسع عشر. القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص٥٧٥.

١٠٨. محمد خير فارس: المسألة المغربية ١٩٠٠ـ١٩١٢م. القاهرة، معهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية، ١٩٦١م، ص ص (هـ ـ و)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٤٦٦ـ٤٦٧.

١٠٩. محمود محمد السروجي : العلاقات بين مصر وأثيوبيا في القرن التاسع عشر . الإسكندرية ، مطبعة المصري، ١٩٦١م، ص ص ٣-٥ .

١١٠. نخبة من العلماء: تاريخ الحضارة المصرية العصر الفرعوني. المجلد الأول، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢م، ص ص ١ـ٢؛ وأعيد طبعها بالقاهرة سنة ١٩٦٦و١٩٧٦م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص١٧٥ـ١٧٨.

١١١. نسيم مقار: البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل. القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، سنة ١٩٦٠م، ص ص (ج ـ د) ؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص ص٣٧١ـ٣٧٢.

١١٢. هـ أ. ل. فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث. تعريب: أحمد نجيب هاشم، ووديع الضبع. القاهرة، دار المعارف، ١٩٤٨م؛ ١٩٥٣م؛ ١٩٥٨؛ ١٩٦٤م؛ ١٩٧٢م؛ ١٩٨٥م؛ ١٩٩٥م، ص ص (ج ـ هـ) ؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٣٢١ـ٣٢٣.

١١٣. هـ أ. ل. فشر: تاريخ أوروبا في العصور القديمة. نقله إلى العربية ووضع حواشيه: إبراهيم نصحي، و محمد عواد حسين. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٠م، ص ص ٥ـ٦؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص١٨١ـ١٨٣.

١١٤. هـ أ. ل. فشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى. نقله إلى العربية: محمد مصطفى زيادة،

والسيد الباز العريني.القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٠م؛ ١٩٥٤م؛ ١٩٥٧م؛ ١٩٦٦م؛ ١٩٧٤م. ص ص (جـ د) ؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٢٣٠_٢٣٢.

١١٥. وزارة المعارف العمومية: متحف الحضارة المصرية. القاهرة، ١٩٤٩م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥٥١_٥٥٣ تحت عنوان: مرحلة التنفيذ في مشروع متحف الحضارة المصرية.

١١٦. Grohmann: Royal Society-From the world of Arabic papyri.Cairo,Al-Maaref .Press,1952,p.3

وترجمة المقدمة إلى العربية ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص٨٥ تحت عنوان: جروهمان والبرديات العربية.

خامسًا_ الحلقات النقاشية:

١١٧. هل أخفق التعليم الجامعي؟. [بالاشتراك مع: أسماء فهمي، ومحمد رفعت، وأحمد عبد السلام الكرداني]. مجلة الهلال. السنة ٥٥_ ج١٠، أكتوبر١٩٤٧م، ص ص ٧٨_٨٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٥١٧_٥٢٤.

سادسًا ـ الحوارات الصحفية:

١١٨. [أتمنى أن أعيش في هذا العصر]. تحقيق صحفي للأستاذ صلاح المراكبي قام بتوجيه سؤال: « لو لم توجد في هذا العصر في أي عصر كنت تتمنى أن تعيش» ـ بالإضافة إلى شفيق غربال ـ إلى كل من: سهير القلماوي، ومصطفى محمود، ونجيب محفوظ. مجلة الإذاعة. العدد ١٢٩٧، السبت ٢٣ يناير ١٩٦٠م، ص ص ١٠_١١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ص٦٠.

١١٩. الإذاعة للجميع. مجلة الإثنين والدنيا. العدد ١٠٣٧، ٢٦ إبريل ١٩٥٤م، ص ٢٠؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص٥٨٨.

١٢٠. حوار في الكتابة التاريخية ، حوار أجراه: عبد التواب عبد الحي مع المؤرخ شفيق غربال. مجلة الإذاعة. العدد ١١٩٢، السبت ١٨ يناير ١٩٥٨م، ص ص ١٣_١٤و٢٧. وقد أعاد الأستاذ عبد

التواب نشر الحوار في كتابه: «عصير حياتي»، والذي نشرته الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٦م، ويقع الحوار بالكتاب في الصفحات ١٥٤ ـ ١٥٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص١٥٠ـ١٥٤.

١٢١. دفاع عن المدرسين. [ضمن التحقيق الصحفي: «هل هي ظاهرة، الإذاعة تناقش جرائم الطلبة»]. مجلة الإذاعة. العدد ١١٦٤، السبت ٦ يوليو ١٩٥٧م، ص ص ١١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص٥٨٩.

١٢٢. سؤالان قبل النشر. [ضمن التحقيق الصحفي: فضيحة ملك.. كبار المؤرخين، والأدباء يبدون رأيهم]. مجلة الإذاعة. العدد ١٢٥٢، السبت ١٤ مارس ١٩٥٩م، ص ص ١٦ـ١٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص٥٩٠.

١٢٣. هل عندنا قراء جادون؟ [إجابة عن سؤال صحفي]. مجلة الإذاعة. العدد ١٢٩٢، السبت ١٩ ديسمبر ١٩٥٩م، ص١٤ـ١٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص٥٩١.

سابعًا ـ الترجمات:

١٢٤. بيكر، كارل لوتس: المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر. ترجمة: محمد شفيق غربال. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٥٥م ؛ ط٢، ١٩٥٨م؛ ط٣، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م؛ ٢٠٠٩م؛ وأعيد نشر مقدمة الترجمة لهذا الكتاب ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ص ص١١٣ـ١٤٥تحت عنوان: المؤرخ كارل بيكر وكتابه «المدينة الفاضلة».

١٢٥. كولنجوود: تعليق على مقالة كنت حول التاريخ العام بالمعنى العالمي.[تلخيص وترجمة]. المجلة التاريخية المصرية. مج ١، ع ١ـ٢، مايو وأكتوبر ١٩٤٨م، ص ص ١٧٤ـ١٧٨؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ص ص٨٦ـ٩١.

ثامنًا ـ التحرير:

١٢٦. الموسوعة العربية الميسرة. ٢ مجلد. القاهرة، مؤسسة فرانكلين، ودار القلم، ١٩٦٥م؛

القاهرة، دار الشعب، ١٩٨٧م ؛ [وطبعات أخرى بلبنان منها: دار التراث العربي،١٩٨٧م؛ دار النهضة،١٩٨٠م؛ دار نهضة لبنان،١٩٨٨م؛ دار العلم للملايين، ١٩٩٠م؛ دار الجيل، ١٩٩٥و٢٠٠١م؛ والمكتبة العصرية، ٢٠١٠م].

١٢٧. PROCEEDINGS. Editory: Mohamed Shafic Ghorbal and Abdel Rahman Zaky. 2 vols. Cairo, Almaaref press, 1952- 1953

تاسعًا ـ المراجعات:

١٢٨. إبراهيم نمير سيف الدين، وزكي علي، وأحمد نجيب هاشم: مصر في العصور القديمة. القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٣٩م؛ ١٩٤٠م؛ ١٩٤٣م؛ ١٩٤٨م؛ ١٩٥٢م؛ ١٩٥٤؛ ١٩٦٠م؛ القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩١م؛ ١٩٩٨م.

١٢٩. أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ. ترجمة: فؤاد محمد شبل. مراجعة: محمد شفيق غربال، وأحمد عزت عبد الكريم. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٦٠ـ١٩٦٥م؛ ط٢، ١٩٦٧م ؛ وتقديم : عبادة كحيلة . القاهرة ، المركز القومي للترجمة ، ٢٠١١م .

١٣٠. الإصطخري: المسالك والممالك. تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني. مراجعة: محمد شفيق غربال. القاهرة، دار القلم، ١٩٦١م؛ تقديم: عبد العال عبد المنعم الشامي. القاهرة، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤م.

١٣١. إيتين دريوتون، وجاك فانديه: مصر. ترجمة: عباس بيومي. مراجعة: محمد شفيق غربال، وعبد الحميد الدواخلي. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠م.

١٣٢. جون لويس بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان. ترجمة: فؤاد أندراوس. تقديم: محمد محمود الصياد. حقق أعلامه: الشاطر بصيلي. إشراف: محمد شفيق غربال. القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥٩و١٩٧٠و١٩٨٨م؛ القاهرة، المشروع القومي للترجمة (١٠٤٤) ، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧م.

١٣٣. علي الجرتلي: تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر. القاهرة،

دار المعـارف، ١٩٥٢م.

١٣٤. الفارقي، أحمد بن يوسـف بن عـلي بن الأزرق: تاريخ الفارقي. تحقيـق: بدوي عبد اللطيف عوض. مراجعة: محمد شـفيق غربال. القاهرة، وزارة الثقافة ـ الإدارة العامة للثقافة، ١٩٥٩.

١٣٥. محمد بديع شريف، وزكي المحاسني، وأحمد عزت عبد الكريم: دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة. مراجعة: محمد شـفيق غربال. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.

١٣٦. محمـود الخفيف: فصـل في تاريخ الثورة العرابية لتلاميذ السـنة الرابعـة الثانوية. القاهرة، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية، ١٩٥٣م.

١٣٧. وليم شكسـبير: تاجر البندقية. ترجمة: مختار الوكيل، مراجعة: محمد شـفيق غربال، ومحمد بـدران. القاهـرة، دار المعـارف، ١٩٦٣م.

١٣٨. وليم شكسـبير: ترويض الشرسـة. ترجمة: سـهير القلماوي. مراجعة: محمد شـفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٠م؛ ط٢، ١٩٦٨م؛ ط٣، ١٩٩٤م؛ ط٤، ٢٠٠٥م.

١٣٩. وليم شكسبير: حلم ليلة صيف. ترجمة: حسن محمود، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٠م؛ ط٢، ١٩٦٨م؛ ط٣، ١٩٩٤م؛ ط٤، ٢٠٠٥م.

١٤٠. وليم شكسـبير: خاب سـعي العشـاق. ترجمة: لويس عوض، مراجعة: محمد شـفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٥٦م؛ ط٢، ١٩٦٠م؛ ط٣، ١٩٩٣م.

١٤١. وليـم شكسـبير: دقة بدقـة. ترجمة وتقديـم: إبراهيم زكي خورشـيد. مراجعة: محمد شـفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٨م؛ ط٢، ١٩٨٣م؛ ط٣، ١٩٩٣م.

١٤٢. وليم شكسـبير: ضجة فارغة. ترجمة: عباس حافظ. مراجعة: محمد بدران، ومحمد شـفيق غربال. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٨م؛ ط٢، ١٩٩٣م.

١٤٣. وليـم شكسـبير: العـبرة بالخواتيم. ترجمـة وتقديم: عبـاس حافظ ، مراجعة: محمد شـفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٨م؛ ط٢، ١٩٨٣م؛ ط٣، ١٩٩٣م.

١٤٤. وليم شكسبير: الملك جون. ترجمة: محمد عوض محمد، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٠م؛ ط٢، ١٩٦٨م؛ ط٣، ١٩٩٣م.

١٤٥. وليم شكسبير: الملك هنري الرابع. ترجمة: مصطفى طه حبيب، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. ٢ج في مج. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٦م؛ ط٢، ١٩٩٣م.

١٤٦. وليم شكسبير: الملك هنري الخامس. ترجمة: محمد عوض محمد، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٨م؛ ط٢، ١٩٩٣م.

١٤٧. وليم شكسبير: الملك هنري السادس. ج٣. ترجمة: محمد بدران، مراجعة: محمد شفيق غربال. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٥٩م؛ ط٢، ١٩٦٩م؛ ط٣، ١٩٩٣م.

عاشرًا ـ الإشراف على الرسائل العلمية:

١٤٨. إبراهيم عبده: تاريخ الصحافة المصرية ١٧٩٨ـ١٨٨٢م. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٠م.

١٤٩. أحمد أحمد الحتة: تطور الزراعة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. رسالة دكتوراه. كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٦م.

١٥٠. أحمد أحمد الحتة: الفلاح المصري في عهد محمد علي. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٤م.

١٥١. أحمد سعد الدين طربين: الوحدة العربية بين فكرة إنشاء الدولة العربية الموحدة ونظام جامعة الدول العربية. بحث في آثار الاتجاهات السياسية العربية والدولية فيما بين (١٩١٩ـ١٩٤٥م). رسالة ماجستير. معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية، ١٩٥٧م.

١٥٢. أحمد عبد الرحيم مصطفى: الخديوي إسماعيل وعلاقاته بالباب العالي. رسالة ماجستير. [إشراف مشترك مع أحمد عزت عبد الكريم]. كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٥١م

١٥٣. أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في عصر محمد علي. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٦م.

١٥٤. أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم منذ أواخر عصر محمد علي إلى أوائل حكم توفيق. رسالة دكتوراه. كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤١م.

١٥٥. أمين مصطفى عفيفي: استقرار الملكية الفردية للأراضي الزراعية في مصر. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٦م.

١٥٦. أمين مصطفى عفيفي: تجارة مصر في عهد محمد علي. رسالة دكتوراه. كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٦م.

١٥٧. توفيق علي برو: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ـ١٩١٤م. رسالة ماجستير. معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية، ١٩٦٠م.

١٥٨. حسن عثمان: فخر الدين بن معن الثاني أمير لبنان. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٤م.

١٥٩. الحسيني منيسي علي كف: رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ـ١٨٧٣م) . رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٥٣م.

١٦٠. السيد جمال مصطفى سالم: اليمن في عهد الإمام يحيى حميد الدين (١٩٠٤ـ١٩٤٨م) . رسالة ماجستير. معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية، ١٩٦١م.

١٦١. شوقي عطا الله الجمل: سياسة مصر في البحر الأحمر في السنوات (١٨٦٣ـ١٨٧٩م). رسالة دكتوراه. كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٥٨م.

١٦٢. شوقي عطا الله الجمل: هرر تحت الحكم المصري. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٥٤م.

١٦٣. عبد الحميد محمد البطريق: الحكم المصري في بلاد العرب. رسالة ماجستير. كلية الآداب

ـ جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٣م.

١٦٤. عبد العزيز أمين عبد المجيد: التربية في السودان من القرن السادس عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها. رسالة دكتوراه. كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٦م.

١٦٥. عبد العزيز محمد إبراهيم الشناوي: السخرة في حفر قناة السويس. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٨م.

١٦٦. عبد العزيز يوسف رفاعي: تطور النظام النيابي في مصر الحديثة قبيل الثورة العرابية. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٥٤م.

١٦٧. علي إبراهيم عبده: المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠ـ١٩٠٦م. رسالة دكتوراه. كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية، ١٩٥٧م.

١٦٨. عياد حنين دوس: الفتح المصري للسودان في عهد محمد علي. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٩م.

١٦٩. فائق حليم جبرة: ضرائب الأطيان المصرية في عصر محمد علي. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٥٤م.

١٧٠. أبو الفتوح أحمد رضوان: تاريخ مطبعة بولاق. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٦م.

١٧١. محمد خير فارس خيرو: المسألة المغربية (١٩٠٠ـ١٩١٢م). رسالة ماجستير. معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية، ١٩٦٠م.

١٧٢. محمد رفعت رمضان: ثورة علي بك الكبير (١٧٦٨ـ١٧٧٢م). رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٥م.

١٧٣. محمد رفعت رمضان: مصر والدولة العثمانية دراسة تاريخية للعلاقات السياسية بين

الطرفين من ١٨٤٠إلى١٨٦٣م. رسالة دكتوراه. كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٥٥م.

١٧٤. محمد عبد اللطيف الدسوقي البحراوي: الشرق الأدنى تحت حكم العثمانيين ـ فتح العثمانيين عدن. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٥٤م.

١٧٥. محمد كامل الرحماني: وقائع الثورة المهدية أو التاريخ الحربي للحركة المهدية. رسالة دكتوراه. كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٥٨م.

١٧٦. محمد محمد توفيق: مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٣م.

١٧٧. نسيم إستاورو مقار قرياقوس: أحوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصري الأول ١٨٢٠ـ١٨٢١م. رسالة ماجستير. كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٥٦م.

١٧٨. نصيف يوسف صليب: تاريخ العلاقات السياسية بين مصر وأثيوبيا وأثرها على السودان الشرقي في الفترة ما بين ١٨٦٣ـ١٨٧٩م. رسالة دكتوراه. [إشراف مشترك مع محمد فؤاد شكري] كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٦٠م.

⊙⊙⊙

مُحَمَّد شَفِيق غُرْبال

أُسْتَاذُ جِيلٍ وصَاحِبُ مدرسة(١)

أ.د. أحمد عزت عبد الكريم

(١٩٠٩-١٩٨٠م)

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر-جامعة عين شمس

ورئيس مجلس إدارة الجمعية التاريخية الأسبق

رحمه الله

(١) محاضرة ألقيت في الجمعية التاريخية في الموسم الثقافي ١٩٧١-١٩٧٢م.

كانـت مهنـة التعليم العمل الذي راق لشـفيق غربال، جعل منه رسـالة حياتـه منذ التحق بمدرسـة المعلمين العليا في سـنة ١٩٢٢. لم يصرفـه بعد تخرجه فيها عن مهنـة التعليم عمل آخر أو منصـب مـن تلك المناصب الكبيرة التي وليها بعد انتقاله من الجامعة مستشـارًا للمعارف أو وكيلًا لوزارة الشئون الاجتماعية، فقد ظل على صلة بتلاميذه يعلمهم ويزكيهم ويأخذ بأيديهم في طريـق العلم والمعرفة. سـأله يومًا أحد (المتحذلقـين) من الأجانب عن آخر مؤلفاته، وكان في مجلس العلم من تلاميذه، فأشار إليهم قائلًا: « هؤلاء هم كُتبي » : وما أكثر ما عَمِل شفيق غربال في تكوين شـخصية المشتغلين بالدراسـات الإنسانية في جيلنا المعاصر، وعن طريق هذا الجيل سـينفذ أثر شـفيق غربال إلى الأجيال القادمة.

أجل. لم تكن مؤلَّفات شـفيق غربال ومُصَنَّفاته هي وحدها ما أنتج ولكن كان منها - بل لعل أهمها - تلاميذه الذين تشرَّبوا ما اسـتطاعوا روحه وحاولوا جهدهم أن يرتفعوا إلى مسـتوى فكـرة ليلحقوا به ويفهموا عنه، وينشروا بين الدارسـين ثمرات فكره ونبضات عقله، فكان بحق أسـتاذ جيل وصاحب مدرسـة فكرية، لها في دنيا البحث التاريخي قَسَـمَاتها ومميزاتها.

وكـم من مُريدٍ حاول (الالتحاق) بهذه المدرسـة فلم تؤهله لذلـك قدراته العقلية أو صفاته الخلقية فالتوىٰ به القصد وَوَقَف دون إكمال الطريق.

وكان لشـفيق غربـال صاحب المدرسـة الفكرية من مواهب: حُـبٌّ عجيب للاطلاع يكاد ينتظم أكثر فروع المعرفة الإنسانية، بعضه تخصص له حتى أصبح فيه علمًا، وبعضها أَلَمَّ به إلمام العارف الخبير. وهذا الشـمول في المعرفة الإنسانية مَكَّن غربال من القُدْرَة على توجيه تلاميذه وإفادتهـم مـا يكادون يعرضون عليه أمرًا من الأُمور استشـكل عليهم حتى يجدوا عنده الرأي الناضـج والتوجيـه السـديد، يجري في ذلك كلـه في لطف وأناة، كما يجري الجـدول الصافي دون ضجة أو صخب أو افتعال أو تعال.

وقد يغيب عنه الرأي أو يفوته التفصيل فيقوم إلى مراجعه ومظانه ويعكف مع تلاميذه على البحوث والمراجعة حتى ينتهي إلى ما يطلبون.

ولم يكن غربال يَضِن على أحد بما يعلمه ، لم يصد عن بابه طالب علم، وإنما كان يمنحهم من ذات عقله ما يُنير لهم السبيل . ودان الجميع له بهذه الزعامة الفكرية، التي أهَّلت شفيق غربال ليكون صاحب مدرسة في التاريخ ودفعت تلاميذه إلى السَّعي للحاق به والسّمو إلى قُرب قمته وسبيلهم إلى ذلك الحرص على الإجادة في كل ما يأخذون به أنفسهم من علم أو عمل، فيكفي أن يعرفوا أن (عين) شفيق غربال عليهم حتى يتوخوا الدّقة ويتسابقوا إلى الإجادة. وهكذا كان وجود شفيق غربال في حَدِّ ذاته عاصمًا لتلاميذه من التهافت أو لغو البحث .

وكل ما نرجوه أن يظل تلاميذه وتلاميذ تلاميذه مَنْ بَعْده حَرِيصين على المستوى الذي اعتاده رائدهم ومُربيهم. وهكذا يؤدِّي أستاذ الجيل وصاحب المدرسة رسالته في حياته وبعد مماته.

وكان شفيق غربال بهذا شديد التأثير على تلاميذه، قد تكفي منه عبارة أو إشارة إلى أحد تلاميذه حين كان يراجع معه بعض أعماله لتفتح هذه العبارة أو الإشارة أمام التلميذ آفاقًا واسعة للبحث أو تُلهمه أفكارًا جديدة لم يتَّجه إليها تفكيره من قبل.

وهذا التأثير العلمي امتد إلى التأثير الخلقي والمزاج أيضًا. فقد كان كل من تلاميذه يحرص على أن يكون في نفسه (بعض) من شفيق غربال أو قبس منه . لم يكن هذا التأثير أو هذا التأثر قصدًا من الأستاذ، فقد لا تجد أشد من شفيق غربال نفورًا من سياسة (صب القوالب) والتعصب والتقليد. كان شفيق غربال يؤمن إيمانًا صادقًا بحرية الفكر وبالفروق بين الأفراد وبما في اختلاف الأمزجة والطباع وتعدد مناهل الفكر والثقافة من ثروة للإنسانية عامة.

لهذا لم يكن غربال صورة لأحد من أساتذته؛ وقد قيل الشيء الكثير عن تأثره بأستاذه المؤرخ الإنجليزي الكبير « أرنولد توينبي » الذي أَشْرَف على دراسته العليا بإنجلترا في صدر شبابه وظل متصلًا به حتى وفاته. ولكن شفيق غربال- على احترامه العميق وحبه الشديد لأستاذه لم يذهب في تفسير التاريخ أو كتابته مذهبه، وإن تأثر باتجاهه الحضاري والإنساني ومنهاجه في البحث، وهكذا أراد غربال لتلاميذه ألا يكونوا صورًا منه.

كان غربال يستمع إليهم ويحترم آراءهم، رضي عنها أو لم يرض ، يعرف في كل منهم قدراته

فيوجهه نحو تنمية ملكاته وتذكية خصائصه، وقد يعرف عيوبه فلا يبخل في النصح ولكنه لا يطلب الكمال. بل لقد بلغ من شدة احترامه للرأي أنه كان ينتهي من كتابة المقال أو الحديث فلا يدفعه إلى النشر إلا بعد أن يقرأه على بعض طُلابه ويستمع إلى رأيهم وكثيرًا ما أخذ به.

كان شفيق غربال يفعل ذلك على شدة اعتداده بنفسه وثقته في قُدراته العقلية، اعتدادًا وثقة ربما ظنهما بعض الناس كبراً، وما هو من الكبر في شيء، ولكنه الإباء ورِفعه النفس والأَنَفَة والترفُّع عن الصَّغار، امتزج هذا كله في شفيق غربال بالصِّدق والوفاء والنُّبل والسماحة والمروءة ورِقّة الحِسّ ولطف الذوق ونفوذ البصيرة، امتزجت جميعها على نحو لا نكاد نجده إلا في القليل من الناس.

وليس من شك أن لون الدراسة الذي اختاره شفيق غربال لنفسه كان أحد العوامل الرئيسية المؤثرة في شخصيته. لقد اختار غربال الدراسات الإنسانية، والتاريخ منها بصفة خاصة، لتكون محور حياته العقلية .

آمن شفيق غربال بالإنسان إيمانًا شديدًا . آمن بقدراته ونقائصه ، آمن بقيمة الإنسان وقدرته على التغيير في مصير عصره وأمته، وآمن بضرورة الحرية للإنسان في نفسه وفي علاقته بغيره حرية لا يحد منها إلا حرية الآخرين. ومن هنا كان احتفال شفيق غربال بالدراسات الإنسانية واتجاهه إليها منذ صدر شبابه .

فاتَّجه أول ما اتَّجه إلى قراءة السِّير ، ولقد ذكر لي يومًا أنه قرأ – وهو لا يزال بعد في المدرسة الثانوية أو التجهيزية كما كانت تدعى في تلك الأيام- كتاب « وفيات الأعيان لابن خلكان » وغيره من كتب السِّير والتاريخ، وهي كتب لا تزال (نُحَرِّض) طلابنا في الجامعة على النظر فيها فلا نكاد نبلغ من ذلك شيئًا .

ثم أتمَّ دراسته الثانوية وأراد له أهله أن يتَّجه إلى دراسة الحقوق كما فعل أخوه الأكبر أو إلى الهندسة أو الطب ، ولكن شغفه بالدراسات الإنسانية دفعه إلى مدرسة المعلمين العليا أو المعلمين الخديوية كما كانت تُدْعَى في تلك الأيام ، وكان أساس اختياره أن هذه المدرسة- كما

قـال في بعـض ما كتب : « كانت مع التزامها بإعـداد المعلمين في أضيق الحدود، المعهد الوحيد في مـصر إذ ذاك الذي يصلني بالدراسـات الإنسـانية، وتم لي أن مكنتني المدرسـة مـن متابعة تلك الدراسـات على نطـاق أوسـع في المعاهـد الخارجية وتهيأ لي ذلـك الإطار الذي أعمـل فيه مواطنًا مصريًا وإنسانًا جادًا في أن يجعل حياته جديرة أن يحياها »[١] .

المواطـن والإنسـان : هذا ما أراد شـفيق غربال أن يكونهمـا، وقد كوَّنَهُمَا بحـق، ولكنه لم يكنهـا عاطفـة وعشـقًا فحسـب ، وإنما سـعى إلى دعم هـذه العاطفـة وهذا العشـق وتنميتها بالدراسـة العلميـة الجادة ، وليس أعظم من (التاريخ) درسًـا وتأليفًا وقُـدرة على تنمية العاطفة الوطنيةوالإنسـانية.

دَرَسَ غربـال التاريـخ وغيره من فروع الدراسـات الإنسـانية في مدرسـة المعلمـين ثم أكمل دراسته العليا بحصوله على درجة الماجستير في التاريخ من جامعة لندن، ثم عاد شفيق غربال إلى وطنه لتدريس التاريخ في مدرسة رأس التين الثانوية ، ثم مدرسة المعلمين العليا.

ثم كانت النقلة الكبرى، في حياته العلمية حين عُيِّن أستاذًا مساعدًا للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) في أكتوبر ١٩٢٩ ثم أصبح بعد بضع سنوات أوَّل أستاذ مصري للتاريخ الحديث بالجامعة .

وقـد فتحـت أمامه هـذه النقلة أبـواب البحث العلـمي على مصراعيها، وخاصة بعد إنشـاء الدراسـات العليا للماجسـتير والدكتوراه بالجامعة. وكانت شهرته العلمية والخلقية قد سبقته إلى الجامعـة وطلابهـا قبـل أن ينقل إليهـا ، وكنا جميعًا نحسـد طلاب المعلمين العليا على أسـتاذهم الشـاب النابـه فلما انتقـل إلى الجامعة أقبلنا عليه وأقبـل علينا ، وبدأت تتكون هذه المدرسـة التاريخيـة التي ظلت موجاتها وإشـعاعاتها تعمل إما عن طريقه مبـاشرة أو عن طريق تلاميذه ، فكان بحق أحد أساتذة الجامعة القلائل الذين كونوا لهم مدارس فكرية تقوم على التعلق العلمي

(١) من مقال للأستاذ شفيق غربال بعنوان : « الحياة جديرة بأن نحياها » في كتاب « علمتني الحياة » الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٨ من منشورات مؤسسة فرانكلين بالاشتراك مع دار الهلال .

والخلقي للتلاميذ بأستاذهم ومُربيهم ورائدهم تعلُّقًا قد يصل إلى حد (الهيام الصوفي) .

ويكفي أن نذكر أن شفيق غربال لم يَكُف عن التدريس والاجتماع بطلابه في الجامعة أو معهد الدراسات العربية منذ تعيينه في الجامعة في ١٩٢٩ قبيل وفاته في أكتوبر ١٩٦١ لم يصرفه عن ذلك أي عمل إداري تولّاه في الجامعة أو خارج الجامعة.

ولن أتتبع في هذه الكلمة ما كتبه شفيق غربال أو ألَّفه، فإني تارك هذه المهمة لإخواني المشتركين في هذه الندوة ولكني أحب أن أشير هنا إلى أن مؤلفات شفيق غربال ليست كل ما كتب.

وإني لأنتهز هذه الفرصة لأدعو تلاميذ شفيق غربال إلى أن ينهضوا ليجمعوا المقالات المتفرِّقة التي نشرها في كثير من المجلات والمحاضرات التي ألقاها في معاهد العلم وفي الإذاعة وفي الهيئات العلمية التي أسهم في عضويتها : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، والمجمع العلمي، ومجمع اللغة العربية ، ومعهد الدراسات العربية ، إلى جانب المقدِّمات التي وَضَعَها لكُتب تلاميذه مؤلَّفةً أو مُتَرجمةً ، ويوم أن تجمع هذه المتفرقات سيعرف الناس أي رجل كان شفيق غربال الباحث المؤرخ أستاذ الجيل وصاحب المدرسة التاريخية الحديثة في مصر والعالم العربي.

ولقد كان تلاميذ غربال وأصدقاؤه يُشْفِقُون عليه من الجهد المضني الذي كان يبذله في هذه الهيئات العلمية جميعاً، تدريسًا وبحثًا وقراءة وكتابة ومراجعة، كان تلاميذ غربال وأصدقاؤه لا يرونه، وخاصة بعد أن حرمه القدر شريكة حياته يوم انتهت خدمته الحكومية عام ١٩٥٤ إلا منكبًا على الدرس والقراءة في حديقة منزله الجميلة أو في مكتبته العامرة أو في دار من تلك الدور العلمية التى كان يتردد عليها، يفعل ذلك في ثقة وصفاء ونفس وسماحة وإقبال على الحياة وإيمان بها عبر عنها بقوله : « إنني منذ وعيت ، ومنذ أخذت أنظر في نفسي وفي ما حولي، ومنذ حاولت الوقوف على أسرار الأصول والمصادر وجاهدت لأُقَيِّم أفعالي على أساس من المعقولية وأُوجهها إلى غايات مفهومة أيقنت أن الحياة تستحق أن أحياها وأن نَظْرتي هذه إليها خليقة بأن تكون سلوكي في فترة العمر وأن تُنَظَّم على أساسها العلاقة بيني وبين الناس » .

حقاً.. لقد عاش شفيق غربال حياته «على أساس من المعقولية» مستهدفًا غايات مفهومة، هذه هي الحياة التي عاشها شفيق غربال بقلبه وعقله مُقْبلًا عليها مُقَدِّرًا مُتْعتها، صابرًا على شِـدَّتها، لم يعش غربال حياته لنفسه وحدها ولا لأسرته وحدها، ولكنه عاشها لأسرة كبيرة قـد يكـون منها من لم يَره غربـال أو من لم يَر غربال في حياته ولكنـه تتلمذ عليه دُون أن يَراه، فتأثرَّ به وتعلَّق به، هي أسرة الدراسات الإنسانية عامة، والتاريخ خاصة، في مصر والعالم العربي الكبير.

٦/١٢/١٩٧١م



شَفِيق غُرْبال مُؤَرِّخًا[1]

أ.د أحمد عبد الرحيم مصطفى
(١٩٢٥- ٢٠٠٢م)
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة عين شمس
(رحمه الله)

(١) محاضرة أُلقيت في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في ١٩٦٢/١٢/٣.

يمثل محمد شـفيق غربال طرازًا قائمًا بذاته في قائمة من تصدوا للكتابة التاريخية في مصر، وربما العالم العربي بأسره، وهو ينتمي إلى جيل بذاته، له سماته الخاصة ونَظْرَته الخاصة إلى العلم والمعرفـة ؛ وهو الجيل العملاق الذي أسـهم في إعادة تشـكيل الحياة الفكريـة في مصر حين نقل إليهـا طرائـق البحث العلمي التي عرفها العالم الغربي المتطور، وتمثلها وهضمها ثم عاد ينتهجها في تناول التراث العربي الإسلامي . وبعد :

فغربـال تلميـذ « أرنـولد توينـبي » الذي بـدأ مؤرِّخـا بالمعني الحـرفي للكلمة لينتـهي مؤرِّخًا للحضـارة ومفلسـفًا لها . وأهميتـه في حركة التفكير التاريخي في مصر أنـه يمثل نقله لها وزنها، وأنه ترك انطباعات حية في تفكير ونهج من تتلمذوا عليه ... وهي انطباعات اختلفت قوة وضعفًا باختلاف المدارك والآفاق ..

فغربـال في حد ذاته يمثل ثـورة في المنهج التاريخي في المشرق العربي؛ فهو يتميز- وفقًا لما قاله عنه الدكتور منصور فهمي- بذهن ذكي غني بشتى المعلومات، وقدرة على التركيز والتلخيص وعلى التركيب والتحليل.... إلى جنوح للتعميق المتوغل إلى واقعية سـاطعة ودقة في النقد . وليس ذلك بغريـب على مـن يـرى أن المؤرخ المبدع لا بـد أن « **يجمع إلى الدراية التامــة بأصول النقد براعة الفنان المتمكن من الحذف والإثبات، وأن يكون ناقدًا فنانًا يقهر المادة الغفل ليستخرج منها التاريخ الحي** »[1] .

وهو بعيد كل البعد عن المنهج الكلاسيكي الذي درج عليه كتاب السيرة والتواريخ والمغازي والخطط والآثار والتراجم في العالم الإسـلامي: سـند دراسـاته بتفهمه لطبيعة علمه ومدارسه في الـشرق والغـرب، وطعمه بشيء من التذوق الأدبي- الفني، مع توسـيع لقاعـدة المعرفة التاريخية بـالأدب والفلسـفة وعلوم النفس والاجتماع. وهنا يصـدق عليه ما دعا إليـه بعض المفكرين الأوروبين في القرن التاسـع عـشر من المهتمين بتاريخ الحضـارة Kulturgeschichte من حيث جعل التاريخ محورًا للدراسات الإنسانية قاطبة.

---

(١) في تقديمه للجزء الأول من ترجمة هربرت فشر عن « تاريخ أوروبا » . .

ولقـد عاش غربـال ومات مؤرِّخًا. حقيقـة لقد تعرض لما تعرض له أمثاله مـن مناصب قيادية تسعى إليه ولا يسعى إليها. ولكنه كان يأخذ ذلك بشيء من الرفق، ولم ينس أو يتناس جذوة المؤرخ الكامنة فيه. كما لم يشـغله شيء عن قراءاته الشاسـعة في كل مجال، وهي القراءات التي مكنته من القـدرة على الإفادة وأضفت عليـه وضعه البارز ليس فقط في حقل الدراسـات التاريخية وحدها، بل في حقل المعرفة بمعناها الواسـع ، وحتى في حقل تخصصه ، أو احترافه - عن شـئنا الدقة- أي التاريخ، نجد غربال لا ينتمي لعصر أو تخصص معين، وإن لمع في مجالات التاريخ الحديث.

والآن نحاول أن نضع غربال في موضعه الحق في تاريخ الدراسات التاريخية في مصر. وهذا يستلزم منا مدخلًا إلى طبيعة التاريخ والمؤرخ وإلى طبيعة الفترة التاريخية التي عاش فيها غربال وأنتج.

كتـب وليم ميتلاند (William Maitland) الذي كان أسـتاذًا للقوانين الإنجليزية : « **إن وحدة التاريخ في مجموعه تدفع كل من يتصدي لكتابة ناحية من نواحيه إلى الشعور بأن جملته الأولي إنما تقطع خيوطًا غير منتظمة** » .

وضرب لذلك مثلًا بأن جذور القانون الإنجليزي تكمن في بلاد الإغريق وأن أُصُول القانون الروماني تكمن في بابل.

ثـم حين قرَّر وجـوب تقطيع خيوط العنبكوت أضاف قائلاً: « **وحين نقطع [هذه الخيوط] ، علينا أن نلحظ مصدر ومصير عدد من الخيوط المنفصلة المعقدة المتداخلة ، وهي الخيوط التي كانت توفر أنموذجًا كبيرًا جدًا بالنسبة إلى عين أي إنسان** » .

وليس أصدق من ذلك ولا أكثر حيوية في تجسـيم طبيعة إحدى المشـكلات الرئيسـية التي تواجه المؤرخ . فهو - شأنه شأن عالم الطبيعة - تواجهه كمية ضخمة من الحقائق يطلق عليها في التاريخ اسم الوقائع . وسواء أكانت هذه الوقائع تتكشف من ثنايا عدد لا حَصْر له من الوثائق، أو ما إذا كانت بعيدة عن متناول التحقيق العلمي وسط ضباب العصور البدائية أو في ثنايا غيوم التآمـر الحديـث في المجالين السياسـي والاقتصادي ، فإننا - على كل حال - نجد نشـاط المؤرخ وقد حدت منه غزارة مادته .

يضاف إلى ذلك أن المؤرخ يختلف عن عالم الطبيعة الذي بإمكانه أن يستعيد تجربته، فمن المستحيل استعادة الحادثة التاريخية. فنحن - مثلاً- لا نستطيع أن نستدعي الملك أحمس ليذكر لنا بنفسه كيف طرد الهكسوس. ولا نستطيع استعادة معركة ووترلو لكي نتبين أسباب انتصار ولنجتون وانهزام نابليون. ونتائج اكتشاف كولمبس لأمريكا بالنسبة إلى الحياة في أوروبا لا بد أنها كانت بعيدة عن مجال التحليل حتى في الوقت الذي كانت فيه أنباء هذا الاكتشاف أمرًا جديداً.

ويمكن القول إن المؤرِّخ الحديث الذي يجمع ما يستطيع جمعه من أنباء الماضي قد يعرف عن هذه الأنباء أكثر مما كان يعرفه معاصروها.

فمهمَّة المؤرخ إذن ليست بالمهمة الهَيِّنة. والذي يُفَرِّق مؤرخًا عن آخر أن أحدهما تتشعب به الدروب جريًا وراء السَّرد والتفاصيل التي تسيطر على المادة وبين آخر يجمع ما يمكنه جمعه من المادة، ثم يعيد صياغتها وفقًا لخطة مرنة تربط أطراف الموضوع بعضها ببعض، فيخرج في نهاية الأمر بوحدة عضوية مترابطة متفاعلة لا يبددها شيء من التكرار أو التفكك. والعبرة هنا بالكيف لا بالكم. وفرق بين المؤرخ الحقيقي وبين راوي الأحداث أو جامع المادة وناشرها.

ونحن إنما نشكل جزءًا من الحضارة العربية التي نَسْتَلهم تُرَاثها؛ كما أننا- من ناحية أخرى - ننتمي إلى المجتمع العالمي المتطور. والتأريخ عند العرب - مع بعض الاستثناءات الطفيفة - إنما هو عملية من السَّرد تمعن في التفاصيل ولا تدقق أو تحقق، بل تعتمد على الرواية والنقل والخيال في كثير من الأحيان.

والتاريخ حتى وقت قريب - وحتى الوقت الحاضر- إنما هو من ملحقات الأدب القائم على الخيال. ولقد أسرف الكثيرون في هذه الناحية، بل امتد كثيرمن الأدباء إلى التاريخ وطبَّقوا عليه مناهجهم- إن كانت لهم مناهج- واختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يميزون: أين ينتهي الأدب وأين يبدأ التاريخ ؟! وامتد فريق آخر من المهتمين بالسياسة إلى الدراسات التاريخية التي جعلوها في كثير من الأحيان مطية لدوافع محددة. لستَ في هذا المقام من المتزمتين الداعين إلى

الموضوعيـة المطلقـة[1]؛ إذ أنهـا خرافة طالما أن من يكتب في الدراسـات النظريـة كائن حي ـ لا بد ـ له ميـوله واتجاهاتـه وانفعالاتـه. إلا أن المؤرخ المسـتقل يضع كل ذلك في إطـار الحد الأدنى إلا أن تدفعه الوقائع العارية إلى انفعال مُعَيَّن رضى أم لم يرض. وحتى الآن لم يتحقق للتاريخ والدراسـات التاريخية الاستقلال الذاتي عن دنيا أولية سديمية تكتنفها أهواء ومصالح لا بد لها من عاصم.

ومـن الطبيعي أن تحاول الحركات القومية أن تُسْـنِد اندفاعاتها بأن تسـتخرج من اللاشـعور القـومي فـترات عَـفَى عليها الزمن كانـت فيها الأمـة المعينة تتبوأ مكانة سـامقة سـواء في الحيِّز السـياسي أو الفكـري أو الحضاري بوجـه عام. والتاريخ هو ذاكرة الشـعوب الحيـة، وهي قنطرة العبـور مـن جيل إلى جيـل جيئة وذهابـًا. ولكـن ثمة خيط رفيـع على دارسي التاريخ يتبينوه: ففرق كبير بين الأمجاد الحقيقية التي لا يخلو منها تاريخ أي شـعب حي، وبين الأمجاد المختلقة. فرق بين إزاحة الغبار عن الفترات الزاهية في تاريخ الأمة وبين التزييف والتجديف.

وحين بدأت نهضتنا الفكرية لم يكن ثمة تَخَصُّص بالمعنى الضيق، بل كان هناك رواد يتميزون بسعة الأفق والثقافة؛ وعلى رأس هؤلاء رجال من طراز أحمد لطفي السيد وطه حسين وشفيق غربال. وقد كوَّن هؤلاء ما يمكن أن نسـميه «بالأرسـتقراطية الفكرية»، فشـعورهم بذواتهم وبجدة نوع ثقافتهـم ومناهجهم وبخطـر دورهم القيادي في المجتمع المصري، وقلّـة أعدادهم- كل هذا مما خَلَعَ عليهم أهمية خاصة وسـلَّط عليهم الأضواء في مجالات الفكر والتوجيه. على أن نشـاطهم قد اقتصر على دائرة ضيقة: في قاعات التدريس- مثلًا - وفي حلقات الدراسـة. وهذا هو دورهم الطبيعي.

ولكن بعضهم - كأحمد لطفي السيد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل - اشتغلوا بالصحافة وتَقَاذَفَتْهُم عواصف السياسة بحلوها ومُرِّها، فتعرَّضوا لخبرات لا يرضى عنها كل مُفَكِّر؛ ولم يجدوا التجاوب اللازم من الرأي العام الذي كان لا يزال مشـدودًا إلى قيم وتصورات وزعامات تنزل إليه دون أن تعليه، وتُدغدغ أوهامه ولا تُصارحه، وتستثير خيلاءه بأحلام رومانسية غير واقعية؛ لهذا

(١) انظر مناقشة القضية مناقشة بارعة في: Howord Fast . Literature and Reality

وملخص ما ذهب إليه المؤلف أن «الحقيقة» لا تكمن في فراغ؛ بل لا بد لها أن «تنحاز».

كسفت أضواء هؤلاء الرُّواد أنماط أخرى من الرجال أكثر شهرة وأشد جلبة : الساسة ومن في ركابهم من الصحفيين والمرتزقة الذين غلبتهم الأطماع والمكاسب الوقتية فلم يُرَبُّوا في الشعب قيمًا جديدة وسلَّطوا سهامهم على مَنْ ليس على شاكلتهم .

ولم تكن تَقَلُّبات السياسة المصرية في فترة ما بين الثورتين مما يغري مُفَكِّرًا جادًّا بالانزلاق إلى مهاويها : فطابعها العام ديماجوجي يأنفه المُفَكِّر الحُرّ، ووسائلها تحارب المنطق العلمي الجاد والنقد البناء . هذا هو السِّر فيما أُطْلِق عليه اسم « البرج العاجي » .

وهكذا انعزل غربال وأمثاله، أو فُرِضَت عليهم العُزلة في جوٍّ عام لا يحكمه مَنْطق معقول. جماهير حظها من الثقافة العامة قليل، تُغريها عبادة البطولة بالسَّير منقادة وراء بعض الزعامات التي ليست في مجموعها زعامات مثالية تحس بالمسئولية القومية .

لهذا لا ندهش إذا ما وجدنا عددًا من مُفَكِّرينا الجادِّين، رغم إيمانهم النظري بالحرية وبالديمقراطية ، لا يهضمون الاتجاهات الجماهيرية في ذلك الوقت كما كانت عليه . لهذا اتجه الإيمان بالفرد المبرز إلى الحلول محل الإيمان بالجماعة والأمة والبشرية عامة.

وقد قوَّى هذه النكسة شعور كثير من المفكرين بأن الزيادة في عدد المُلِمِّين بالقراءة ورخص المطبوعات بدلًا من أن تؤدي إلى تنوير الجماهير شجعت على ظهور الكتب التي انعدم فيها التركيز واعوجَّ فيها الفِكْر وخَلَت من الفن.

ولم يشأ معظم الكُتَّاب البارعين أن ينحنوا لتلبية مطالب التجارة الفكرية ، وتمسكوا بمستويات صعبة المنال في عالم الفن والفكر. وبلغ ازدراء الذوق الشعبي غايته في مذهب الفن للفن الذي نادى به توفيق الحكيم ومدرسة أبوللو . وكره الكثيرون الحاضر ورؤية الجماهير الجاهلة يخدعها السَّاسة والأثرياء، فولوا وَجْهَهم شطر الماضي يحتمون به وينتعشون .

وغربال في أعماقه مفكر فنان . ومن سمات المفكر الأصيل أنه مرآة لعصره الذي هو استمرار لتراث الماضي، حقيقة إنه معظم حياته الفكرية يركز على القِلَّة الموجهة والزعامات الفردية ، وبخاصة في المجال الفكري (يتضح ذلك من اختياره لكتاب المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن

الثامن عشر، لكارل بيكر لكي يترجمة- وهو الكتاب الوحيد- على ما أعلم- الذي ترجمه غربال، وإن يكن قد أشرف على مراجعة الكثير من الترجمات وتقديم عدد كبير من الكتاب والمؤرخين والمترجمين . كما يتضح من بعض الشخصيات التي عرض لها في أحاديثه الإذاعية كسقراط والحسن البصري وأبي العلاء المعري والغزالي وابن تيمية وتولستوي وجمال الدين الأفغاني- وقد خلع على هؤلاء صفة أنهم غيَّروا وجه التاريخ، ومن بعض موضوعات محاضراته في هذه الجمعية : ألكسيس دي توكفيل وتولستوي وأرنولد توينبي) .

إلا أن من سِمَات الفنان الأصيل حبه للشعب : الشعب لا باعتباره مجموعة من الأفراد لها ما يُسميه بعض علماء الاجتماع بالعقلية الجماعية ، بل باعتباره وحدة ميتافزيقية تعكس الصورة التي يتخيَّلها المفكر الفنان لمفهوم الشعب والجماهير .

وجيل غربال رغم كونه قد شهد اندفاعة الجماهير المصرية في إبان ثورة ١٩١٩ ، تلك الاندفاعة العملاقة التي ألهمت توفيق الحكيم في « عودة الروح » كما ألهمت سيد درويش في أنشوداته الشعبية ، وكانت من وراء معظم إنتاج المثال الكبير محمود مختار، إلا أنه شهد كذلك نكسة الثورة، وفشل الجماهير الشعبية- لأسباب خارجة عن طاقاتها- في متابعة أهدافها الثورية في المجالين القومي والاجتماعي.

وغربال لم يكن من ساكني الأبراج العاجية . ولكنه كان يرى أن نظرة المؤرخ تختلف عن نظرة الرجل الذي يعيش في غمرة الأحداث وحمى الكفاح وهو يحب الناس، وإن لم يكن يرتاح إلى كل الناس، وهو يحب المعرفة ، ولكنه - كما سبق أن قلنا- يعشق التاريخ الذي كان ينظر إليه نظرة الناقد، وربما الناقد الذي يرى الأحداث من بعيد. ولم يشأ غربال أن يتخصص بالمعنى الضيق ، وإنما كان موسوعي التكوين الثقافي؛ وربما كانت سعة ثقافته مسئولة عن القلة النسبية في إنتاجه.

والتاريخ- آخر الأمر- يقوم على منهج صارم لا يغتفر الشطط والفروض والخيال، ومن ثم كان الجهد الكبير الذي يستلزمه التأليف في التاريخ.

ولما كان غربال رائدًا في حقل تأسيس الدراسات التاريخية بشكلها الحديث، ولما كان لا يبخل بوقتـه على طلبتـه ومريديـه ، فإنه أسـهم في أكثر من مجال إسـهامًا يُمليه عليـه وضعه في الحياة الفكرية المصرية ، فأشرف على مراجعة ونَشْر مؤلفات طلبته وتقديمها ، وأعطى الكثير من وقته لهذه الجمعية منذ أن ترأسها في عام ١٩٥٠، ولذا ينبغي ألا نُسرف في مطالبته بالكثير.

ومع ذلك فإنه أشار إلى الخطوط العريضة التي على المؤرخين الجدد أن ينتهجوها. ولم يكن جامدًا، كما سنراه خلال الترتيب الزمني لمؤلفاته الرائدة: فهو يبدأ عثمانيًا من حيث الاهتمام، ثـم يرتاد مصر الحديثة في النصف الأول من القرن التاسـع عـشر، مؤرخًا لمحمد علي الذي لا شـك كان له أثـره في تحويل مجرى تاريـخ مصر الحديث؛ ثم يكتب عـن « تونس الخضراء » – موطن أجداده الأول– في سلسـلة دائرة المعارف الإسـلامية . توجيهه الأصلي، وقاعدة تفكيره الأساسية : العالم الإسلامي في ماضيه وحاضره ؛ ومصر جزء منه .

ورويدًا رويدًا نجده يخصُّ مصر باهتمامه الكبير، وبخاصة حين تعود مصر منتفضة في أعقاب الحـرب العظـمى الثانية، فترغم انجلـترا على التفكير في الجلاء. ربما يكون هـذا ما هو ما ألهمه بتتبع قصة المفاوضات المصرية البريطانية ، ولقد أسف تلامذته ومريدوه أنه لم يكتب من هذا المشروع إلا الجزء الأول حتى معاهدة ١٩٣٦ .

ثم تنتفض مصر انتفاضه ثورية في عام ١٩٥٢ ، هي لا شك التي ألهمته بسلسلة محاضراته الرائعة في الإذاعة الأوروبية التي تُرْجِمت ونُشرت في عام ١٩٥٧ بعنوان « تكوين مصر » – وهي سلسـلة المحاضرات التي تُعَدُّ خلاصة اتجاهه الفكري ، والتي يبدو فيها بحق تلميذًا لأرنولد توينبي .

وبعـد أن سـيطرت مـصر على مُقَدَّراتهـا واسـترجعت إرادتهـا ، انطلقت إلى آفـاق العروبة ، وخلعت عليها رسـالة تبنِّي الاتجاهات العربية التحررية . وكان غربال مُديرًا لمعهد الدراسـات العربيـة العاليـة حيث ألقى محاضراته عن العالم العربي، وهي المحاضرات التي طبع بعضها تحت عنوان « **منهاج مُفَصَّل لدراسة العوامل الأساسية في بناء الأمة العربية كما هي عليه اليوم** » .

أرأيت كيف كان غربال مرآة لعصره باعتباره فنانًا ؟! العالم الإسلامي بمعناه الواسع في قديمه

وحديثه هو مجال اهتمامه، وبخاصة آثار تفاعل هذا العالم الإسلامي بالحضارة الغربية. خلَّف ذلك شيئًا من التوتر، لم يكن غربال يجده مجالًا للدهشة أو حافزًا للجزع؛ فهو في ذاته ليس شيئاً فريدًا « يماثله التوتر الذي ينجم عن التقاء جيل الآباء بجيل الأبناء في الأمة الواحدة، أو الذي يكون بين الخاصة والعامة في أمة ما، أو بين الأديب ومجتمعه في أي مكان. وأظن أنه يصعب بعض الشيء أن نعثر على العقلية العربية والعقلية الغربية مختلفتين احداهما عن الأخرى بتلك الدرجة من التغاير التي يثيرها التعبير. وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نميز بين رجل أميل للمحافظة وآخر أميل للتجديد. وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نتحدث عن تأثير القديم وتأثير الجديد بدلًا من أن نتكلم عن الشرق والغرب »[1].

فهو لا يعرف مشكلة ما في مصر إلا ولها نظير في أوروبا، والمشكلات هنا وهناك تختلف بطبيعة الحال في مظاهرها وفي حدَّتها أو تعقيدها... « ولو أن الرجل منا قُدِّر عليه أن يُواجه في نفسه صباح مساء الصراع بين الشرق والغرب، وفُرِض عليه أن يبحث عن صيغة يُوفِّق بها بين عقليتين لكان بذلك شقيًّا ».

هذا هو جوهر تفكير غربال التاريخي: الصدام بين الغرب والشرق؛ تحدي الغرب واستجابة الشرق الإسلامي. وهذا هو الذي يُمَيِّزه عمن أخذوا التاريخ بظواهره وأحداثه دون نفاذ إلى أعماقه. وغربال – كما سبق أن قلنا- أديب فنان. وأرقى الخطوات في مسير الثقافة الإنسانية هي شمولها للإنسانية جميعها. وفي سبيل هذا الهدف حطم التأليف التاريخي قيوده التقليدية المعروفة، من شئون عامة وحروب ودين ليسجل كل المظاهر العقلية الإنسانية.

وقد سَاعَدَ الأدب على هذا التقدُّم: فالأدب هو المُعَبِّر عن رغبات الإنسان وأمانيه، كما ساعد عليه أيضًا العلم وهو التعبير الجدي الصارم عن نزعته إلى المعرفة. وقد تخطى عون الآداب في هذا السَّبيل حدود الشكل والأسلوب التي تصفها الكتب التى تعالج موضوع التاريخ كأدب، فزودت المؤرِّخين ببصيرة نافذة شديدة المرونة والعمق في أمور العقل الإنساني. إلا أنه إذا

---

(١) من كلمته في المجمع اللغوي في ٤ نوفمبر ١٩٥٧ عن محمد حسين هيكل بمناسبة شغله المكان الذي خلا في المجمع بوفاة هيكل.

تغلّب الأدب على المؤرخ لإهماله العلم، أو إذا تغلب عليه العلم لإهماله الأدب، جاءت الصورة التي يرسمها للإنسانية ملتوية مشوهة.

فتدوين التاريخ يقترب من الكمال بِقَدْر ما بين المعرفة والفن من اتساق في العمل. انظر إليه - مثلًا - يُقَدِّم لكتابة عن تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، تجد مصداقًا لهذه النظرة العامة، فهو يقول: « **في هذه الفصول محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث والوقائع والسياسات والخطط والبواعث والأغراض والأماني والشهوات التي توالت على مصر والتي يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وإنجلترا إلى هذه الأيام. وقد تتابعت هذه الأشياء المختلفة علينا نحن المصريين منفصلة أو متصلة وحكمنا عليها بما شئنا أو بما أُريد لنا. واليوم وقد بلغنا نقطة تحول فاصلة، ووصلنا إلى مرحلة حاسمة في المصير، وجدت من الخير أن نقف عند هذه المرحلة موقف التفكير المُنَظَّم وهذا التفكير المُنَظَّم لابد أن يقوم على أساس. وهذا الأساس هو ما سميته الصورة المركبة من المتفرقات التي أشرنا إليها. ولهذا العمل خطورته ومسئوليته وصعابه. وله أيضًا متعته. ولكنه جد لازم. وهو واجب وطني ينبغي على كل مواطن أن يحاول أداءه لنفسه بالقَدْر الذي يستطيع** ».

ولقد كتب هذا التقديم لكتابه في مايو ١٩٥٢ حين كانت مصر تمر بمرحلة الغليان السابق على الثورة. ثم يستكمل هذا التقديم بتبيان نظرته إلى قيمة الشخصيات الفردية فيقول: « **وقصة الرجال في تاريخ المفاوضات المصرية تكسب الموضوع متعة أي متعة: فلكل منهم شخصيته وصفاته، وفي كل واحد منهم عناصر القوة وعناصر الضعف لا يشارك غيره فيها ويكفي أن نذكر أسماء بعض من أصبحوا منهم في ذمة التاريخ لنستدل على ما في هذه الناحية من الموضوع من ثروة للمترجم: الملك فؤاد، سعد زغلول، حسين رشدي، عدلي يكن، عبد الخالق ثروت، إسماعيل صدقي، محمد محمود، أحمد ماهر، محمود فهمي النقراشي، عبد العزيز فهمي، وغيرهم. هؤلاء الرجال كانوا من طراز لم تعرفه مصر قبل حقبة المفاوضات. فقد تجمع في مصر فى ثلاثين عامًا من ذخيرة العمل السياسي ما تجمع لدى غيرها من الأمم ما يماثله في قرن أو قرون من الزمان. ويحمل التجمع الغزير في الزمن القصير ما يحمل النبات ينمو في ظروف مصطنعة من**

العلامـات والخصائص، ولـم يكن لمصر حيلة فيمـا حصل، وها هي ذي قد كسـبت الاهتمام بالمسائل العامة فعليها أن تكسب تنظيم الاشتغال بالسياسة والعناية بالتربية الوطنية » .

بعـد هـذه الإلمامة بطريقة تفكير غربال ومنهجه في الدراسـات التاريخيـة، أعود فأحاول أن أُطَبِّق هذه الملحوظات على أهم مؤلفاته مسلسلة زمنيًّا ، وبذلك أتجنب - بقدر الإمكان- إغراء التعميمات التي لا شك لها خطورتها من حيث تقييم الجهد التاريخي .

سـأبدأ برسـالته الـتي حصل بها على درجة الماجسـتير مـن جامعة لندن ، وهي الرسـالة التي أشرف عليه في أثناء تحضير مرحلة منها الأستاذ أرنولد توينبي ، ثم نُشرت في عام ١٩٢٨ بعنوان:
(The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise Of Mohamed Ali)

اختـار موضـوعًا لدراسـته إذا فترة مهمـة من تاريخ مـصر: وهي الفترة الواقعـة ما بين مجيء الحملة الفرنسـية في عام ١٧٩٨ وعقد صلح بوخارسـت بين روسـيا وتركيا في عام ١٨١٢.

وأهم ما في هذه الرسالة أنها تربط أحداث مصر بالموقف الدولي: بحروب نابليون ودبلوماسيته وبالسياسات الأوروبية العامة؛ كما تربطها بالمسألة الشرقية وتاريخ تركيا.

والفترة التى اختارها غربال موضوعًا لدراسـته فترة حاسـمة في تاريخ كل من مصر وتركيا: إنها بداية المرحلة الإيجابية من المشروعات التوسعية الأوروبية في العالم العربي، وبداية مرحلة جديدة في تاريـخ المسـألة الشرقيـة بكل مـا في طياتها من محـاولات للإصلاح في تركيـا ، ومن حركات قومية من نوع خاص في البلقان التركي، وما بين هذه الحركات القومية والدول الأوروبية الكبرى- وبخاصة روسـيا- من صلات، ومشكلة البوغازين وموقف انجلترا منهما ومن البحرية الروسية في البحر الأسود. لهذا كان العنوان الجانبي للبحث: « **دراسة لدبلوماسية العهد النابليوني- مبنية على دراسات في دور الوثائق البريطانية والفرنسية** » .

وقد أهدى غربال الرسـالة لتوينبي باعتباره: « **معلمًا عظيمًا وأسـتاذًا مُلْهِمًا** » وقدَّم توينبي للرسـالة المنشـورة بكلمات تبرز أهمية البحث، مؤكدًا أنه قد استفاد من الإشراف عليه أكثر مما أفاد، مشـيدًا بصفات غربال المؤرخ الناشـئ : فهو على اتصال بالشرق والغرب، وهو بعيد كل

البُعد عن الأهواء والمُيول التى تُحيط بموضوع دراسته، بحيث لو أن اسمه لم يُطبع مع البحث لكان من الصعب القول بأن المؤلف إنجليزي أو فرنسي أو مصري أو ينتسب إلى بلد آخر غير إنجلترا ومصر وفرنسا.

وقد أشاد توبيني بهذا التجرد الذي اتسم به غربال حين كتب رسالته الأولى، مؤكدًا أن ذلك أمرٌ صعبٌ نسبة إلى الرواسب التي خلّفها لدى المصريين ما كان من ذكرى علاقاتهم السياسية بإنجلترا منذ أكثر من قرن وأضاف إلى ذلك ما اتصف به غربال المؤرخ الناشيء من إلمام بعلم استخراج المادة التاريخية من الوثائق، وعرض الحقائق التى يصل إليها.

وأتبع توينبي تقديمه بدراسة مقارنة لمصر العصور الوسطي ومصر الحملة الفرنسية، وهي الفترة التى نكبت فيها مصر بالركود، بحيث حين جاءتها الحملة الفرنسية، واصطرع الفرنسيون والإنجليز على الأراضي المصرية كان ذلك بالنسبة الي المصريين وإلى مؤرخهم الجبرتي وكأنه مجموعة من السوبرمن، تحارب مجموعة أخرى من السوبرمن، على حين أن الفرنسيين والإنجليز كانوا بشرًا، إنما بشر من نوع خاص: توصلوا إلى طرائق حديثه في العلم والمعرفة والتنظيم.

ولم يدرك هذه الحقيقة من المصطرعين المسلمين على السلطان في مصر بعد جلاء الحملة سوى محمد علي الذي أكمل الاتجاهات التى عرفتها مصر بمجيء الفرنسيين، ووجه مصر وشعب مصر وجهات جديدة . لم يكمل غربال قصة محمد علي، وإنما انتهى عند الفترة التى ثبت فيها محمد على سلطانه ووضع أسس حكمه. ومنذ ذلك الوقت أخذت المسألة المصرية تشق طريقًا خاصًا بها إما في ثنايا المسألة الشرقية العامة أو منفصلة عنها.

رسالة غربال هذه عن أُصول المسألة تُمَثّل نَقْلَةً لها أهميتها في الكتابة التاريخية في مصر. فمؤلفها اعتمد على الوثائق الأوروبية غير المنشورة، وهذا أمر جديد في تاريخ الدراسات التاريخية في مصر. سبقته لا شك أبحاث من هذا النوع منها- على ما أذكر - بحث الدكتور سيد كامل عن « مؤتمر الآستانة والمسألة المصرية في عام ١٨٨٢ »[١] ، وهو البحث الذي نُشر بالفرنسية في عام ١٩١٣ .

---

(١) La conference Constantinople et La Question Egyptienne en1882.

بُني هذا البحث حقيقة على الدراسة الوثائقية. ولكنه لم يعتمد سوى على الوثائق والحوليات المطبوعة- وله في ذلك عذره ؛ إذ أن دُور الوثائق لا تسمح بالاطلاع على الوثائق إلا بعد مرور فترة معينة، بحيث لا يتضمن الاطلاع على الوثائق الرسمية إفشاءW للأسرار التى تَمَسّ السياسة العامة للدولة المعنيّة.

الملحوظة الثانية على هذه الاتجاهات الرائدة : أنها نظرت إلى الأحداث والسياسات من وجهة النظر القانونية ، مثل الدكتور سيد كامل في ذلك مثل الدكتور محمد حسين هيكل حين وضع بحثه عن « دَيْن مصر العام » ، وهو البحث الذي حصل به على درجة الدكتوراة من إحدى الجامعات الفرنسية أيضًا. ربما كان مرجع ذلك أن التاريخ بشكله المنظم لم يكن حينئذ قد أصبح علمًا مستقلًا قائمًا بذاته، وأنه لم يكن قد ظهر في مصر مؤرخون متخصصون بمعنى الكلمة . وبهذه المناسبة يجدر بي أن أشيد بالجهد الذي بذله في هذا المضمار الدكتور محمد صبري « السوربوني » الذي تعتبر أبحاثه عن عصري محمد على وإسماعيل و « نشأة الرأي العام في مصر »، وهي الأبحاث التي وضعها باللغة الفرنسية، مما لا غنى عنه لكل من يدرس تاريخ الفترات التى تناولها. بيد أن بحث غربال عن بداية المسألة المصرية كان أسبق من الناحية الزمنية، وإن يكن يبدو أن هذين الرائدين كانا يُحَصِّلان الدرس في فترة واحدة : إذ كان الدكتور صبري- وهو طالب في فرنسا- ممن اتصلوا بسعد وبالوفد في باريس في أعقاب الحرب العظمى الأولى .

لهذا نستشف في مؤلفات صبري الأولى الروح القومي الذي لا نستشفه عند غربال الناشئ. فصبري أديب مؤرخ ؛ على حين أن غربال مؤرخ أديب- ولكل من الرجلين قيمته ، ولمنهاج كل منهما وزنه. وفرقٌ بين التزمت الإنجليزي البارد فى العلم كما تَلَقَّنَهُ غربال في انجلترا ، وبين العاطفية والنزعة الفنية ، والشاعرية الفكرية التي جعلت من باريس فترة ما ـ وربما إلى اليوم ـ قبلة المفكرين والفنانين الكبار من شتى أنحاء العالم .

وقد أرشدت هذه البداية غربالًا إلى الطريق الذي لا بد منه في توجيه دراسات تلامذته الذين اعتمد الرعيل الأول منهم على وثائق دور المحفوظات المصرية وتناولا بالدراسة موضوعات

مهمـة في تاريـخ مصر الحديث. وأَسْـهَمَ هو بدوره في هذا المجال ، مُسَـلِّطًا الأضواء على فترات أو شخصيات لها أهميتها؛ إذ كان غربال يعرف كيف يختار موضوعه : واختيار الموضوع ذاته يعتمد على نـوع الشـخصية التى تختـار . كان غربال إما يحصر موضوعه أو يضـع الاتجاه ذاته والخطوط العريضة ، تاركًا الدراسات الجانبية لتلامذته ومن يحذو حذوه .

ومما نسـتعرضه من مؤلفاته نجده يبتعد- قدر الاسـتطاعة - عن الدراسـات الكلية الشاسعة، وبخاصـة فيمـا يتعلق بالفترات أو الشـخصيات التي لم تسـلط عليها الأضواء بعـد ؛ إذ أنه كان يـدرك أن حقـل تاريخ مصر الحديث بكـر، وأنه قبل التصـدي للكتابة لا بد مـن نشر الوثائق وأدوات البحث الأخرى.

وفي عام ١٩٣٢ نشر بحثه عن « **الجنرال يعقوب والفارس لسـكاريس ومشروع استقلال مصر في سـنة ١٨٠١** » وفي هذا البحث أبرز فكرة اسـتقلال مصر عن تركيا ، على أسـاس التفاوض في العواصم الأوروبية ، كما تخيّلها يعقوب حنا ولسكارس بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، وقد بنى هذا البحث على المصادر العربية والإفريجية ؛ وكعادته في مثل هذه التآليف ، واستمرارًا لرسالته التي أشـار فيها إشـارة سريعـة إلى هذا المشروع، نجده يربط هذا البحـث رابطًا محكمًا بالموقف الدولي وبأوضاع مصر ذاتها ومسـتوى أبنائها وأحوالها الاجتماعية.

وفي عام ١٩٣٦ نشر بحثه: « **مصر عند مفرق الطرق- رسـالة حسـين أفندي الروزنامجي** » .

في هـذا البحـث يتناول مجموعة الأسـئلة الـتي وجهها إسـتيف مديـر الإدارة المالية في عهد الحملة الفرنسية إلى حسين أفندي الروزنامجي أحد أفندية الروزنامة في مصر، وإجابات حسين أفندي على هذه الأسـئلة . وهذا البحث أنمـوذج للتحقيق العلمي، ولا يزال حتى الوقت الحاضر من المصادر الأساسية لأحوال مصر العثمانية.

وبداية الحملة الفرنسـية ، ومشروع يعقوب حنا ولسـكاريس الخاص باستقلال مصر في سنة ١٨٠١ ، ومـصر عنـد مفرق الطـرق ... كل هذا لا بد أن يغري غربال بالدخول الى عصر محمد علي جملـة وتفصيـلًا. والموضوع ذاتـه جدير بالاهتمام ولا يـزال مثارًا للنقاش حـتى الوقت الحاضر

طبقًا لنوع النظرة التى تحيط بمن يتناول عصر محمد علي والرجل ذاته ونوعية مستوي الشعب المصري في الفترة التي تولى فيها محمد علي الحكم والتى أرسى فيها دعائم هذا الحكم، ثم حول مجرى تاريخ مصر الحديث شاء هذا الحكم من يقرأ تاريخ محمد علي أم لم يشأ.

ظهر كتاب « محمد علي الكبير » في عام ١٩٤٤ . وهذا الكتاب قمة من قمم الدراسات التاريخية التي كتبت باللغة العربية على الإطلاق. ورغم القِلّة النسبية لعدد صفحاته ، فإنه يفرض علينا وقفة خاصة: إذ أنه أنموذج متكامل، وربما كان الأنموذج الوحيد، للكتابة التاريخية كما يراها غربال.

فمحمد علي هنا ليس شخصية تتحرك في الزمان والمكان ؛ ولكنه محور لدراسات: تبدأ الدراسات بمصر العثمانية ، ثم الحملة الفرنسية ؛ وتنتقل إلى أوروبا وتركيا، ثم إلى أحوال المجتمع المصري كما تسلمه محمد علي ، ثم التحول البطيء لهذا المجتمع وفق ما أرتأته له مشيئة محمد علي.

مجتمع ينتقل من حال إلى حال، على الأقل في دوائره العليا، إذ مسائل التغير الاجتماعي لا يمكن تناولها بنظرتنا إلى مسائل التغير المادي.... مجتمع مصري مُتَخَلّف توضع له أدوات وأركان التغير التقدمي ولو بعد حين طويل ، وغربال يحاول أن يخلع على محمد على خطة محكمة هي التي أفضت إلى بناء قواعد الدولة الحديثة في مصر ، ويصوره لنا يدفع جيل الفلاحين والعمال والجنود المصريين إلى آفاق فسيحة، ويحاول أن يبرر شدته على الشعب والمماليك وتبنيه « للأرستقراطية التي تتكلم اللغة التركية » .

وعلى أى حال فالمؤرخ ليس القاضي الذي يمسك بيديه موازين العدالة ، ويوزع الخير والشر كما يحاوله، وإنما هو يحكم على الأشخاص والأعمال في نطاق الطبيعة البشرية.

نُشِر هذا الكتاب في « سلسلة أعلام الإسلام » - وهو يختلف عن مؤرخي مصر الحديثة الذين ينظرون إلى مصر العثمانية باعتبارها جزءًا من تاريخ مصر، في حين أن غربال يعتبر مصر العثمانية ومصر محمد علي جزءًا من تاريخ الإسلام . وقد برر هو ذاته اختياره محمد علي علمًا من أعلام الإسلام، على اعتبار أن مصطلح « إسلامي » لا يقف عنده فترة تاريخية معينة .

ثم جعل من محمد علي محورًا لدراسة عصره في الشرق والغرب، مصطنعًا أسلوب التحليل

والتركيز والربط كأحسن ما يكون الاصطناع .

وصدر في هذا الكتاب عن تمكن تام من موضوعه، وعن أسلوب للتعبير يصطنع الدقة المتناهية في اختيار اللفظ، وطرق العرض الفلسفية وطرائق علم النفس ومناهج علم الاجتماع .

وهو في هذه الترجمة إسلامي بالمعنى الواسع . يربط موضوعه في إطار تجسيم ما قد قام به محمد علي مع الرفق الشديد حين يُعَدِّد له الهَنَّات الهيِّنات. انظر إليه يُقارن بين مصر المماليك المتأخرين ومصر المماليك الأول : « **مصر بيبرس محور ذلك العالم العربي الذي اكتسب مقوماته وانفرد بشخصيته على أثر انهيار الخلافة العباسية . وهو اجتماع يتركب من طوائف وجماعات لها شخصيتها وقانونها وعُرْفها ووظيفتها . فمن أصحاب السيوف الى أصحاب الأقلام ، ومن أهل الفلاحة للأصناف (أصحاب الصناعات) ومن أرباب السجاجيد إلى هيئات التدريس- وهلم جرا. ويكتسب ذلك الاجتماع الصاخب حيويته من حكم الجماعات نفسها بنفسها ، كما يكتسب لونًا من التنسيق والانسجام من شخصية السلطان ؛ يدفع الناس بعضهم ببعض، ويحاول أن يخضع الأهواء والمصالح لجهود عامة في تحقيق مُثُل عُليا تهم الناس جميعًا . ولكن كانت آفة ذلك الاجتماع ما صَحِبَهُ من سَرف وتبديد كان من شأنهما على توالي الزمن وضع أعباء على الطوائف المنتجة من أهل الفلاحة والصناعة والتجارة، أَنْهَكت قواها الحسية والمعنوية . وكانت آفته الأخرى من أول الأمر انصراف الناس نحو شئونهم الخاصة بأشخاصهم وجماعاتهم، وابتعادهم عن الشئون العامة واعتبارهم إياها « سياسة عليا » ، كما نقول الآن، هي مما ينبغي النظر فيه للسلطان والأمراء، وليست مما ينبغي للرعية. وقد وجدوا في تعليم أئمتهم ما يُبرر إيثارهم العافية** » .

وفي هذه الفترة أيضًا صدَّر غربال للكتاب الذي أصدرته « دائرة المعارف الإسلامية » عن: « تونس الخضراء » بمقدّمة سياسية تناولت الوضع الدولي السابق على فرض فرنسا حمايتها على تونس ؛ إذ لا يمكن فهم هذا التطور في السياسة الفرنسية إلا بربطه بأوضاع المسألة الشرقية والحرب الروسية- التركية (١٨٧٧-٨) ، ثم مؤتمر برلين وما طرح فيه على بساط البحث من تقسيم للإمبراطورية العثمانية وهذه المقدمة القصيرة المركزة تدخل بنا إلى المقدمات الأخرى

المركزة التي وضعها غربال لكثير من مؤلفات وترجمات طلبته والعاملين معه .

وتمتاز هذه المقدمات بالشمول ، وتهيئة الذهن للموضوع ؛ بل إن بعضها مما يغني الدارس غير المتخصص عن الإيغال في تفاصيل الموضوع ذاته .

وفي عام ١٩٥٢ نشر غربال الجزء الأول والأخير من كتابه عن « **تاريخ المفاوضات المصرية - البريطانية** » ، وهو أطول ما كتبه غربال باللغة العربية ويُخيل إلى أن غربال لم يعط نفسه فسحة من الوقت لصقل هذا الكتاب ومراجعته . ولذا فإننا نجد مراحله الأولى تختلف عن مراحله الأخيرة التي يُسرف فيها في عرض النصوص الكاملة لمشروعات الاتفاقات ومحور المفاوضات بين الإنجليز والمصريين . وكان يستحسن أن يلخص مضمونها، على أن تُورَدُ النصوص في ملاحق مستقلة .

على أن غربال - باعتباره رائدًا من رواد التاريخ الحديث ، وتاريخ مصر الحديثة بالذات- يُلفت النظر في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى مصادر التاريخ المصري الحديث ، على الأقل في فترة دراسته. هناك مثلًا المجموعات الرسمية التي أصدرتها الحكومتان المصرية والإنجليزية ، أو مجموعات الكتب الملونة : بيضاء وخضراء وزرقاء .

وهناك الصحف والمضابط البرلمانية . وأهمية كل ذلك نسبية طالما أن الوثائق الرسمية الأصلية لم يُكْشَف عنها اللثام بعد : فالوثائق الرسمية المصرية تقف عند عام ١٨٧٩ ، أي قبل موضوع بحث غربال بسنوات ثلاث ؛ والوثائق الإنجليزية - على ما أعلم - تقف عند عام ١٩١١ وللآن لم تقم دراسة وثائقية للفترة التالية على عام ١٨٨٢ فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر وإنجلترا سواء بالإنجليزية أم بالعربية .

ثم ينتقل في هذا الموضوع الى المذكرات الخاصة ، فيقول إن كتابتها لم تتأصل بعد بين رجالنا- حتى مذكرات الدكتور هيكل في السياسة المصرية هي لديه أقرب إلى التاريخ منها إلى المذكرات لأنها لم تكتب وقت حُدُوث الوقائع ، بل بعدها بوقت ما .

وينتقل بعد ذلك إلى التراجم ، فيسجل قلتها إن لم يكن عدمها ونوَّه بترجمة عباس محمود العقاد لسعد زغلول ، ونقد بعض جوانبها، وخرج الى أنها بحث ممتع ؛ **ولكنه لا يُعين كثيرًا على**

الترجمة لسعد زغلول .

وقد انتقل غربال في آخر هذا الفصل إلى الدراسة التاريخية، ونوه بجهود الأستاذ الرافعي في جمع مادة تاريخ مصر الحديثة منذ أواخر العهد العثماني وأخذ عليه طريقته في الحكم: الميزان ذو الكفتين ؛ وهذه طريقة وإن يكن لها وزنها في دنيا القضاء والقوانين إلا أنها لا تصدق على التاريخ. فالعدالة في الحكم التاريخي- عند غربال لا تتحقق على هذا الوجه السَّهل ، ولا تتم إلا بالتقدير العام لسياسة أو لموقف .

على أن بحث غربال في تاريخ المفاوضات يُشْتَم منه التفاعل بالأحداث والخروج بعض الشيء عن التجرد الذي لمسناه فيه حين وضع رسالته عن « **أُصول المسألة المصرية وظهور محمد علي** » فهو يكتب في موضوع حساس عاش معظم فترته وكشأن المواطن الذي لا بد مهتم بمصائر بلده ، نجد غربال يبتعد عن تزمت المؤرخ، ويمسك بالميزان الذي أخذ على الرافعي أنه جعله ذا كفتين: فهو له آراؤه الخاصة في المواقف والرجال، وهو مصري بشكل واضح ينعي على قومه الفرقة التي لم يكن لها أحيانًا ما يبررها واستشهد بقول الشاعر :

قومي هــمو قتلوا أميم أخي فإذا رمــيت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمي

وتتضح هذه المصرية بشكل أكيد في سلسلة المحاضرات التي ألقاها في الإذاعة الأوروبية ونُشرت في أصلها الإنجليزي أولًا بعنوان The Making of Modern Egypt ثم ترجمها الأستاذ محمد رفعت في عام ١٩٥٧ تحت عنوان: « **تكوين مصر** » .

وهنا يتضح النهج التي سبق أن لمسناه في كتاب « **محمد علي الكبير** » ، مع مسحة حضارية تناسب الموضوع الشاسع في الحيز الضيق . خَفَت في هذه المحاضرات المؤثرات العثمانية- الإسلامية ، وتبلورت فيه الصورة المصرية مجرَّدة عن كل ما يمكن أن يفرق بين المصريين ، بحيث حين تأتي المرحلة العربية من اتجاه مصر الحديثة ، وهى المرحلة التى اتضحت بشكل بارز بعد ثورة ١٩٥٢ ، يكون غربال قد مهَّد نفسه لصقل الصورة العربية العامة وموضع مصر من هذه الصورة .

في هذه المحاضرات نجد غربال عاشقًا لمصر خلال العصور كلها . « **وهذا على الرغم من أنني أعرف أنه ليس في مقدور الرجل منا أن يحيط بالأدوات والدراسات كافة اللازمة لكل قسم من أقسام تاريخ مصر المعروفة .... دع عنك الإحاطة بها جميعًا . بيد أن الأخصائي والقارئ غير الأخصائي كلاهما يجد مُتعة ذهنية ومغنمًا في آنٍ واحدٍ لو حاد بين الفينة والفينة عن طريق التخصص؛ الطريق الضيق واضعًا نُصْب عينيه أن هناك « مصر » دائمًا، وأنها تسمو فوق هامات الحقب والعصور** » .

بعد هذه المقدمة الشّيقة نجده يتناول موضوعات الاستمرار والتغيير في تاريخ مصر؛ الحكومة والمجتمع في مصر ؛ الإنسان والمجتمع في مصر؛ المدينة والريف في تاريخ مصر ؛ مصر والعهد القديم ؛ مصر والهيلينية ؛ مصر والمسيحية ؛ مصر والإسلام ؛ وأخيرًا مصر والغرب .

إنّ هذه المحاضرات تُمَثّل نوعًا فريدًا في طريقة العرض التاريخي في العالم العربي- الإسلامي ، شأنها في ذلك شان كتاب « محمد علي الكبير » هنا ، وهنا بحق ، نجد غربال تلميذًا لأرنولد توينبي دون أن يتقيَّد بحرفية منهاج أستاذه في تفسير التفاعل الحضاري وانتقال المؤثرات الحضارية من مكان إلى مكان .

فمن الإسراف وضع قانون ثابت أو قوانين ثابتة لحركات المجتمعات التى هي المادة الحية للتاريخ بمعناه الواسع . ذلك أن الإنسان لا يصدر في سلوكه الفردي والجماعي عن أنماط ثابتة من السلوك بحيث تكون الاستجابة على قَدْر المُؤَثّر - كما هو الحال في القوانين الطبيعية ولدي الأنماط الدنيا من الكائنات الحية . إنه ليس آلة صماء يسهل التحكم فيها .

فأرنولد توينبي- مثلًا- يبني دراسته للتاريخ على قانون ثابت يقوم على التحدي والاستجابة ؛ وقد لقي تفسيره للتطور الحضاري كثيرًا من المآخذ في إنجلترا ، وإن كنا لا نستطيع إنكار قيمة الجهد الذي قام به . وكارل ماكس يربط بين حركة التاريخ الصاعدة وبين العامل المادي- الاقتصادي . ومدرسة السلوكيين في علم النفس تستمسك بالفعل المنعكس الشرطي القائم على تجارب العالم الروسي بافلوف على الكلاب. وفرويد يضع الغريزة الجنسية وراء كل دافع بشري .

وربما كانت نظرة « أرنولد توينبي » أكثر مرونة من غيرها ؛ فالإنسـان- مع تمتعه بقسـط وافر من حرية الاختيار لا يسـتطيع فكاكًا من إسـار الطبيعة وبيئته المادية. ونحن لا نسـتطيع أن ننكر أثر تحدي الطبيعة للإنسـان وتحدي الإنسـان للإنسـان في مجرى النشـاط البشري العـام . ولكننـا الآن – في النصـف الثاني من القرن العشرين - نجد الإنسـان وقد توافرت له الأدوات التى لا شـك سَتُمَكِّنه – لو أحسن استخدامها - من التغلب على الطبيعة والتخفف من إسـارها الذي كان بالنسـبة إلى الإنسـان القديم، بل ربما حتى الوقت الحاضر في مجالات شاسعة، قدرًا غالبًا وحتمية قهرية .

إن إنسـان النصـف الثاني من القرن العشرين هو الذي يتحـدى. ومع ذلك فليس في طاقتنا أن نتنبـأ بخطـوط تفصيلية محددة للتطور البشري. فمهمة المـؤرخ هى ترتيب ما يتجمع لديه من الوقائع التاريخية وتحليلها وتفسيرها . وليست مهمته التنبؤ أو الحدس سواء فيما يتعلق بالحاضر أو بالمستقبل، إلا أن يكون ذلك من قبيل الافتراض العلمي.

أدرك غربـال كل ذلـك إدراكًا واعيًا، فلم يشـأ أن يخضع لفلسـفة تاريخية معينـة. فهو يأخذ من كل تفسـير بِقَدَر ، طبقًا للمُلابسـات التى تُحيط بموضوعه ، وحيثما تُصادفه قضية كبرى من قضايا التطور الاجتماعي نجده يستشهد بآراء كبار المفكرين التي قد تُفَسّر الزوايا المختلفة لهذه القضية ، دون أن يربط نفسه كليًّا بهذا أو بذاك .

هـذا وغربـال – لا شـك – كان على علـم وثيق بأهـم المناهج التاريخية وبالأنمـاط المختلفة مـن كبار المفكرين. ولكن طبيعته السـمحة واتسـاع أفقه وإيمانه الواضح بحرية الإنسـان مما جعله يتحرَّز من الانتماء لمدرسـة معينة في تفسـير التاريخ . وبين هذا وذاك نجد لديه تمشـيًا مع أسـتاذه « أرنولد توينبي » في الأخذ بقيمة الصفوة الخالقة élite في مجال النشـاط البشري بشـتى زوايـاه. وهـذه نقطة جوهرية هي باسـتمرار مثار للنفاس وبخاصة بعد ظهور التحدي الاشـتراكي في المجالـين الاجتماعي والفكري، وهو التحـدي الذي خلع على الجماهير من الوعي ما لم يخلعه الكتاب من قديم الزمن.

أما المحاضرات التي ألقاها غربال في معهد الدراسات العربية ونُشرت قبيل وفاته بعنوان : « **منهاج مُفَصَّل لدراسة العوامل الأساسية في بناء الأمة العربية كما هي عليه اليوم** » ، فهي آخر مجهودات غربال في مجال الكتابة التاريخية، وإن لم تكن آخر ما طُبِع له ؛ فقد جمعت دار الإذاعة متفرقات من أحاديثه تحت عنوان « من زاوية القاهرة » سننهي بها حديثنا عن غربال .

في « المنهاج المفصل » نجد غربال يضع الخطوط العريضة للتفاعل والصِّراع في العالم العربي تحت الحكم العثماني وبعد الحكم العثماني .

والمُحاضرات تنقسم قسمين :

القسم الأول : لمحة سريعة عن العالم العربي والدول المختلفة القائمة فيه : الموقع الجغرافي لكل منها واقتصادياتها وتعداد سكانها.

أما القسم الثاني : فهو القسم المهم، وفيه يعرض المؤلف للعالم العربي والأوضاع القائمة فيه والتيارات الفكرية التي غلبت على الناس ، وكانت سببًا في تأخر العالم العربي .

فالاتجاه العام قبل التحدي الأوروبي هو أن العرب المسلمين عاشوا في جو خيالي نابع من معتقداتهم الدينية : فقد تصوروا أنهم بعزلتهم لهم الجنة وأن لغيرهم النار . لهذا لم يتطلَّعوا إلى الاستزادة من العلم التطبيقي الأوروبي . وساعد على ذلك أن الحكم العثماني كان يحول بينهم وبين التطور، وذلك برغم حركة التنظيمات المستوحاة من التفوق الأوروبي خصوصًا في جوانبه المادية . وقد جاء التوتر السياسي في العالم العربي نتيجة لمحاولة الدولة العثمانية تقوية قبضتها على البلدان العربية ، وهو ما عرف بحركة التتريك .

ثم تلا ذلك سقوط الإمبراطورية العثمانية ووقوع العالم العربي تحت التبعية الأوروبية . وقد أبرز المؤلف دور حركة الشريف حسين ودور المثقفين الذين عقدوا مؤتمرهم في باريس في عام ١٩١٣، وكيف أن الفريقين قد ركبا متن الشطط ، وانتهزت كل من إنجلترا وفرنسا الفرصة لتقسيم العالم العربي ووضعه تحت نفوذهما المباشر . ولكن المد القومي الصَّاعد ما لبث أن تبلور وتجمع متمثلًا في رفض المعاهدات التي أمليت والوضع غير العادل الذي ادّخر لفلسطين .

وما لبث العالم العربي في مشارقه ومغاربه أن تصدّى للحصول على استقلاله ، خاصة وأن البلدان العربية في مجموعها مجيدة التاريخ سواء قبل أن تصبح عربية وبعد أن أصبحت عربية .

وصفات العرب كما كانوا عليه تحت الحكم العثماني ليست هي الصفات الأصيلة فيهم؛ بل هي صفات دخيلة بحكم الركود والجمود . فمقومات التاريخ العربي - كما يذكر غربال في إحدي محاضراته الإذاعية المطبوعة - متوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط : فارتقاء الحسيات يقابله ارتقاء مماثل للمعنويات ؛ والعناية بالزراعة وما يتصل بها من الغراسات والتفنن في الاستنبات والبراعة في جر المياه وصرفها ، لا تقل عن العناية بالصناعات، والزراعة والصناعة شأنهما لا يقل عن شأن التجارة وما يتصل بها من تنظيم وطرائق إنهاء الحقوق والادخار والائتمان » .

وهذا ينطبق على الحياة العقلية : فهي تعنى بالأبحاث النظرية دون إهمال للتطبيقات العملية ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالحياة الروحية : فلا إسراف عمومًا في رعاية ما يوجبه حق الجماعة وما يقتضيه حق الفرد . وهو يرى أن اللغة العربية هي جماع عقل وروح الأمة العربية، وهي أعظم ما خلق العرب، لماضيهم وحاضرهم ولمستقبلهم.

في المجموعة الأولى من هذه المحاضرات نجد غربالًا يتناول موضوعات حضارية بحتة أدرجت تحت عنوان نظرات في التاريخ العربي: العرب بين الأمم؛ تعبيرالفن عن الشخصية العربية ؛ تعبير العلم عن الشخصية؛ الشعوبية القديمة والشعوبية الجديدة؛ المدينة العربية .... حكومتها في الماضي والحاضر.

وفي هذه المحاضرات نجد غربالًا يختار النقاط البارزة في الحياة العربية، محاولًا تحديد مفهومي عربي وإسلامي .. ووصف إسلامي- لديه - أعم وأصدق .

ثم هو يُسَجِّل للعرب مُحافظتهم على حيويتهم ومقوماتهم منذ القرن السادس عشر برغم التغلغل الأوروبي والسيادة التركية العثمانية ، ويحثهم أولًا أن يكونوا أقوياء: « **فالقوي لا ينفع نفسه فحسب ، ولكن ينفع الناس جميعًا بقوته** » .

كذلك نجده يحاول مقارنة الشعوبية القديمة بالشعوبية الحديثة في داخل العالم العربي ، وأن

هـذه الأخـيرة لن تنال من العالم العربي أكثر مما نالت الشـعوبية القديمة : إذ المجتمع العربي قد التقـت فيه العناصر الوافدة والأصلية وتفاعلـت وأثمرت ، وأن هذا المجتمع مجتمع الجميع، وأن التاريخ العربي ملتقى التواريخ .

أرأيت كيف انتهى غربال محددًا لنفسه موقفًا إيجابيًا من قضية الحرية والالتزام ؟ إنه بصفته من رواد الفكر لابد له من وقْفَةٍ ايجابية إزاء مجتمع يتحرك ويتطور ويتطلّع إلى آفاق جديدة .

وأنهي كلمتي هذه بطرح قضية الحرية والالتزام على هذه الجمعية الموقرة القائمة في صمت على خدمة الدراسات التاريخية المتشحة بالثوب العلمي، مقتبسًا الفقرة الآتية من الميثاق الوطني :

« إن العلم للعلم في حد ذاته مسئولية لا تستطيع طاقتنا الوطنية في هذه المرحلة أن تتحمل أعباءها.

لذلك فإن العلم للمجتمع يجب أن يكون شعار الثورة الثقافية في هذه المرحلة .

على أن بلـوغ النضال الوطني لأهدافه سـوف يسـمح لنا في مرحلة متقدمـة من تطورنا بأن نساهم ايجابيًّا مع العالم في العلم للعلم » .

⊙⊙⊙

الأستاذ الكبير
مُحَمَّد شَفِيق غُرْبال وَتَلاميذه
(حديثُ الذِّكريات)

أ.د. محمد محمود السُّروجي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

يحسن بنا قبل أن ندخل في تفاصيل تلاميذه أن نلقي نظرة سريعة على حياة الأستاذ محمد شفيق غربال (٤ يناير ١٨٩٤-١٩ أكتوبر ١٩٦١) لبيان منهجه في دراسة التاريخ وأثر ذلك على تلاميذه، ولد محمد شفيق غربال في مدينة الإسكندرية، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمدرسة رأس التين الثانوية، ولكي يستكمل دراسته انتقل إلى القاهرة والتحق بمدرسة المعلمين العليا، وتخرج منها عام ١٩١٥ فهو إذًا سكندري المولد، وقاهري التكوين، ثم أرسل في بعثة إلى بريطانيا خلال فترة الحرب العالمية الأولى رغم ما يكتنف هذا السفر من أخطار، والتحق بجامعة ليفربول للحصول على درجة البكالوريوس، ونجح بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩١٩.

عاد بعد هذا إلى مصر حيث عمل بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية لفترة ثلاث سنوات، عاد بعدها مرة أخرى إلى بريطانيا مرة ثانية، للحصول على درجة الماجستير من مدرسة الدراسات التاريخية التابعة لجامعة لندن، وهناك التقى بالمؤرخ الكبير أرنولد توينبي الذي أشرف على رسالته وعنوانها: "بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي"

Ghorbal, S. The Beginning of The Egyptian Question and The Rise of Mohamed Ali.

وتم له ذلك في عام ١٩٢٤ وحصل على مرتبة الشرف.

وفي مقدمة الرسالة المنشورة سنة ١٩٢٨م أشاد توينبي بأهميتها، وبموضوعية تلميذه وحياده وربطه بين المسألة المصرية والمسألة الشرقية، وكان لها دوي في الأوساط العلمية في مصر لاعتمادها على الوثائق الأصلية.

وبعد عودته إلى مصر عام ١٩٢٥عين مدرسًا للتاريخ بمدرسة المعلمين العليا، ومنها نقل إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) بدرجة أستاذ مساعد عام ١٩٢٩، وظل بها إلى أن عين أستاذ كرسي التاريخ الحديث عام ١٩٣٦، خلفًا للأستاذ جرانت Grantt، وكان معظم أساتذه الكلية وقتئذ من الأجانب ومن ثم كان أول مصري يتولى هذا المنصب، وفي عام ١٩٣٩ انتخب عميدًا للكلية.

وبعد عام واحد نقل إلى وزارة المعارف كوكيل مساعد لها، حتى عام ١٩٤٢ حيث عاد أدراجة

إلى الجامعة مرة أخرى، ولكنه لم يلبث بها سوى ثلاث سنوات ليعين بعدها مستشارًا فنيًا لوزارة المعارف ثم وكيلًا لها، إلى جانب تعيينه أستاذ غير متفرغ بكلية الآداب عام ١٩٤٩. ولخلاف مع حكومة الوفد لأسباب علمية نقل إلى وظيفة وكيل وزارة الشئون الاجتماعية لمدة قصيرة، عاد بعدها وكيلًا لوزارة التعليم حتى عام ١٩٥٤.

ومما لاشك فيه يعتبر محمد شفيق غربال مؤسس مدرسة التاريخ الحديث بمصر، ولاسيما أنه أعطى تلاميذه جل اهتمامه ورعايته، ليواصلوا بحثهم بجدية وإتقان وليكونوا باحثين في التاريخ الحديث والمعاصر ولذا نجد رغم سعة اطلاعه وثقافته الواسعة ودقة تحليله وبعده عن الهوى، وقدرته الفائقة على استخلاص الحقائق من مظانها الأصلية، فإن إنتاجه العلمي كان قليل، ولكن وفرة إنتاج تلاميذه من بعده قد عوض هذه القلة، وحقق هدفه في تخريج أجيال تواصل عطاءه من بعده.

ولما كان البحث العلمي يحتاج إلى إنشاء دور للوثائق للرجوع إليها، وخصوصًا في التاريخ الحديث، فقد وجد في الملك فؤاد خير معين، فنظرًا لاهتمامه بكتابة تاريخ الأسرة العلوية، شكل لجنة في عام ١٩٢٥ برئاسة حسين باشا نشأت لجمع الوثائق الموجودة بدار الوثائق بالقلعة وبالدور الحكومية وتصنيفها، وترجمة الوثائق التركية منها، بالإضافة إلى جمع ما كتبه قناصل دول أوروبا في مصر، ووضعه في قصر عابدين تحت اسم "دار الوثائق السرية والمحفوظات التاريخية الملكية"، كما كلف عددًا من المؤرخين الأجانب بكتابة تاريخ أسرته مثل دوان Douin وكرابيتس Crabités و سماركو Sammarco وغيرهم.

واستطاع الأستاذ غربال أن يوجه تلاميذه بالدراسات العليا إلى دراسة كل نواحي النشاط الإنساني في مصر من زراعة وصناعة وتجارة وتعليم في القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، مستعينًا بالوثائق المحفوظة في دار الوثائق التاريخية، فوضع بذلك أساس بناء مدرسة التاريخ الحديث بأيد مصرية وعقول مصرية.

أما عن دراساته وبحوثه فنجد بحثه القيم عن تطور مصر في القرن التاسع عشر، وعنوانه

"مصر عند مفرق الطرق" وهو عبارة عن تحقيق مخطوط "ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية" كما بينه حسين أفندي الروزنامجي من خلال الأسئلة التي وجهت إليه من قبل المسيو إستيف Estève مدير الإدارة المالية للحملة الفرنسية، لمعرفة أوضاع مصر الإدارية والمالية قبل مجيء الحملة، ويعد هذا التحقيق العلمي مثالًا يحتذى لنشر النصوص التاريخية.

ونشر أيضا بحثًا عنوانه « الجنرال يعقوب والفارس لسكارس » وهو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها في الجمعية الجغرافية، تناول فيه موضوع استقلال مصر عن الدولة العثمانية، بعد جلاء الفرنسيين عن مصر عام ١٨٠١، وذلك عن طريق التفاوض مع الدول الأوروبية الكبرى.

ونشر في عام ١٩٤٤ كتابًا بعنوان «محمد علي الكبير» وهو من أحسن ما كتب عن أصول المجتمع المصري في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وما طرأ عليه من تغيرات كبيرة، وكيف نجح محمد علي في إنشاء سلطة مركزية قوية معتمدًا على القوة والعلم والمال، بعكس ما حدث في الدولة العثمانية من فشل محاولات محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) في الإصلاح لاعتماده على القوة العسكرية وحدها.

وقسم الأستاذ غربال موقف محمد علي من الدولة العثمانية إلى قسمين، القسم الأول محاولة الوقوف إلى جانب السلطان العثماني والعمل على تقويته حفاظًا على الدولة العثمانية الإسلامية، ولكن تغير هذا الموقف إلى محاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية بعد صلح كوتاهية عام ١٨٣٣.

وفي عام ١٩٥٢ نشر كتاب "تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية" منذ الاحتلال ١٨٨٢ إلى معاهدة التحالف المصرية البريطانية عام ١٩٣٦ . تعرض فيه للحركة الوطنية المصرية.

وكتاب «منهاج مفصل لدراسة العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم» وهو آخر ما كتبه الراحل، وهو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية بالقاهرة، وأوضح في هذا الكتاب أن بناء الأمة العربية اعتمد على ثلاثة عوامل هي: الأوضاع الداخلية للعالم العربي، وأثر الحكم العثماني في الأمة العربية، ثم الأثر الأوروبي فيها. واعتبر أن التقاء هذه العوامل الثلاثة هو الذي بنى الأمة العربية على ما هي عليه اليوم.

ومـن آثـاره الباقية حـتى يومنا هذا إنشـاء الجمعية المصرية للدراسـات التاريخية ورئاسـتها، وإنشـاء متحف الحضارة المصرية عام ١٩٤٩، وانتخابه عضوا بالمجلس التنفيذي لليونسـكو عام ١٩٤٦. واختارته هيئة اليونسكو عام ١٩٥١ لعضوية لجنة من اثنى عشر مؤرخًا على مستوى العالم ليكون مستشارًا في شئون تاريخ العالم.

كذلـك كان عضوًا بمجمع اللغـة العربية بالقاهرة، وعضوًا بالمجمع العلمي المصري، ومجلس الآثار الأعلى، والجمعية الجغرافية.

وتولى منصب مدير معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بعد تقاعده، واختار له صفـوة من الأسـاتذه ليحـاضروا فيه في مختلف الدراسـات الأدبية، والتاريخيـة، والاقتصادية، والسياسية مع نشرها.

وفي أخريات أيام حياته أشرف على إخراج أول دائرة معارف عربية صغيرة باسم « الموسوعة العربية الميسرة ». وكان رئيسًا لمجلس إدارتها. ولـكن لم يطل الأجل ليراها مطبوعة إذ انتقل إلى لقاء ربه في ١٩ أكتوبر ١٩٦١.

تلاميذه

نشـأ على يديه جيل من الأسـاتذة الذين أثروا المكتبة التاريخية بالعديد من المؤلفات القيمة. يأتي على رأسهم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، والأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي، والأستاذ أحمد أحمد الحته، والأسـتاذ الدكتور حسـن عثمان، والأسـتاذ الدكتور محمد رفعـت رمضان، ولكنني سأكتفي بذكر ثلاثة منهم هم :

١- أحمد عزت عبد الكريم.

٢- محمد مصطفى صفوت .

٣- محمد محمود السروجي.

١- الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
(١٩٠٩-١٩٨٠)

ولد أحمد عزت عبد الكريم عام ١٩٠٩ بمدينة شبين الكوم، وحصل على شهادة الليسانس عام ١٩٣٠ بدرجة ممتاز من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا)، وعلى دبلوم معهد التربية العالي عام ١٩٣٣، وعلى درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول عام ١٩٣٦، والدكتوراه من الكلية نفسها بمرتبة الشرف الممتازة عام ١٩٤٦ تحت إشراف الأستاذ محمد شفيق غربال.

وبعد حصوله على درجة الليسانس عمل مدرسًا بوزارة التربية والتعليم، ثم معيدًا ومدرسًا وأستاذًا مساعد بكلية الآداب، وفي عام ١٩٦١ تولى عمادة كلية الآداب بجامعة عين شمس، ورئيسًا لها في عام ١٩٦٨ إلى أن أحيل إلى المعاش في العام التالي.

ويعتبر الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم من أشهر تلامذة الدكتور غربال ومن أحرصهم على اتباع منهج أستاذه في البحث العلمي، وفي العناية بتلاميذه في الدراسات العليا، وفي توجيههم لمسح التاريخ الحديث للوطن العربي، وتوزيعهم على دراسة أجزائه

سمنار التاريخ الحديث:

منذ عام ١٩٥٥ أقام حلقات دراسية نقاشية، وهو ما أطلق عليه اسم «سمنار التاريخ الحديث» في بيته أولًا، وعندما كثر عدد رواده نقل إلى كلية الآداب جامعة عين شمس، حيث يعقد مساء كل خميس.

وفي هذا السمنار كان يتابع مدى تقدم طلبته في بحوثهم، ومحاولة تذليل العقبات التي تعترض طريقهم. كذلك كان يطرح للنقاش الكتب الحديثة التي صدرت في التاريخ الحديث والمعاصر من كبار المؤرخين وذلك ليلم طلبته بآخر ما وصل إليه العلم من تقدم، وكنتُ أواظب على حضور هذا السمنار كلما أتيحت لى فرصة الوجود بالقاهرة.

مؤلفاته:

- تاريخ التعليم في مصر في عصر محمد علي ١٩٣٨.

- تاريخ التعليم في عصر خلفاء محمد علي ١٩٤٥.
- البندقية جمهورية أرستقراطية ترجمة ١٩٤٨.
- المجمل في تاريخ مصر. ألفه مع آخرين.
- دراسات في التاريخ العربي الحديث ١٩٧٠.
- التنظيم الإداري بسوريا في العصر العثماني (حوليات كلية الآداب) .
- التغير الاجتماعي لمجتمع القاهرة في القرن التاسع عشر.
- أزمة الفكر العربي في مطلع العصر الحديث.

المؤتمرات التي اشترك فيها:

- مؤتمر التاريخ والآثار في المغرب عام ١٩٥٨.
- مؤتمر التاريخ الأسيوي في الهند عام ١٩٦١.
- مؤتمر التاريخ الدولي في بغداد.
- بالإضافة إلى المؤتمرات والندوات التي ينظمها سـمنار كلية الآداب بجامعة عين شمس بصفة دورية.

الإعارات:

- عمل أستاذًا بجامعة دمشق .
- أستاذ بجامعة بنغازي بليبيا ١٩٦٠-١٩٦١.
- أستاذ بجامعة بيروت العربية ١٩٦١-١٩٧٠.

الهيئات العلمية التي عمل بها:

أسهم سيادته في العديد من الهيئات العلمية وهي:

- مقرر للجنة العلمية الدائمة لتعيين أساتذة التاريخ الحديث في الجامعات المصرية.

- عضو بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.
- رئيسًا للجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- رئيسًا القسم القومية العربية بمعهد البحوث والدراسات العربية.
- مديرًا لمركز دراسات الشرق الأوسط.

تلاميذه:

من أشهر هؤلاء التلاميذ الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم، وقد تخصص في منطقة الخليج، وله العديد من المؤلفات منها:

- تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ٥ أجزاء، دار الفكر العربي، ١٩٩٦.
- دولة البوسعيد في عمان وشرق أفريقيا (١٨٤١-١٨٦١) القاهرة ١٩٦٨.
- دراسة لتاريخ الإمارات العربية المتحدة (١٨٤٠-١٩١٤) .
- دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٩١٤-١٩٤٥) القاهرة ١٩٧٣.

ومن تلاميذه أيضًا الأستاذ الدكتور عبد العزيز سليمان نوار، وقد تخصص في تاريخ العراق، وأهم مؤلفاته:

- تاريخ العراق الحديث منذ نهاية حكم داوود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، ١٩٦٨.
- المصالح البريطانية في أنهار العراق، القاهرة، ١٩٦٨.

وكذلك من تلاميذه الأستاذ الدكتور عبد الله محمد عزباوي، وأهم مؤلفاته :

- المؤرخون والعلماء في مصر في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٩١.
- الشوام في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، القاهرة، ١٩٨٦.

الجوائز والأوسمة:

نال وسام الاستحقاق السوري عام ١٩٤٨، وجائزة الدولة في العلوم الاجتماعية من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عام ١٩٧٥، ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى من الحكومة المصرية عام ١٩٧٥. وظل يؤدي عمله بجدية وإخلاص رغم تدهور حالته الصحية، وضعف بصره، إلا أن ذاكرته ظلت قوية وقادة حتى آخر لحظة من حياته.

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خيرًا عما قدمه لوطنه والأمة العربية من خدمات.

٢- الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صفوت

(١٩١١-١٩٦٠)

إذا ما ذكر تلاميذ الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال، لا يذكر اسم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صفوت من ضمنهم؛ وذلك لأنه حصل على درجة الدكتوراه من المملكة المتحدة عام ١٩٣٩. والحقيقة أن الدكتور صفوت قد التحق بكلية الآداب جامعة الملك فؤاد الأول (القاهرة حاليا) في عام ١٩٣٠، ودرس التاريخ الحديث على يدي الأستاذ غربال، وتخرج من الكلية عام ١٩٣٣، وكان ترتيبه الأول على دفعته بتقدير ممتاز. وفي عام ١٩٣٥ حصل على دبلوم معهد التربية العالي، وكان ترتيبه الأول بتقدير ممتاز.

أرسل في بعثه إلى المملكة المتحدة بتعضيد من أستاذه للتخصص في التاريخ الحديث، ونال في عام ١٩٣٧ درجة الماجستير من جامعة ليفربول ودرجة الدكتوراه تحت إشراف الأستاذ «سيتون واطسون» Seton Watson من جامعة لندن في عام ١٩٣٩، وكان عنوانها

Tunis and the Great Power 1878-1881 P.F. Baganis, Alex, 1943.

وفي خلال تلك الفترة قام بدراسات وبحوث في دور الوثائق بلندن، وباريس، وبرلين، وفيينا، وفي معهد الدراسات التاريخية بلندن، وعندما عاد إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، حصل على الدرجة الخامسة في يوليو ١٩٣٧، ورُقِّي إلى الدرجة الرابعة (مدرس أ) في يوليو ١٩٤٢. ولما انشئت جامعة فاروق الأول (الإسكندرية حاليًا) نقل إلى كلية الآداب بها، ورقي إلى أستاذ مساعد، وفي

أول أغسطس ١٩٥٠، ثم إلى درجة أستاذ كرسي التاريخ الحديث في عام ١٩٥٥.

ورغم قصر عمره ـ فقد توفى في عام ١٩٦٠ قبل أن يتم الخمسين ـ فله الكثير من المؤلفات القيمة، ومن باكورة إنتاجه العلمي بحث «التاريخ، أهميته وطرق تدريسه»، ونشر في مجلة العلوم التي تصدرها جمعية المعلمين بالقاهرة عام ١٩٤٢، وفي العام نفسه نشر بحثًا عن «مصر المعاصرة١٨٧٩-١٩٣٧ »، وهو عبارة عن فصل من كتاب « المجمل في التاريخ المصري ». كما نشر له بحث في مجلة كلية الآداب- جامعة الملك فاروق الأول بالإنجليزية عنوانه:

British- Italian Relation in 1878. ، وذلك في عددها الصادر عام ١٩٤٣. ونظرًا لاهتمامه بتاريخ تونس فقد نشر بحثًا بالإنجليزية عن:

A British Consul General in Tunis Richard Wood 1856-1879.

كما اهتم بالتاريخ العثماني فأصدر كتاب « السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية » أوضح فيه نهاية الدولة البيزنطية، وكيف أن هذا الحادث الجلل قد هز كيان الدول الأوروبية. فضلًا عن فتوحاته الأخرى بالبندقية وجنوه وشبه الجزيرة الإيطالية، وتوسعه في المجر ,البوسنة والهرسك وبلاد الأغريق.

ثم اتجه بدراساته نحو مصر الحديثة والمعاصرة، فكتب كتابه القيم عن « الاحتلال الإنجليزي لمصر، وموقف الدول الكبرى إزاءه » عام ١٩٥٢، معتمدا اعتمادا أساسيا على الوثائق الإنجليزية والفرنسية والألمانية.

وفي عام ١٩٥١ قامت الجمعية الملكية للدراسات التاريخية بنشر كتابه الثاني عن مصر وهو « إنجلترا وقناة السويس ١٨٥٤-١٩٥١ » وفي عام ١٩٥٦ أعاد طبعه مُهديًا إياه إلى أستاذه الكبير محمد شفيق غربال، مضيفًا إليه أحداث الفترة من ١٩٥١-١٩٥٦، حيث أممت مصر قناة السويس. وأوضح سيادته بأن بريطانيا منذ أن نجحت في شراء أسهم الخديو إسماعيل في القناة عام ١٨٧٥، وهي تخطط للاستيلاء عليها إلى أن تحقق لها ذلك في عام ١٨٨٢، وبذلك تسيطر وحدها على مصر والقناة. ولكي ترضي الدول الأوروبية الكبرى، عقدت معها معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨،

أعلنت فيها حرية الملاحة في القناة لجميع الدول على السواء في وقت السلم والحرب.

كما نشر في عام ١٩٥٧ كتابه عن «مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره في البلاد العربية» وهو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدراسات التاريخية بمعهد الدراسات العربية العالية، التابع لجامعة الدول العربية، وأوضح فيه سيطرة النفوذ الألماني على أوروبا، وسياستها في تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية، وأثر تلك السياسة على النشاط الاستعماري وقتئذ.

وألحقه في العام التالي ١٩٥٨ بكتاب « المسألة الشرقية ومؤتمر باريس» وهو أيضا مجموعة محاضرات ألقيت على طلبة معهد الدراسات العربية ويتعلق بحرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦ التي حدثت بين الدولة العثمانية وروسيا، والتدخل الإنجليزي لمساندة الدولة العربية، وهو ما أتاح للدولة العثمانية الاحتفاظ بممتلكاتها حتى قيام الحرب التركية الروسية ١٨٧٧/١٨٧٨، وعقد مؤتمر برلين.

وعندما تمت الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، وتأسست الجمهورية العربية المتحدة، وأصدر كتاب « الجمهورية الحديثة »، تناول فيه نشأة الجمهوريات في العصر الحديث، مثل الجمهورية الفرنسية، وجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية، والجمهوريات الأوروبية والأسيوية والأفريقية، والجمهورية المصرية، والجمهورية العربية المتحدة.

الرسائل العلمية:

أشرف الأستاذ الدكتور صفوت على الكثير من طلاب الماجستير والدكتوراه، وكنت أحدهم حيث أشرف على رسالة الماجستير وعنوانها « الجيش المصري في عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩ » وحصلتُ عليها بمرتبة الشرف عام ١٩٥١، وكذلك أشرف على رسالة الدكتوراه وموضوعها « تاريخ مصر السياسي والحربي ١٨٦٣-١٨٧٩» وحصلت عليها عام ١٩٥٥ بمرتبة الشرف الأولى. وكما أشرت من قبل ناقشني في الرسالتين الأستاذ محمد شفيق غربال، والأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن علاقتي بأستاذي كانت علاقة حميمة، فهو لم يكن مشرفًا علي ومرشدي، بل كان صديقي أيضًا، وكنت ساعده الأيمن في النواحي العلمية، إذ لم يكن بفرع

التاريخ الحديث سوانا نحن الاثنين رغم كثرة عدد المواد، ومن ثم كان العبء الأكبر في التدريس يقع على كتفي.

ونظرًا للتعاون الوثيق بيننا فكان يطلب مني أن أجلس على مقعد بحجرته طوال فترة العمل، لأكون قريبًا منه لإنجاز ما يريد، ولما وجد أن جلوسي بحجرته يحرمني من استخدام مكتبي الموجود بحجرة المدرسين، أمر بنقله إلى حجرته، فأحدث هذا نوعًا من التذمر لدى أساتذه الفروع الأخرى؛ لأن هذا سيشجع المدرسين الآخرين على أن يطلبوا معاملتهم بالمثل. وفاتحوا أستاذي في هذا الأمر، فرد عليهم برد جميل أوضح فيه أن ما تم هو لصالح العمل، ولراحتنا نحن الاثنين، وليس في هذا العمل اعتداء على أحد، وكل إنسان حر في حجرته.

وكان رحمه الله دمث الخلق، أنيقًا في ملبسه، مخلصًا لعمله، عطوفًا على تلاميذه، محبًّا للخير، وأسكنه الله فسيح جناته، وجزاه على ما قدمه للعلم ولوطنه من خدمات.

الأستاذ الدكتور محمد محمود السروجي

ولدتُ بالإسكندرية وتلقيت تعليمي الابتدائي والثانوي والجامعي بها، والتحقت بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول (الإسكندرية حاليا) عندما أنشئت عام ١٩٤٢، وحصلت على الليسانس من قسم التاريخ عام ١٩٤٦، وكان ترتيبي الأول على دفعتي بتقدير ممتاز (نظام الامتياز) وذلك أثناء عملي لوظيفتي.

حصلت على الماجستير بمرتبة الشرف الأول عام ١٩٥١، وعلى شهادة الدكتوراه من الكلية نفسها عام ١٩٥٥ بمرتبة الشرف الأولى تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صفوت. ومن حسن حظي أن ناقشني في الرسالتين الأستاذان محمد شفيق غربال، والأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، أي إنني أصبحت تلميذًا للأساتذه الثلاثة الكبار في الوقت نفسه.

والحقيقة أن صلتي لم تنقطع بالأستاذين الكبيرين منذ مناقشة رسالة الماجستير، وكنت على اتصال دائم بهما، واستفدت من توجيهاتهما في الإعداد لرسالة الدكتوراه الشيء الكثير.

التدرج الوظيفي:

- أمين مكتبة كلية الآداب جامعة فاروق الأول (الإسكندرية حاليا) عام ١٩٤٨.
- مدرس مساعد بالكلية نفسها عام ١٩٥١.
- مدرس بقسم التاريخ بالكلية عام ١٩٥٥.
- أستاذ مساعد بالقسم في أوائل عام ١٩٦٢.
- أستاذ كرسي التاريخ الحديث والمعاصر بالكلية إلى أن أحلت على المعاش.

المهام العلمية:

كلفت من الكلية بمهمة جمع الوثائق والمخطوطات بدير سانت كاترين في أواخر عام ١٩٦٣، بالاشتراك مع جامعتي برنستون Princeton ومتشجان Michigan بالولايات المتحدة الأمريكية.

وفي عام ١٩٧٥ قمت بزيارة العراق بدعوة من اتحاد المؤرخين العرب للتعرف على نظم الدراسة بالجامعات العراقية، وإلقاء بعض المحاضرات بها، وفي ١٩٧٦ زرت المملكة العربية السعودية بدعوة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وذلك لوضع لائحة للدراسات العليا، واقتراح المناهج الدراسية.

الإعارات:

أُعِرتُ أستاذًا للتاريخ الحديث والمعاصرة لمدة عامين (١٩٧٠-١٩٧٢) لجامعة بنغازي بليبيا. وفي عام ١٩٧٦ أعرت لكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للتدريس لطلبة الدراسات العليا والإشراف على الرسائل (الماجستير والدكتوراه) واستمرت الإعارة أحد عشر عامًا.

لجان الترقيات:

كنت عضوًا بلجنتي ترقيات الأساتذة والأساتذة المساعدين قبل إعارتي للسعودية وخلال

فترة الإعارة اشتركت في ترقية عدد كبير بالسعودية، وبجامعة بغداد والمستنصرية والموصل بالعراق، وجامعة الأردن والكويت، ومازالت هذه الجامعات تستعين بي حتى يومنا هذا.

الرسائل العلمية:

أشرفت على عدد كبير من طلبة الماجستير والدكتوراه داخل مصر وخارجها. كما وصل مجموع عدد الرسائل التي أشرفت عليها، والتي ناقشتها على المستوى المصري والعربي ما يربو على المئتي رسالة.

عضوية الجمعيات العلمية:

- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب منذ نشأته في العراق.
- عضو بالمركز القومي للدراسات النابليونية وتاريخ جزيرة ألبا بإيطاليا.

Centro Nationali Di Studi Napoleonici E Di Storia D'ell Elba.

- عضو بجمعية الآثار بالإسكندرية.
- عضو بجمعية الآثار بالقاهرة.
- عضو لجنة مستشاري الاقتناء بمكتبة الإسكندرية الجديدة.

شهادات التقدير:

- شهادة تقدير بمناسبة الاحتفال باليوبيل الذهبي بكلية الآداب جامعة الإسكندرية عام ١٩٩٢.
- شهادة تقدير من اتحاد المؤرخين العرب ببغداد عام ١٩٩٦.
- شهادة العضوية الشرفية لجمعية المؤرخين المغاربة عام ١٩٩٩.
- ميدالية ذهبية بمناسبة مساهمتي في مؤتمر «المملكة العربية السعودية» في مائة عام، الرياض ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩

- درع اتحاد المؤرخين العرب بمناسبة احتفالية تكريم شوامخ المؤرخين ٢٠٠٩.

المؤلفات:

تسعة عشر (١٩) كتابًا، والاشتراك في موسوعة المرجع في تاريخ الأمة العربية، الجزء السادس، ببحث عن "الأوضاع العسكرية: بدايات قيام الجيوش الوطنية وآثارها في تدعيم نظام الدولة الحديثة"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس ١٩٩٧.

الكتب التذكارية:

- كتاب تذكاري لتكريم المؤرخ التركي المعاصر خليل الساحلي أوغلو، مؤسسة التميمي، تونس ١٩٩٧.

- كتاب تذكاري لتكريم المؤرخ الفرنسي المعاصر أندريه ريمون، مؤسسة التميمي، تونس، ٢٠٠٤.

- كتاب تذكاري في عدد خاص من مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، لتخليد ذكرى الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم، ٢٠٠٨.

- كتاب تذكاري في عدد خاص من مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، لتخليد ذكرى الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، ٢٠٠٨.

البحوث المنشورة بالدوريات العلمية:

عدد هذه البحوث سبعة عشر (١٧) بحثًا في مختلف موضوعات التاريخ الحديث والمعاصر.

الندوات والمؤتمرات:

أشتركت في ست وسبعين (٧٦) ندوة ومؤتمر، قدمت فيها تسعة وأربعين (٤٩) بحثًا في مختلف موضوعات التاريخ الحديث والمعاصر، منها ثلاثة بحوث بالدول الأوروبية: البحث الأول في جزيرة إلبا بإيطاليا عام ١٩٦٩، والثاني ببلدة Spa ببلجيكا في المدة من ١٦-١٩ سبتمبر ١٩٧١، والثالث بمدينة غرناطة بإسبانيا من ٩-١٣ ديسمبر ٢٠٠٣.

علاقتي بالأستاذ الكبير محمد شفيق غربال:

سبق أن نوهت بأن الأستاذ الكبير ناقشني في رسالة الماجستير عام ١٩٥١ وعنوانها "الجيش المصري في عصر الخديو إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩"، وفي رسالة الدكتوراه عام ١٩٥٥ وعنوانها "تاريخ مصر السياسي والحربي ١٨٦٣-١٨٧٩"، وقد أبدى إعجابه الشديد بهما.

وقد شجعني مالقيته من إعجاب وتشجيع في مناقشة الماجستير أن أواصل التقرب منه، وأن أزوره في بيته للاستفادة من المكتبة القيمة التي يقتنيها، واستمرت هذه العلاقة الطيبة إلى أن لقى ربه في ١٩ أكتوبر ١٩٦١.

وفي عام ١٩٦٠ توفى أستاذي الدكتور محمد مصطفى صفوت فجأة بعد وعكة صحية استمرت أيام، ففقدت بموته سندًا قويًا، إذ لم يكن رحمه الله أستاذًا ومرشدًا فحسب لي، وإنما كان صديقًا وفيًا، قلما نفترق عن بعضنا. وترتب على ذلك أن وقع عبء تدريس مواد التاريخ الحديث على عاتقي وحدي، وفي هذه السنة نشرت أول كتاب لي وهو « العلاقات بين مصر وأثيوبيا في القرن التاسع عشر » بعد وفاة أستاذي الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صفوت، فطلبت من الأستاذ غربال أن يتكرم بكتابة المقدمة له. فرحب بذلك .

اتجه نظري إلى الاستعانة بأستاذي الكبير محمد شفيق غربال لمعاونتي في التدريس، ولا سيما وأنا أعرف مدى حبه للإسكندرية التي نشأ بها. والحقيقة أن استعانتي به لم يكن لعدم مقدرتي على تدريس المادة التي اختارها، ولكن لأملأ الفراغ النفسي الذي تركه وفاة أستاذي ، رحب الأستاذ غربال بذلك، وحدد يومًا معيّنًا للتدريس في الصباح، وقد اعتاد على النزول بفندق بوريفاج برمل الإسكندرية، وفي حجرة معينة. واعتاد سيادته على الاتصال بي تليفونيًا عند وصوله الفندق للحضور، حيث نجلس في حديقة الفندق نتجاذب أطراف الحديث إلى أن يحين موعد نومه، وكثيرًا ما كان يستحضر معه إحدى المجلات العلمية الإنجليزية، ويطلب مني الاطلاع على بحث منشور بها لأحد المؤرخين الأجانب، على أن نتناقش فيما ورد به من آراء في الأسبوع القادم. وكان يهدف من وراء ذلك – على ما أعتقد- إلمامي بمدى التقدم العلمي في مجال التاريخ الحديث

في الدول الأوروبية، ولعلمه بعدم قدرتي على شراء تلك الدوريات أو الحصول عليها.

ولقد وجدت في سيادته نعم العون عن فقد أستاذي، لا سيما وأنه حباني من الرعاية والعطف الشيء الكثير.

لم يطل به الأجل إذ توفى في ١٩ أكتوبر ١٩٦١، وقد انتدبتني كليتي لتشـييع جنازته إلى مثواها الأخير، حيث دفن بمقابر أسرته بالعامود بالإسكندرية.

رحم الله الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال رحمة واسعة جزاء ما قدمه للعلم من خدمات.



لماذا شَفِيق غُرْبال
من شَوَامخ المؤرخين؟

ا. د. رأفت غنيمي الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

مُقَدِّمة :

خيرًا أحسـنت الجمعية المصرية للدراسـات التاريخية بتخصيص ندوة عن المؤرخ محمد شـفيق غربـال، حيث إن تذكر شـوامخ المؤرخـين المصريين من جانب أهم مؤسسـة علمية ترعى تاريخ مصر وعلاقاتها العالمية يمثل جهدًا كبيرًا مشكورًا، كما أنه كان مطلوبًا.

ومـن ثم جـاء اختياري لورقة العمل التى أتقـدم بها للندوة بعنوان: لماذا شـفيق غربال من شـوامخ المؤرخين، بتسـجيل حياته العلمية بوصفه مؤسس للجمعية التاريخية المصرية، وعضوًا بمجمع الخالدين (مجمع اللغة العربية) .

وبالمناسبة فإنني أقترح أن تصدر الجمعية موسوعة بعنوان: «المؤرخ مصري» يشترك فيها جميع المتخصصين في التاريخ القديم والإسـلامي والوسـيط والحديث والمعاصر لترجمة حياة الأعلام والشـوامخ من المؤرخين القدامى والمحدثين، بما يسـمح لشباب المؤرخين الاستفادة من جهود الشوامخ من مؤرخي مصر.

ورؤيتي في إصدار هذه الموسوعة تتمثل في الأمور الآتية:

١- ريادة المؤرخين المصريين في الدراسات التاريخية على المستوى المحلي والعربي والدولي.

٢- إبـراز الدور الوطني للمؤرخ المـصري الذي لا يوجد من يباريه في الوطنية والإنتاج العلمي المتميز.

٣- إثبـات أن المـؤرخ المصري وطني لحمًا ودمًا وفكرًا وإنتاجًـا ومكانة عربية وعالمية، كما أنه ضمن المنظومة العربية التى تمثل مصر قلبها وعقلها.

٤- أن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التى تضم كبار أساتذة التاريخ المصري المعاصرين وشباب المؤرخين ـ امتداد للرواد والأساتذة ومقرها مدينة القاهرة عاصمة جمهورية مصر العربية.

٥- أن اتحاد المؤرخين العرب مقره مدينة القاهرة، تأكيدًا على مكانة شوامخ المؤرخين المصريين

عـبر العصور التاريخيـة، وفي كل تخصصات المؤرخين، والاتحاد يمثـل عقل وفكر مؤرخي الأمة العربية، وفي مقدمتهم المؤرخين المصريين.

وهكـذا تجيء ندوة شـفيق غربال تأكيـدًا لأصالة الجمعية المصرية للدراسـات التاريخية على أمل الاستمرار في هذا النهج العلمي الوطني.

لماذا غربال من الشوامخ؟

أولًا- نشأته وتربيته والتعليم الذي تربى فيه:

ولد محمد شـفيق غربال بمدينة الإسـكندرية في ٤ يناير عام ١٨٩٤م، في حي يحمل اسم عائلته (حي غربال) ، وكانت أسرته من أثرياء الثغر بما يمتلكون من زراعات وبما يمارسون من تجارة، وقد هيأت له الأسرة الإعداد المتميز سواء في التعليم بمصر أو خارج مصر.

التحق محمد شـفيق غربال بالمدرسـة الابتدائية بحي غربال، ثم التحق بمدرسـة رأس التين الثانوية حيث حصل على شهادة التوجيهية (الثانوية العامة) عام ١٩١٢م، وبعدها التحق بمدرسة المعلمـين العليا بالقاهـرة وتخرج منها عام ١٩١٥م، وكان محمد شـفيق غربال مغرمًا بقراءة كتب التاريخ، حيث قرأ كتاب: وفيات الأعيان كاملًا لابن خلكان وهو تلميذ بالمدرسة الثانوية.

ورغم سـنوات المعارك الحربية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٩م) ، فقد وافق على السفر إلى بريطانيـا في بعثة رسـمية للحصول على درجة الليسـانس (البكالوريوس) في التاريخ الحديث بجامعـة ليفـربـول Liverpool حيـث درس إلى جانـب التاريخ علـوم: الاقتصاد، الفلسـفة، الجغرافيا، ومناهج البحث وطريقة قراءة الوثائق واستخراج الحقائق التاريخية منها.

التعليم الذي تربى فيه شفيق غربال:

يتأثـر التعليـم في أي بـلد بالأحوال السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعية في البـلد، ومن ثم فإننـا عند مناقشـة إنجازات التعليـم في عهد كل من الخديو محمد توفيـق والخديو عباس حلمي الثاني لابد من اسـتعراض – في عجالة – الأوضاع الاقتصادية والسياسـية والاجتماعية في ظل

الاحتلال البريطاني لمصر من ١٨٨٢-١٩١٤م.

ففي المجال الاقتصادي سيطر الأجانب على هيكل الاقتصاد المصري، كما انتعشت الرأسمالية المصرية المتمثلة في بعض المصريين والمتمصرين، إلى جانب التخلف الاقتصادي المتمثل في التخصص الزراعي أي الاعتماد على محصول واحد هو القطن، وانتشار البطالة وانخفاض مستوى المعيشة وتأخر الحرف والصناعات القائمة.

وفي المجال السياسي كان الصراع قائمًا على النفوذ السياسي في البلاد بين سلطات الاحتلال بزعامة اللورد كرومر المعتمد البريطاني، وبين السراي مقر الخديو، وبين الأحزاب السياسية التى بدأت في أوائل القرن العشرين وأهمها الحزب الوطني وحزب الأمة وحزب الإصلاح وغيرها.

وفي المجال الاجتماعي كان المجتمع المصري يتكون من كبار الملاك الزراعيين، ومن الفلاحين والعمال الحرفيين الذين يمثلون سواد الشعب المصري، ومن المثقفين في الطلاب والموظفين والعسكريين وأصحاب المهن الحرة، ومن الطوائف غير المصرية المتمثلين في الأوروبيين والأتراك والأرمن والشوام.

ورغم أن سياسة الاحتلال التعليمية اتسمت بالعمل على تقليص التنمية التعليمية بالتقليل من عدد المدارس والمعلمين، إلا أن الفرص التعليمية التى أتاحتها سلطات الاحتلال أمام المصريين استخدمت أداة للقهر السياسي بتربية الشباب على النفاق والخنوع والخوف من خلال وجود مستشار إنجليزي لوزارة المعارف المصرية ينفذ هذه السياسية. كما قامت سياسة الاحتلال التعليمية في مصر على استخدم التعليم أداة للجمود الاجتماعي من خلال تقليل الإنفاق على التعليم وفرض المصروفات على طلاب التعليم، والتشدد في أعمال الامتحانات. كما أن التعليم في عهد الاحتلال استُخدام أداة للتخريب الثقافي بمحاربة اللغة العربية وفرض تعلم اللغة الإنجليزية، وتشجيع النشاط التربوي الأجنبي من خلال المدارس الأجنبية للأوروبيين والأمريكيين واليهود[1].

أقول رغم هذه السياسة التعليمية الموجهة لسلطات الاحتلال البريطاني في مصر فقد كانت

(١) سعد مرسي وسعيد إسماعيل: تاريخ التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٧٢، ص٤٢٤-٤٧٦.

هناك جهود وطنية مصرية لمواجهة هذه السياسة تمثل إنجازًا حضاريًا لمصر تمثل في الآتي:

أ- اهتمام الحركة الوطنية المصرية بتعليم أبناء الشعب لزيادة الوعي بالقضية الوطنية المتمثلة في جلاء الإنجليز عن الأرض المصرية ورفع الأيدي الأجنبية المتسلطة على أمور مصر السياسية والاقتصادية. فكانت سياسة مصطفى كامل ومحمد فريد والحزب الوطني الدعوة لإنشاء مدارس ليلية لتعليم العمال والفلاحين واهتمام أعضاء الجمعية العمومية بضرورة إشراف الحكومة على التعليم النهوض به.

وقد تمثلت الجهود الوطنية في التعليم من خلال الجمعيات الخيرية الإسلامية، والقبطية التى اهتمت بنشر التعليم، مثل الجمعية الخيرية الإسلامية التى تأسست بالقاهرة عام ١٨٩٢م وجمعية العروة الوثقى الخيرية الإسلامية بالإسكندرية والتى تأسست أيضًا ١٨٩٢م. ومثل جمعية المساعي الخيرية وهي أول جمعية خيرية مسيحية أسست في مصر عام ١٨٩١م، وجمعية الإيمان القبطية عام ١٨٩٩م، وجمعية المحبة بالظاهر وأنشأت عام ١٩٠١م، وجمعية ثمرة التوفيق بالفجالة وتأسست عام ١٩٠٨م[١].

ب - إنشاء الجامعة الأهلية:

يمكن التأريخ لفكرة إنشاء جامعة أهلية مصرية منذ عام ١٩٠٠م عندما دعا مصطفى كمال بإنشاء مدرسة جامعة وتتكون من المراحل الثلاث الأولى والوسطى والعليا، وعاود مصطفى كامل الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية أعوام ١٩٠٤، ١٩٠٥م وعام ١٩٠٦ من خلال كتاباته وأحاديثه، وكما دعت جريدة المؤيد في مقال نشر عام ١٩٠٦م إلى تأييد فكرة إنشاء الجامعة المصرية، كما شاركت عدة صحف أخرى في تأييد الفكرة.

وبدأت خطوات تأيد الفكرة بالدعوة إلى التبرع لصالح إنشاء الجامعة، وكان أول المتبرعين مصطفى بك كامل الغمرواي أحد أغنياء بني سويف الذي تبرع من تلقاء نفسه بمبلغ خمسمائة جنيه، ثم اتفق المؤيدون للفكرة على الاجتماع في منزل سعد زغلول بك المستشار في محكمة

(١) جرجس سلامة: أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القوي في مصر ١٨٨٢-١٩٢٢م، القاهرة ١٩٦٦، ص٤٠٠-٤١٤.

الاستئناف الأهلية يوم ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ ونشروا في الصحف الدعوة للاجتماع وقد تقرر في الاجتماع ما يلي:

١- إنشاء لجنة تحضيرية من كل من: سعد زغلول بك وكيلًا للرئيس العام، وقاسم أمين بك سكرتير اللجنة، وحسن سعيد بك أمينًا للصندوق. وعضوية كلًا من: عثمان أباظة، ومحمد راسم بك، وحسن جمجوم بك، وحسن السويفي بك، وأخنوخ أفندي فانوس، وزكريا أفندي نامق، ومحمود الشيشيني بك، ومصطفى كامل الغمراوي بك.

٢- تأجيل انتخاب الرئيس العام إلى الجلسة القادمة.

٣- نشر الدعوة في جميع الصحف المحلية عربية وإفرنجية.

٤- تسمى هذه الجامعة "الجامعة المصرية".

٥- الاجتماع مرة أخرى بدعوة خصوصية لانتخاب الرئيس وأعضاء اللجنة النهائية.

٦- دعوة أبناء الشعب المصري لتأييد الفكرة وتدعيمها ماديًا ومعنوياً.

وعندما عُيِّن سعد زغلول ناظرًا للمعارف انسحب من عضوية اللجنة وحل محله قاسم أمين بك، وقبل الخديو عباس حلمي الثاني وجعل اللجنة تحت رعايته وجعل ولي عهده رئيس شرف لها، وبذلك أعلن الأمير أحمد فؤاد رئيسًا للجامعة في جلسة ٣١ يناير ١٩٠٨م. وقد احتفل رسميًا بافتتاح الجامعة المصرية في القاعة الكبرى بمجلس شورى القوانين بحضور الخديو عباس الثاني في ٣١ ديسمبر عام ١٩٠٨، وعاشت الجامعة من البداية على تبرعات أفراد الشعب واعتمدت في المحاضرات على طائفة من الأساتذة المصريين والأجانب واستقرت حينئذ في دار "جاناكليس" وكانت الحكومة تقدم معونة للجامعة، وأرسلت الجامعة بعثات إلى أوروبا.

وقد اعترفت الحكومة بالجامعة المصرية، وبادر حسين رشدي باشا أحد أعضاء الجامعة بتقدير إعانة سنوية من وزارة الأوقاف قدرها خمسة آلاف جنيه كل سنة ابتداء من عام ١٩٠٨م. وكان اعتراف الحكومة بالجامعة قد جاء في خطاب من مصطفى فهمي باشا ناظر الداخلية إلى

الأمير أحمد فؤاد باشا رئيس مجلس إدارة الجامعة بتاريخ ١٦ يونيو عام ١٩٠٨م[١].

وقد تبرعت الأميرة فاطمة إسماعيل بمساحة من الأرض بنيت عليها كلية الآداب بالجامعة المصرية كما تبرع آخر هو حسن بك زايد بخمسين فدان وقفها للجامعة، وتم ضم بعض المدارس العليا إلى الجامعة بعد أن صارت جامعة حكومية لتكون بعض كلياتها، ثم افتتاح الجامعة المصرية كجامعة حكومية في عام ١٩٢٥م[٢] ووُضع حجر الأساس للمدينة الجامعية ومساكن الطلاب بيد الملك فاروق الأول بتاريخ ١١ فبراير ١٩٤٦م. وهي الآن جامعة القاهرة بعد أن كانت جامعة فؤاد الأول، حيث تغير الاسم بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

ذلك كان نظام التعليم الذي تربى فيه محمد شفيق غربال، ثم كان طموحه لاستكمال تعليمه

وفي عام ١٩١٩م حصل محمد شفيق غربال على درجة البكالوريوس الممتازة بمرتبة الشرف في التاريخ الحديث، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل واصل دراسته للحصول على درجة الماجستير في التاريخ الحديث من جامعة لندن بإشراف العالم والمؤرخ البريطاني الشهير آرنولد توينبي Arnold Toynbee وقد أجازه المشرف بعد أن انتهى من إعداد رسالته للحصول على درجة الماجستير في التاريخ الحديث بعنوان: مصر بين عهدين، بداية القضية المصرية، وظهور محمد علي.

حصل محمد شفيق غربال على الماجستير عام ١٩٢٤م بإشراف المؤرخ العالمي آرنولد توينبي[٣]، وكانت هذه الدرجة الجامعية حدثًا علميًا استرعى أنظار الأساتذة والباحثين، خاصة وأنها اعتمدت على الوثائق الأوروبية، غير المنشورة، وكان هذا الأمر جديدًا في تاريخ الدراسات التاريخية في مصر، كما أن الرسالة اتسمت بالتحليل والموضوعية واستقراء الأحداث.

---

(١) جرجس سلامة، المرجع السابق، ص٤١٥-٤٢٥.

(٢) سعد مرسي وسعيد إسماعيل: المرجع السابق، ص٤٨٠.

(٣) المؤرخ البريطاني العالمي الموسوعي آرنولد توينبي المشهور بمؤلفاته وأهمها مؤلفه المكون من ١٠ مجلدات بعنوان دراسة للتاريخ A study Of History كما كانت مواقفه الموضوعية في قضايا العالم مثل النازية، ومذابح اليهود للعرب في فلسطين. ونضيف أفكار توينبي ومنهجه في دراسة التاريخ باعتباره أستاذًا لشفيق غربال الذي تأثر بها في إعداده كأستاذ في جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ..

ثانيًا - وظائفه:

كانت أول وظيفة تقلدها محمد شفيق غربال بعد عودته من بريطانيا حاملًا درجة البكالوريوس في التاريخ الحديث عام ١٩٢٥م هي وظيفة مدرس للتاريخ بكلية المعلمين العليا - الكلية التى تخرج منها قبل بعثته إلى بريطانيا - ثم نقل إلى وظيفة أستاذ مساعد للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول) عام ١٩٢٩م.

وبهذا كان محمد شفيق غربال أول مصري يقوم بتدريس التاريخ في الجامعة المصرية، حيث كان الأجانب يحتلون معظم كراسي التدريس بالجامعة، وعندما تم الاستغناء عن المؤرخ البريطاين جرانت Grant عام ١٩٣٦م تم ترقية محمد شفيق غربال أستاذًا للتاريخ الحديث؛ وبذلك كان محمد شفيق غربال أول مصري يتولى كرسي الأستاذية في قسم التاريخ بكلية الآداب، وفي عام ١٩٣٩م تم تعيين محمد شفيق غربال وكيلًا لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ثم انتخب عميدًا لها.

وبسبب عدم الاستقرار في وزارة المعارف العمومية (وكانت الجامعة تخضع لإشرافها) خاصة أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) نُقل محمد شفيق غربال للعمل مستشارًا فنيًا لوزارة المعارف العمومية عام ١٩٤٠م مع استمراره في إلقاء المحاضرات على طلاب كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، حتى تم تعيينه وكيلًا مساعدًا لوزارة المعارف العمومية، واستمر يجمع بين العملين حتى عام ١٩٤٢م.

وعندما عاد للعمل كأستاذ بجامعة فؤاد الأول تاركًا وظيفته التى نقل إليها في وزارة المعارف العمومية في ديسمبر ١٩٤٢م، شعر بأنه عاد إلى مكانه الطبيعي فأعطى كلية الآداب كل جهده، وتابع تلاميذه ومكنهم من البحث العلمي، وبعد ثلاث سنوات أعيد نقل محمد شفيق غربال إلى وزارة المعارف العمومية مستشارًا فنيًّا لها، ثم وكيلًا للوزارة إلى جانب تعيينه أستاذًا غير متفرغ بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٩م.

وبعد بلوغ محمد شفيق غربال سن التقاعد تولى منصب مدير معهد البحوث والدراسات

العربية التابع لجامعة الدول العربية، وفي عهد إدارته للمعهد أخرج المعهد عددًا من الدراسات العلمية القيمة في الأدب والتاريخ والاقتصاد والسياسة وعمل على توجيه الطلاب المصريين والعرب الملتحقين بالمعهد إلى تاريخ الأمة العربية الحديث والمعاصر وأشرف على عدد من رسائلهم التى اتخذت هذا الاتجاه.

تأثر محمد شفيق غربال بالظروف المعاصرة وآرنولد توينبي :

عاش أرنولد توينبي من ١٨٨٩ إلى ١٩٧٣م أي أنه شهد تطورات خطيرة في العالم في تلك الفترة فقد جاء إلى الحياة وقد بلغت الثورة الصناعية أوجها، كما اتسعت الأطماع الاستعمارية العالمية في البلاد التى كانت مهدًا للحضارة القديمة مثل مصر والهند والصين والعراق والشام وغيرها إلى جانب بقية شعوب القارة الأفريقية والقارة الآسيوية.

كما شهد آرنولد توينبي اندلاع الحرب العالمية الأولى سواء في أوروبا أو في الشرق الأوسط، تلك الحرب التى قادتها العسكرية الألمانية وسط تحالفات واتفاقيات بين أطراف الصراع في أوروبا المتمثلة في إنجلترا وفرنسا والروسيا وإيطاليا، تلك الحرب التى انتهت بتوقيع العقوبات على ألمانيا المنهزمة وكانت عقوبات قاسية تجعل من الصعب على الألمان الاستمرار في الخضوع لها دون محاولة تغييرها بالقوة.

كما شهد أرنولد توينبي اندلاع الحرب العالمية الثانية بين معسكرين حضاريين حضارة حديثة في غرب أوروبا وشرقها وفي أمريكا وفي شرق آسيا، معسكر يتمثل في الحضارة الجرمانية ومعه حضارة اليابان في الشرق الأقصى إلى جانب الحضارة الإيطالية المعاصرة وريثة الحضارة اللاتينية القديمة، والمعسكر الثاني يتمثل في الحضارة الأنجلوسكسونية إلى جانب الحضارة الفرنسية المعاصرة مع الحضارة الأمريكية المزدهرة إلى جانب حضارة الاتحاد السوفيتي بشرق أوروبا.

لقد عايش أرنولد توينبي الصدام بين المعسكرين الحضاريين المتصارعين، وشاهد الدمار الذي تخلف عن هذا الصدام فانفعل بالأحداث المعاصرة وشعر بالقلق عن مصير الحضارة الغربية المعاصرة من الزوال، فانكب يدرس الحضارات القديمة لمعرفة أسباب تدهورها وفنائها.

حياة أرنولد توينبي وأفكاره :

ولد أرنـولد توينـبي عام ١٨٨٩م في إنجلـترا ودرس اللغتـين اليونانيـة واللاتينيـة، وأحاط بالحضـارة الهيللينيـة الـتى تعتبر في رأيه أساسـية في فهم الحضارة الغربيـة المعاصرة، وعايش أحداث الحربين الأولى والثانية فانفعل بها، وجاءت نتيجة ذلك موسـوعته الضخمة "دراسـة للتاريخ" التى قضى في تأليفها حوالي ٤٠ سـنة من عام ١٩٢١م إلى عام ١٩٦١م في عشرة مجلدات اختصرت بعد ذلك إلى أربعة مجلدات ترجمت إلى اللغة العربية بمعرفة الأسـتاذ فؤاد شـبل.

وقد ألف آرنولد عدة كتب أخرى منها : تاريخ الحضارة الهيللينية، معالجة مؤرخ للدين، محاكمـة الحضارة، الحرب والحضـارة، أمريكا والثورة العالمية، الثـورة الصناعية، التجربة الحاضرة في الحضارة الغربية، العالم والغرب[1].

يشـير آرنولد توينبي إلى أن ميدان الدراسـة القابل للفهم بذاته هو المجتمع الذي يضم عددًا من الجماعات من النوع الذي تمثله بريطانيا، لا بريطانيا وحدها، ولكنه يضم فرنسـا وإسـبانيا وهولندا وبلجيكا والبلاد الإسكندنافية وغيرها.

ويضيـف أن العوامل المؤثرة في المجتمع لم تكن قومية الطابع ولكنها صدرت عن أسـباب أوسع مدى تؤثر على جزء من الأجزاء، كما أن المجتمع الذي يضم هذه الأجزاء يجابه أثناء حياته مشـكلات متتابعـة تفـرض على كل عضو فيه أن يحلها لنفسـه على خير ما يسـتطيع وتعتبر كل مشـكلة تحديًـا لعضـو المجتمع تفرض عليه محنـة يجتازها، وتؤدي تلك السلسـلة من المحن إلى تمايز أعضاء المجتمع بالتدريج بعضهم عن بعض[2].

كما أن أرنولد توينبي يرى أن حقل الدراسة التاريخية متسع للغاية ولا حدود له، ولكن على المؤرخ أن يسـتعيد ويميز الوحدات الحضارية، ويقوم بدراسـة العلاقات على المستويين الخارجي والداخلي ويركز توينبي اهتمامه على مجتمع غرب أوروبا المسـيحي فيدرسـه دراسة تراجعية حتى

---

(١) أحمد صبحي: المرجع السابق، ص٢٥٩.

(٢) أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، جـ١، ص٧.

يصل إلى جذوره الأولى، ثم يطبق المنهج نفسه على الحضارات الأربع المتبقية التى هي أكثر قدمًا من حضارة غرب أوروبا، ويفيض في دراسة العلاقة بين هذه الحضارات الخمس.

ويذكر أرنولد توينبي أن هناك خمسة مجتمعات حضارية قائمة حتى اليوم هي:

١- مجتمع مسيحي كاثوليكي وبروتستانتي تمثله أوروبا الغربية.

٢- مجتمع مسيحي أرثوذكسي في جنوب شرقي أوروبا.

٣- مجتمع إسلامي يمتد من المحيط الأطلسي عبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط حتى الواجهة الخارجية من سور الصين العظيم.

٤- مجتمع هندوكي في القسم الاستوائي من الهند.

٥- مجتمع الشرق الأقصى في المنطقتين شبه الاستوائية والمعتدلة الممتدة بين المنطقة القاحلة في غرب آسيا والمحيط الهادي.

كما أضاف أرنولد توينبي أننا إذا أمعنا النظر فإنه يمكن أن نميز كذلك مجموعتين تبدوان كبقايا متحجرة من مجتمعات مشابهة اندرست أي اختفت في الوقت الحاضر هما:

(أ) المجموعة الأولى تشمل المسيحيين المينوفيستيين القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح في أرمينيا وما بين النهرين ومصر والحبشة، والنساطرة المسيحيين في كردستان، والنساطرة السابقين في ملابار، ويضاف إلى ذلك اليهود والمجوس.

(ب) المجموعة الثانية تشمل البوذيين المعتنقين مذهب "ماهايانا" وهم البوذيون الساكنون في الصين واليابان وغيرهما من مناطق آسيا الشمالية، في التبت ومنغوليا، وتشمل البوذيين أتباع مذهب "هيناياما" وهم بوذيو آسيا الجنوبية في سيلان وبورما وسيام وكمبوديا، كما تشمل أتباع مذهب "الجين" وهم طائفة هندية غنية تنتشر في شمال غرب الهند بصفة خاصة وتؤمن باستقلال الروح عن الجسد وقمع الشهوات، ويحذرون من إيذاء كل حي تطبيقًا لمبدأهم في تقديس الأرواح، وهم في الهند[1].

(١) أرنولد توينبي: المرجع السابق، ص١٤-١٥.

ومع تسجيل هذه المجتمعات الحضارية على اختلافها فإن أرنولد توينبي انتقد مؤرخي الغرب القائلين بأن الحضارة الغربية أعظم الحضارات قيمة، وأن هذا القول راجع إلى سيادة الحضارة الغربية الحديثة في المجالين الاقتصادي والاجتماعي، وهي في رأيه أنانية تماثل ادعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار أو قدامى اليونانيين أن غيرهم من الأمم برابرة.

⊙ ومن وظائف محمد شفيق غربال الأخرى ما يأتي:

١- عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة[1].

٢- عضوًا بالمجمع العلمي المصري.

٣- عضوًا بالجغرافية الملكية.

٤- عضوًا بجمعية الاقتصاد والتشريع.

٥- عضوًا بجمعية الآثار القبطية.

٦- عضوًا بالمجلس الأعلى للآثار.

٧- عضوًا بلجنة الترجمة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

٨- عضوًا بمجلس جامعة عين شمس.

---

(١) نصّت المادة الثانية من قانون المجمع اللغوي (مارس ١٩٢٢م) أن: الغرض من هذا المجمع ترقية اللغة العربية وإحياء ما تدعو إليه الحاجة مما دثر في مفرداتها، وأول أعماله جمع المواد اللازمة لوضع معجم حسن الترتيب سهل التناول وشامل للألفاظ المدونة في المعجمات المتداولة الآن ولغيرها مما قد استعمله أولو الدراية ولا تأباه أقبية اللغة ولما يرتضيه المجمع أو يضيفه من أسماء المسميات الحديثة والمصطلحات العلمية والفنية ونحوها للوفاء بالحاجات المتجددة التى تقتضيها حالة العمران. د. عبد المنعم الدسوقي الجميعي: مجمع اللغة العربية دراسة تاريخية منشورات مصر النهضة – مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ١٩٨٣، ص١٢١

هذا . وقد شارك محمد شفيق غربال في أنشطة مجمع اللغة العربية، حيث شارك في المؤتمرات الثقافية للجامعة العربية، منها الاشتراك في المؤتمر الثقافي العربي الثالث الذي عقد في بغداد في الفترة من ٨ إلى ٢٨ نوفمبر ١٩٥٧م، وكان موضوعه: مناهج التاريخ والجغرافيا في البلاد العربية، وقد مثّل المجمع في هذا المؤتمر الدكتور منصور فهمي رئيس المجمع والأستاذ محمد شفيق غربال. د. عبد المنعم الدسوقي الجميعي: المرجع السابق، ص٨٢.

٩- عضوًا بمجلس إدارة معهد البحوث والدراسات العربية.

١٠- رئيسًا للجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

ثالثًا- إنجازاته:

أنجز محمد شفيق غربال أثناء حياته العلمية التى امتدت حتى وفاته في ١٩ أكتوبر ١٩٦١م كثيرًا من الإنجازات العلمية التى تعد من مآثره وأفضاله على الدراسات التاريخية والأكاديمية من أهمها:

١- إنشاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية[1].

٢- إنشاء متحف الحضارة المصرية عام ١٩٤٩م.

٣- خدم مصر أثناء قيامه برئاسة وفد مصر في الجمعية لليونسكو.

٤- كما خدم مصر أثناء عضويته بالمجلس التنفيذي لليونسكو من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٠م ممثلًا للشرق الأوسط.

٥- كما خدم مصر كذلك عام ١٩٥١م عندما تم اختياره لعضوية لجنة من أبرز مؤرخي العالم ليكونوا مستشارين لليونسكو في شئون تاريخ العالم.

---

(١) بعد عودة شفيق غربال من بعثته بإنجلترا سعى من أجل إنشاء الجمعية التاريخية حتى صدر المرسوم الملكي في عام ١٩٤٥م بإنشاء الجمعية وتعيينه نائبًا لرئيس الجمعية، ثم انتخب عام ١٩٥٦م رئيسًا للجمعية، حيث أنشأ مكتبة الجمعية بتزويدها بالكتب المتخصصة والمصادر الأصلية، وقد أشرف على إصدار مجلة الجمعية التى تصدر سنويًا، وإصدار مجموعة من مطبوعات الجمعية القيمة. وقد شارك شفيق غربال خلال الموسمين الثقافيين للجمعية ١٩٥٨/١٩٥٩م بعدة محاضرات ألقاها بالجمعية، كان أهمها:

١- التاريخ والمؤرخون في أوروبا في القرن السابع عشر والثامن عشر.

٢- الأصول التاريخية للديمقراطيين المعاصرين.

٣- المؤرخون ووحدة العالم.

٤- توينبي Toynbee المؤرخ والديانات.

د. عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجميعي: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دراسة تاريخية لمؤسسة علمية (١٩٤٥-١٩٥٨) ص١٤٧-١٤٨، القاهرة، ١٩٨٥م.

٦- أشرف على إخـراج الموسـوعة العربيـة الميـسرة، وهي أول دائرة معـارف عربية صغيرة أصدرتها موسوعة فرانكلين، وقد أتاح له إشرافه على هذا العمل أن يخرج للقراء عملًا عربيًّا خالصًا، فكان رئيسًـا لمجلس إدارتها، ومشرفًا على تحرير المواد التاريخية، لكنه لم ير هذا العمل مطبوعًا حيث توفي بعد مرض قصير.

رابعاً- مؤلفاته:

دَرَس محمـد شـفيق غربال الأصول التاريخيـة التي كوَّنت تطور مصر في القرن التاسع عشر ومنها:

١- بحث عميق بعنوان: « مصر عند مفرق الطرق » .

٢- بحث بعنوان: « الجنرال يعقوب والفارس لسكاريس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١م»، وتناول فيه فكرة استقلال مصر عن تركيا على أساس التفاوض في العواصم الأوروبية.

٣- كتاب « محمد علي الكبير » ، صدر سـنة ١٩٤٤م ، ويعد هذا الكتاب على صغر حجمه من أفضل الدراسات التاريخية التي كتبت باللغة العربية.

٤- بحث نُشر عام ١٩٥٢ بعنوان: « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية منذ الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢م إلى معاهدة التحالف المصرية البريطانية في سنة ١٩٣٦م » .

٥- آخر ما كتبه بعنوان: « منهاج مفصل لدراسـة العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم » ، والكتاب ليس تاريخًا للأمة العربية، ولكنه فلسفة لتاريخها، وهو في الأصل محاضرات ألقاها على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة.

٦- على الرغم من شـدة اهتمام محمد شـفيق غربال بالترجمة باعتبارها وسـيلة لتزويد المكتبة بروائـع الفكر الأجنـبي، فإنه لم يمارس الترجمـة كثيرًا، والكتاب الوحيـد الذي ترجمه إلى العربية هو: « المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر » .

هذا وقد أورد الأستاذ الدكتور عبد المنعم الدسوقي الجميعي في كتابه عن الجمعية المصرية للدراسـات التاريخية، قائمة بأوراق محمد شفيق غربال أودعها بالجمعية نجله الدكتور مراد محمد شـفيق غربال بعد وفاة والده، وهي تشـمل ما يأتي ويمكن إضافتها مع مؤلفاته. وهي:

١- مخطوط تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان للتونسي.

٢- تاريخ في شأن الوزير محمد علي باشا للخليل بن أحمد الرجبي.

٣- رسـائل خطابـات بالإيطاليـة متبادلـة بين بعـض زعمـاء المماليك «مراد بـك والبرديسي وغيرهمـا».

٤- ذكـر التراجـم الموجودة في تاريخ الجـبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للسـنوات ١٢١٣ و ١٢١٤ و ١٢١٥م.

٥- تراجم مشاهير الإيطاليين المقيمين في مصر أو بخارجها في أيام الوالي محمد علي باشا.

٦- تاريخ حياة إسكندر باشا فهمي.

٧- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس للجبرتي.

٨- تقريـر بالإنجليزية عن الإحصائيات الاقتصادية لسـوريا مقـدم من دكتور بورنج إلى لورد بالمرستون عام ١٨٤٠.

٩- مخطوط عربي عن سورية ومعه مقال بالإنجليزية عن اتفاقية الحدود السورية ١٨٠٠-١٩٥٠.

١٠- مجموعة أوراق مطبوعة بالفوتوستات تتعلق بحكيكيان بك المهندس في عصر محمد علي.

١١- مجموعة مراسلات من بورنج إلى بوغوص بك.

١٢- رسـالة دكتوراه بعنوان «العلاقات المصرية الإنجليزية وأثرها في تطوير الحركة الوطنية في مصر» للدكتور أحمد فريد علي.

١٣- «مصر المستقلة» ترجمة عربية لكتاب محمد أمين يوسف Independent Egypt.

١٤- مقررات كلية المعلمين بمصر الجديدة.

١٥- موجز رسالة للأستاذ محمود صالح منسي.

١٦- رسالة دكتوراه مقدمة من الأستاذ أحمد طربين موضوعها «أزمة الحكم في جبل لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى استقرار عهد المتصرفين».

١٧- كراسات تحوي ترجمة عربية قام بها الأستاذ أحمد خاكي وزميل له لفصل كتبه باللغة الإنجليزية المؤرخ محمد شفيق غربال في موضوع «آراء وحركات في التاريخ الإسلامي».

ولأهمية هذه الأوراق شكل مجلس إدارة الجمعية التاريخية لجنة للنظر فيها ثم تقديم تقرير عنها مع ذكر وسائل صيانتها ومدى الاستفادة منها وما تراه اللجنة صالحًا للنشر من هذه الأوراق، وقد تشكلت اللجنة من الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى والدكتور محمد محمود الصياد والدكتور الشاطر بوصيلي أعضاء والدكتور عبد الرحمن زكي مقررًا.

خامسًا: الدراسات عن شفيق غربال:

تعددت - على قلتها - الدراسات عن محمد شفيق غربال، ومنها:

١- شفيق غربال مؤرخًا، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مجلة الجمعية التاريخية المصرية، عام ١٩٦٣م.

٢- شفيق غربال: مكتبة العرب.

٣- محمد شفيق غربال وصناعة المؤرخين، من إسلام أون لاين نت.

٤- محمد شفيق غربال: عبد الرحمن بيطار، الموسوعة العربية.

⊙⊙⊙

شفيق غُرْبال
ومدرسة التاريخ الوطني

أ. علي بركات
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة حلوان

في مقدمــة كتابــه «عجائب الآثار» تحدث الجبرتي عن تلك النظرة الهابطة التي كان ينظر بها معاصروه إلى التاريخ بقوله : «ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنساني (من المعرفة) تعني بتدوينه ســلفًا عن خلف إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين»[١].

غير أن هذه النظرة الهابطة للتاريخ أخذت تتغير تدريجيًا خلال القرن التاسع عشر. حيث إنه ابتداء من عام ١٨٣٧ أصبح التاريخ علمًا معترفًا به ضمن مناهج الدراســة بمدرســة الألسن، ثـم بمدرســة دار العلوم بعد ذلك، هذا التطور في النظـرة إلى التاريخ وبالتالي الاعتراف به كعلم كان وراءها عدد من العوامل:

١- التطور الذي حدث في النظام التعليمي ابتداءً من عهد محمد علي وإدخال التعليم الحديث في مصر، وما صاحب ذلك من إرسال البعثات إلى أوروبا في معظم التخصصات المعروفة في ذلك الوقــت. وعودة هؤلاء المبعوثين والدور الذي لعبه هؤلاء في عملية تطوير التعليم، وخاصة رفاعة رافع الطهطاوي، وقد نتج عن ذلك إدخال التاريخ كعلم في برامج الدراسة في مدرسة الألسن عام ١٨٣٧، وقــد صاحب عملية تدريس التاريخ بهذه المدرســة ترجمــة لمؤلفات تاريخية مهمة قام بها رفاعة وتلاميذه، وعندما أنشــئت مدرســة دار العلوم كجزء من النهضة التعليمية التي شــهدها عصر إسماعيل والتي قادها علي مبارك أصبح التاريخ ضمن مناهجها، وكان التاريخ العام ضمن المـواد التي شــملتها خطة الدراســة الــتي تم وضعهــا عام ١٨٧٤، وعندما عين الشــيخ محمد عبده مدرسًــا للتاريخ بمدرســة دار العلوم عام ١٨٧٨ كان يقوم بقــراءة مقدمة ابن خلدون على طلابه كجزء من مقرر التاريخ.

٢- انتشــار الطباعــة: التي بدأت بشــكل فعلي بإنشــاء مطبعة بـولاق عام ١٨٢٢ التي تطورت لتصبح أكبر مطبعة عربية في العالم العربي في القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى المطابع الأخرى الــتي أنشــئت خلال عصر محمد علي ، وفي هذه المطابع طبعــت الكتب التاريخية مترجمة ومؤلفة

(١) عجائب الآثار، مطبعة بولاق ١٨٨٠، ج١، ص ٥.

مما جعلها متاحة حتى لغير المتخصصين ، فيذكر أحمد عرابي في مذكراته: أن سعيد باشا أهداه كتاب تاريخ نابليون بالعربية ويقول «إن اطلاعه على ذلك الكتاب كان سببًا في مطالعته لكثير من التواريخ الغربية[1].

٣- الدور الذي لعبته الصحافة في نشر المعرفة التاريخية : فقد عرفت مصر الصحافة منذ الحملة الفرنسية لكنها توقفت بخروج الفرنسيين، ثم أنشأ محمد علي الوقائع عام ١٨٢٨، لكنها توقفت عن الصدور خلال عهدي عباس وسعيد، إلا أن الصحافة قد شهدت ازدهارًا خلال عصر إسماعيل حيث ظهرت العديد من الصحف، وإن كان بعضها لم يعمر طويلًا إما بسبب صعوبات مالية أو بسبب موقف الخديو إسماعيل منها، وخلال تلك الفترة والفترة الأولى من عهد الاحتلال كانت أهم دور النشر في مصر يملكها مهاجرون سوريون. غير أن الفترة التالية شهدت زيادة كبيرة في عدد الصحف الذي وصل عددها إلى ١٧٦ صحيفة في القاهرة وحدها عام ١٩٠٤م، كما تم كسر احتكار السوريين لملكية الصحف، وأصبحت الأحزاب والتنظيمات السياسية التي ظهرت في ذلك الوقت لها صحفها الخاصة بها والتي تعبر عن وجهة نظرها، وأصبحت الصحف تنقل المعلومات المثارة على صفحاتها إلى كل ركن في مصر بما في ذلك المعلومات التاريخية، وكانت صحيفة «روضة المدارس» منذ عهد إسماعيل تنشر مقالات ذات طابع تاريخي لرفاعة رافع بل إن كتاب «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» قد بدأ رفاعة في نشره على حلقات بهذه المجلة .

٤- الجمعيات العلمية: ولعل أبرزها الجمعية الجغرافية التي أنشئت عام ١٨٧٥ ، وكان الهدف من إنشائها العناية بالأبحاث الجغرافية والأبحاث العلمية بشكل عام . وفي هذا الاتجاه نشرت الجمعية أبحاثًا أثرية وتاريخية لمؤرخين من أمثال محمود الفلكي وأحمد كمال وغيرهما.

٥- وهناك عامل أخير يتعلق بانتشار الثقافة وارتفاع وعي الشعب خلال التحرك الوطني في أواخر عصر إسماعيل ، وهو التحرك الذي انتهى بقيام الثورة العرابية، وعملية التعبئة الشعبية

---

(١) في هذا راجع :جمال الدين الشيال، التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٦٦ .

التي صاحبتها والتي لعب فيها عبد الله نديم دورًا واضحًا[١].

هـذه العوامل خلقت وعيًا بأهمية التاريخ لدى المجتمع، وعلى هذا فقد شـهد القرن التاسـع عشر كتابات تاريخية تختلف من حيث المنهج عن كتابات المؤرخين السابقين على القرن التاسع عشر، كما ظهر نوع جديد من الكتابة التاريخية يمكن أن يصنف ضمن المذكرات السياسـية التي كتبها أولئك الذين عاشـوا تجربة الثورة العرابية وعاشـوا أحداثها ، من أمثال : أحمد عرابي وعبد الله نديم ، والشيخ محمد عبده ، ومحمود فهمي.

وفي هـذا الاتجـاه يقال أن الشـيخ محمد عبده قد ألـف كتابًا في فلسـفة الاجتماع والتاريخ كان يضم محاضراته التي ألقاها في مدرسـة دار العلوم خلال عامي ١٨٧٨/ ١٨٧٩ عن ابن خلدون وآرائه في الاجتماع[٢].

وفي ظـل الاحتلال البريطاني تصـدت العناصر الأجنبية والمتمصرة لكتابة تاريخ تلك الفترة، فكتـب ملنر كتابـه «إنجلترا في مصر» ، وكتـب كرومر كتابه «مصر الحديثـة» ،كما كتب خليل نقاش «مصر للمصريين» . وكلها تقوم على تشـويه الثـورة العرابية وإدانتها كحركة وطنية، ويبدو أن ذلك كان وراء ظهور تلك المذكرات السياسـية وفي مقدمتها مذكرات أحمد عرابي التي كتبها بعـد عودتـه من المنفى وانتهى من كتابتها في ٢٦ يوليو سـنة ١٩١٠، والتي لـم تنشر نشرًا كاملًا إلا بعـد قيام ثورة سـنة ١٩٥٢. ومن الواضـح أن هذه المذكرات قد كتبها أحمـد عرابي للرد على تلك الكتابات التي حاولت تشـويه الثورة فهو يقول في مقدمتها: « أما بعد فإني قد اطلعت على كثير من الجرائد والتواريخ العربية والأفرنجية الموضوعة في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فلـم أجد فيها ما يقرب من الحقيقة أو يشـفي غليل روادها، لذلـك رأيت أن أكتب للناس كتابًا يهتدون به إلى تلك الحقيقة، تمحيصًا للتاريخ من درن الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة »[٣].

(١) المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٢) المرجع السابق .

(٣) كتاب الهلال، عدد مايو ١٩٩٠، ص ٧، ١١، ١٢.

وكتب محمد عبده كتاب : تاريخ أسباب الثورة العرابية ، نشُرت بعض أجزائه في كتاب محمد رشيد رضا «تاريخ الأستاذ الإمام» ، كما استفاد منه صبري السربوني في إعداد رسالته للدكتوراه في الجزء الخاص بالثورة العرابية، ويقول جمال الدين الشيال أن اختفاء، ذلك الكتاب وعدم نشره يرجعان إلى ما احتواه من معلومات وحقائق عن أسباب الثورة ورجالها.

وكتب عبد الله نديم مذكراته السياسية والتي نشرها محمد أحمد خلف الله وقدم لها عام ١٩٥٦ وهي تلقي بعض الضوء على مقدمات الثورة العرابية وأحداثها. كما كتب محمود فهمي مذكراته التي قدر لها أن تنشر تحت عنوان «البحر الزاخر في أخبار الأوائل والأواخر».

أما ما كتبه رفاعة رافع الطهطاوي في مناهج الألباب عن فائض القيمة في العمل الزراعي فهو يقترب من التفسير المادي للتاريخ[١].

وعلى هذا فإن شفيق غربال ينتمي إلى جيل النهضة الفكرية التي شهدتها مصر الحديثة والتي بدأها رفاعة رافع الطهطاوي ، وقد تضلع كثيرون من أبناء ذلك الجيل في الثقافتين العربية والإسلامية، وأضافوا إليهما الكثير من المنجزات الفكرية التي شهدتها أوروبا خلال عصر الاستنارة، فضلًا عن تمكنه من المنهج التاريخي الذي يقوم على الربط والتحليل والمقارنة مع قدرته على الأداء اللغوي، وكان هذا الأداء والمنهج في التاريخ موضع إعجاب طلابه ؛ فقد كان المنهج الجديد لم يسبق للمؤرخين المسلمين أن مارسوه بهذا الشكل المستند إلى أنماط جديدة لم تكن معروفة في الفكر العربي.

ويمكن فهم الفكر التاريخي عند غربال على ضوء ثلاثة عوامل[٢] :

الأول: «إن غربال» قد تلقى المراحل العليا من دراسته على يد المؤرخ البريطاني المعروف «أرنولد توينبي» الذي حاول التوصل إلى العوامل التي تحكم قيام الحضارات وانهيارها. وكان أهم القوانين التي توصل إليها في هذا المجال هو قانون التحدي والاستجابة ودور النخبة والقادة

---

(١) مطبعة الرغائب بمصر، ١٩١٢، ص ٩٣-٩٤.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في تقديم كتاب محمد علي الكبير، كتاب الهلال، عدد أكتوبر، ١٩٨٦ .

في دفع عجلة التاريخ ، ومن ذلك ذهاب توينبي إلى القول بإن قيام الحضارة المصرية القديمة كان مرتبطًا بالتحدي الذي شكله النيل بفيضانه المدمر أحيانًا والمنخفض أحيانًا أخرى، الأمر الذي استلزم قيام سلطة الفراعنة ونخبهم المكونة من الكهنة والفنيين[١].

وتقوم نظرية التحدي والاستجابة عند توينبي على أن الحضارة ليست نتائج جنس معين أو بيئة جغرافية معينة ، وإنما هي نتيجة للاستجابة لتحديات معينة تتسم بالصعوبة وتستثير الإنسان للقيام بجهد في التغلب على تلك الصعوبات. وأولها البيئة الطبيعية ، ومن أجل التغلب على الطبيعة استطاعت شعوب معينة أن تصنع حضارة متقدمة ؛ فحضارة الصين القديمة نتجت من طبيعة النهر الأصفر الذي لم يكن صالحًا للملاحة في بعض مناطقه فضلًا عن أن مياهه تتجمد في شهور الشتاء وقد كان ذلك دافعًا لظهور حضارة الصين..

وقد يكون التحدي بشريًا كما هو الحال في حالة إسبرطة وضيق مساحة أراضيها الزراعية، ويرى توينبي أن نشأة الحضارة وتطورها نتجت عن التحديات التي واجهها الإنسان وتمكن من التغلب عليها ، وقد أوضح توينبي أن الظروف الطبيعية التي واجهها الإنسان هي التي حفزته للتقدم باستثارة قوى الإبداع فيه.

وقد يأتي التحدي من ظروف بشرية كعدوان أو تهديد خارجي. ويرى أرنولد توينبي أن التحدي المثير للاستجابة لا يجب أن يكون ضعيفًا بحيث لا يحفز الطرف الآخر على الاستجابة، ولا يكون بالغ الشدة بحيث يحطم روح الطرف المقاوم ؛ وإنما يكون التحدي في مستوى يستثير الطاقات المبدعة لدى الشعب الواقع عليه التحدي، ومعه تصبح الاستجابة للتحدي عملية تؤدي إلى ارتقاء المجتمع في جوانبه الروحية والفكرية . وعلى هذا فالتاريخ من هذا المنظور سلسلة من التحديات والاستجابة لها. وأن هذا التحدي تقوم به أقلية مبدعة، وأن عمليات الإبداع الاجتماعي هي نتيجة أعمال أفراد عباقرة، أو أقليات عبقرية وأن صناع التاريخ هم تلك الشخصيات الخلاقة التي تقوم بأعمال يعجز غيرهم عن القيام بها ، ويظهر أولئك الأفراد

---

(١) المرجع السابق..

في صورة فلاسفة وقديسين ورجال دولة ، وهؤلاء العظماء هم الذين يصنعون المدنيات ويعملون على تقدمها . .

وخلاصة رأي توينبي أن ظهور الحضارات هو نتيجة لتحد صادر إما عن البيئة المادية أو عمل بشري أو كليهما[١].

ويجعل توينبي من قانون التحدي والاستجابة سببًا في انهيار الحضارات ؛ فتكرار التحدي التي تواجهه حضارة معينة إما أن ينتهي بالاستجابة لذلك التحدي فتستمر تلك الحضارة في التقدم ، وإما أن تخفق تلك الحضارة في مواجهة ذلك التحدي فتنهار وذلك عندما تتكرر الاستجابات المخفقة على تلك التحديات. ثم يذكر توينبي أسباب أخرى لانهيار الحضارات منها: إخفاق الأقليات المبدعة، وانصراف الجماهير عنها وذلك عندما تفقد الأقلية المبدعة طاقتها الإبداعية ومن ثم تتحول إلى أقلية متسلطة. عند ذلك تسحب الجماهير ثقتها من تلك الصفوة المبدعة وتكف عن محاكاتها عن ذلك يحدث انشقاق في الكيان الاجتماعي وتتداعى وحدة المجتمع[٢].

وقد ضمن أرنولد توينبي نظريته في التحدي والاستجابة مؤلفة الضخم والذي استغرق إعداده حوالي أربعين عامًا وبلغت عدد صفحاته ٦٢٩٠ صفحة، وقد انتهى توينبي من ذلك العمل عام ١٩٦١ وجاء الأصل في عشر مجلدات. أضاف إليها توينبي مجلدين رد فيهما على الانتقادات التي وجهت لذلك العمل، وكانت وحدة الدراسة عند توينبي المجتمعات والحضارات وليس العصور والتي قسمها إلى ٢١ حضارة بخلاف الحضارة التي أسماها الحضارات المتحجرة ومنها الحضارة اليهودية[٣].

وقد كان غربال شديد الإعجاب بأستاذه ونظرياته في تفسير التاريخ ، الذي طبق غربال

(١) نيفين علم الدين، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م

(٢) مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد شبل، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٦٠، ١٦٨، ٢١٤.

(٣) نيفين علم الدين : المرجع السابق .

جوانب منه على بعض دراساته خاصة كتابه «تكوين مصر»؛ ففي هذا الكتاب يتضح تأثر غربال بمنهج توينبي؛ ففي كتابه « تكوين مصر » حاول شفيق غربال دراسة تاريخ مصر على ضوء حقائق المكان. وهو هنا يسبق ما قدمه سليمان حزين في حضارة أرض الكنانة وجمال حمدان في شخصية مصر.

أما كتاب شفيق غربال «محمد علي الكبير» ففيه تضخيم لدور محمد علي في تاريخ مصر الحديث وواضح فيه أيضًا تاثر شفيق غربال بفكر أرنولد توينبي حول الصفوة المبدعة.

ثمة عامل آخر ساهم في تحديد الرؤية التاريخية عند شفيق غربال، هو إحساس غربال بدوره الثقافي الرائد ونزعته الأرستقراطية التي جعلته يركز على دور النخبة ويهمل التيارات الجماهيرية وينظر إليها من عل. ومن ثم ارتباطه بالتكتلات السياسية التي عرفت بأحزاب الأقلية والتي كانت تستقطب عددًا غير قليل من مفكري مصر الذين مجوا «ديماجوجية» الوفد حزب الأغلبية حتى عام ١٩٥٢. واصطدامه بحزب الوفد في أوائل الأربعينيات حين كان وكيلًا مساعدًا لوزارة المعارف وعودته لقاعات الدرس. حتى إذا ما عادت أحزاب الأقليات للحكم عاد غربال لتولي بعض الوظائف الرئيسية في حقل التعليم. في حين كان حكم الوفد مؤذنًا في كل مرة بعودته إلى الجامعة والتدريس. هذا العداء للوفد لعب دورًا في التقريب بين غربال والقصر. لقد ركز شفيق غربال في كتاباته التاريخية على القلة الموجهة والزعامات الفردية خاصة في مجال الفكر، يتضح ذلك من الشخصيات التي عرض لها في أحاديثه الإذاعية كسقراط وأبي العلاء المعري وابن تيمية وجمال الدين الأفغاني وغيرهم والذين قال عنهم أنهم غيروا مجرى التاريخ[1].

ثالثًا: وهو عامل يتعلق بتبني جيل الرواد من أمثال محمد رفعت ومحمد صبري السربوني وشفيق غربال لنظرية الرجل العظيم في كتابة التاريخ ويرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب :

(١) أن جيل الرواد من المؤرخين المصريين قد شغلتهم قضية تمصير كتابة التاريخ المصري، بمعنى كتابته بأيدي مصرية ومن وجهة نظر مصرية بعد أن هيمن الأجانب على كتابة تاريخ

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، شفيق غربال مؤرخًا، المجلة التاريخية المصرية، المجلد١١، سنة ١٩٦٣.

مصر لبعض الوقت.

(٢) أن طلائع الباحثين المصريين الذين تعلموا في الغرب من أمثال محمد رفعت ومحمد صبري السربوني وشفيق غربال لم يلتفتوا إلى المعركة التي كانت تدور في الغرب في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بين المدرسة التقليدية التي ترى أن التاريخي هو علم تسجيل الحوادث، ووصفها وتسلسلها وترى أن الحدث التاريخي حدث متفرد، ومن الصعب أن نجد له أسبابًا موضوعية لأنه يتم بطريقة عشوائية يلعب الأبطال فيها دورًا بارزًا، وبالتالي فإن التاريخ الأجدر بالدراسة هو تاريخ الأحداث السياسية، والوقائع العسكرية، وهو من هذا المنظور تاريخ عظماء الرجال من أمثال الإسكندر الأكبر، ويوليوس قيصر، ونابليون ومحمد علي وغيرهم من العظماء[1].

وبين المدرسة التي كانت تعارض هذا الاتجاه وهي مدرسة إميل دوركايم التي ترى أن الظواهر التاريخية، تحكمها قوانين موضوعية وأنها قابلة للاكتشاف، وأن مهمة المؤرخ هي اكتشاف هذه القوانين، وأنه يمكن استنباط أفكار أو صيغ عامة لتفسير الظواهر الاجتماعية من خلال دراسة التاريخ، وترى هذه المدرسة أن التاريخ الحقيقي لأي جماعة من الناس هو تاريخها الاجتماعي. ذلك لأن الفرد لا يتحرك في فراغ بل هو جزء من المجتمع، والمجتمع ليس قطيعًا معدوم الإرادة إزاء ما يتصوره القادة المبرزون.

لم يلتفت هؤلاء الباحثين إلى نتائج هذه المعركة، ومن ثم عادوا متأثرين بالفكر الليبرالي وما يرتبط به من تمجيد لدور الفرد والصفوة أكثر من تأثرهم بالمدرسة الاجتماعية في دراسة التاريخ[2].

(٣) الدور الذي لعبته الملكية في عهدي فؤاد وفاروق في محاولة كتابة تاريخ مصر الحديث، مع إبراز الدور الإيجابي الذي لعبته أسرة محمد علي في هذا التاريخ وخاصة فرع إبراهيم، ومحاولة اجتذاب المؤرخين المصريين النابهين من أمثال شفيق غربال إلى جانب من استعانت بهم من

---

(١) حول مدرسة الرجل العظيم في تفسير التاريخ يمكن مراجعة: غوردون تشايلد، التاريخ، ترجمة عدلي برسوم، مكتبة القاهرة، بدون، ص ٦٥- ٧٠.

(٢) علي بركات، مقدمة كتاب الملكية الزراعية بين ثورتين، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٧٩م.

الأجانب وفي هذا الاتجاه أنشئت الجمعية التاريخية الملكية التي أصبح شفيق غربال نائبًا لرئيسها المنتسب إلى الأسرة المالكة[١].

وأخيرًا : فإن شفيق غربال كان واحدًا من جيل الرواد الذين كان عليهم أن يخوضوا معركة ضارية من أجل تمصير الوظائف في الجامعة وتعريب الدراسة بها.

لقد كان جيل الرواد من المصريين لا يتعدى بضعة أساتذة كان معظمهم في الثلاثينيات من العمر مثل : طه حسين ، ومصطفى فهمي ، وأحمد أمين ، وعالم المصريات سليم حسن ، والمؤرخ شفيق غربال ، ومحمد كامل مرسي أستاذ القانون ، أما إبراهيم حسن أستاذ الطب المعروف فكان يكبرهم ببضع سنين حيث كان عمره يقترب من الأربعين عامًا عام ١٩٢٥ «العام الذي تحولت معه الجامعة إلى جامعة حكومية» . وكان على هؤلاء أن يخوضوا معركة في اتجاهين، الأول تمصير الوظائف في الجامعة وقد كانت مقاومة الفرنسيين والإنجليز لعملية تمصير الجامعة ضارية، وكانت السفارة البريطانية لا تزال لها نفوذها. وقد استمرت عملية التمصير حوالي ثلاثين عامًا بعد صدور تصريح فبراير عام ١٩٢٢م[٢].

وكانت كلية الحقوق أول كلية يتم تمصير منصب العميد فيها. وكانت الطب هي الكلية الثانية التي جرى تمصير وظائفها حيث حل المصريون محل الأجانب الذين تركوا الجامعة خلال الحرب الأولى وفي عام ١٩٢٩ أصبح علي إبراهيم عميدًا للطب وكان الأجانب يشغلون ذلك المنصب منذ عام ١٨٩٠.

وفي الآداب أصبح طه حسين عميدًا للكلية عام ١٩٣٠ خلفًا لعميدها الفرنسي ، وكانت العلوم هي الأخيرة من كليات الجامعة التي أصبح عميدها مصريًا عام ١٩٣٦. ، وكانت كلية دار العلوم هي الوحيدة الذي كان عميدها مصريًا من البداية.

---

(١) أسد رستم: مقدمة كتاب وثائق الشام في المحفوظات الملكية المصرية، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٤٠م.

(٢) Reid, D. M. Cairo University and the Making of Modern Egypt Cambridge University Press, 1990, p. 99.

أما الاتجاه الآخر من المعركة فكان تعريب الدراسة في الجامعة ؛ ففي كلية الحقوق كان الطلاب المصريون يدرسون القانون بالفرنسية لعدة أجيال منذ أن كانت مدرسة للحقوق والتي كان عمرها يزيد على خمسين عامًا.

ففي كلية الحقوق والآداب سارت محاولات تعريب الدراسة جنبًا إلى جنب مع عملية تمصير وظائف أعضاء هيئة التدريس ، مع استثناءات محدودة لبعض المستشرقين الذين كانوا يحاضرون باللغة العربية وبعض المصريين في أقسام اللغات الأجنبية الإنجليزية والفرنسية. ويستثنى من ذلك كلية الطب وكلية العلوم التي استمر التدريس فيهما باللغة الإنجليزية، وإن كان قد جرى التأليف والتدريس فيهما باللغة العربية على الرغم من ذلك استمرت التعبيرات ذات المضمون العلمي تدرس بلغتها.

وفي مجال دراسة التاريخ فإن شفيق غربال وسليم حسن قد خاضا المعارك نفسها من أجل تمصير الوظائف ، وتعريب الدراسة ، وتمصير كتابة التاريخ ، في مواجهة الباحثين الأجانب الذين استعان بهم الملك فؤاد في كتابة تاريخ أسرة محمد علي ، والذين كان بعضهم يقوم بالتدريس في الجامعة[١].

إن أهمية شفيق غربال تكمن في أن منهجه قد تأثرت به أجيال من طلابه حيث أشرف غربال على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه منها : تاريخ التعليم في عصر محمد علي، وتاريخ التعليم منذ أواخر عصر محمد علي إلى أوائل عصر توفيق لأحمد عزت عبد الكريم، وعلاقة إسماعيل بالباب العالي لأحمد عبد الرحيم مصطفى، والفلاح المصري في عهد محمد علي، وتاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي لأحمد الحتة، وتطور الصحافة المصرية لإبراهيم عبده، وتجارة مصر في عهد محمد علي لأمين مصطفى عفيفي، ويلاحظ أنها موضوعات يتصل معظمها بتاريخ مصر الاجتماعي[٢] .

---

(١) Ibid., P. 100 .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: شفيق غربال مؤرخًا، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١١، لسنة ١٩٦٣.

بل إن كتاب علي الجريتلي: «تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر»، والذي نشرته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٥٠ قد تم بتوجيه من شفيق غربال، وإلى شفيق غربال أيضًا، يرجع الفضل في لفت أنظار الباحثين إلى أهمية الوثائق غير التقليدية في كتابة التاريخ الاجتماعي، فقد ذكر وهو بصدد التقديم لدراسة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم «تاريخ التعليم في عصر محمد علي» : « ومادة التاريخ هذه كل ما فيها له قيمة والمتعسف من المؤرخين هو الذي يعتبر تافهًا كل ما لم يتعلق بالسياسة العليا أو ما لم يصدر عن السلاطين أو ممثلي السلاطين، وأن دفترًا من دفاتر المحفوظات يدلنا على أرزاق الجند أو طعامهم ولباسهم، لهو وثيقة لها خطرها، ولا يستطاع كتابة التاريخ إلا بها وبمثيلاتها » .

إن هذه النظرة المقدرة لقيمة الوثائق وأهميتها، هي التي كانت وراء نشر شفيق غربال لواحدة من أهم وثائق تاريخ مصر الاجتماعي الحديث، وهي وثيقة حسين أفندي الرزنامجي، التي نشرها تحت عنوان «مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨- ١٨٠١ » عام ١٩٣٦م في مجلة كلية الآداب (جامعة فؤاد) وهي وثيقة تتحدث عن أوضاع مصر في الفترة السابقة للحملة الفرنسية.

وعمومًا : فإن أهمية شفيق غربال ترجع إلى أنه أول مصري تولى وظيفة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة المصرية، كما أن الدراسات التاريخية قد تأثرت ولفترة طويلة باتجاه شفيق غربال وفكرته عن التاريخ. وإليه يرجع الفضل في طرق موضوعات تتصل بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي، والذي ظهر في كتابات أحمد الحتة ومصطفى عفيفي وعلي الجريتلي وأحمد عزت عبد الكريم.

⊙⊙⊙

مُحَمَّد شَفِيق غُرْبَال

من رُوَّاد المدرسة الأكاديمية الوطنيَّة

أ. د. أحمد زكريا الشِّلق
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة عين شمس



شـهدت حركة كتابة التاريخ في مصر في العقود الأولى من القرن العشرين مدرسـة وطنية مصريـة "أكاديمية" لكتابة التاريخ المصرى الحديث والمعاصر بدأت تبرز وتتشـكل ملامحها فى أعقاب ثورة مصر الوطنية عام ١٩١٩ أي أنها ارتبطت بتطور الحركة الوطنية التى واجهت النفوذ الاسـتعمارى البريطانى، كما أنهـا ارتبطت أيضًا بمعركة تمصير الجامعـة المصرية، خاصة بعد ضمهـا إلى وزارة المعارف عام ١٩٢٥، تلك المعركة التى سـعت لإحلال الأسـاتذة المصريين محل الأساتذة الأجانب الذين كانت غالبيتهم من الإنجليز والفرنسيين، وحينذاك برزت أسماء لطفى السـيد وطه حسـين وسليم حسن ومحمد كامل مرسى ومصطفى عبد الرازق، كما برزت أسماء المؤرخـين المتخصصـين فى تاريخ مـصر الحديث والمعـاصر وفى طليعتهم محمـد رفعت ومحمد صبرى وشفيق غربال .

وفيمـا يتصل بمؤرخي مصر الحديثة فقد كان الأسـتاذ محمد رفعـت بداية لجيل من المؤرخين الأكاديميين عندما ابتعث إلى بريطانيا ليدرس فى ليفربول ويعود منها بدرجة الماجستير فى نهاية الحرب العالمية الأولى ثم يلعب دورًا مهمًا فى تعريب وتأليف الكثير من الكتب التاريخية لوزارة المعارف، يليه الدكتور محمد صبرى الذى أعد دراسته المهمة عن ثورة ١٩١٩ التى نشرها بالفرنسية وقت اشـتعال الثورة ليثبت أنها ثورة وطنية عامة، ثم أعقبها بدراسـة عن نشـأة الروح القومية الـتى حـاز بها درجة الدكتوراة من جامعة السـوربون عام ١٩٢٤ ليصبـح فى طليعة هذا الجيل من المؤرخين الوطنيين المحترفين، الذين مارسوا الكتابة التاريخية استنادًا إلى المنهج العلمى وقواعده، وثالث فرسان هذه الكوكبة كان الأستاذ محمد شفيق غربال تلميذ المؤرخ البريطانى الكبير أرنولد توينبى، الذى أعد دراسته للماجستير عن «بداية المسألة المصرية وظهور محمد على» بجامعة لندن عام ١٩٢٤، وأصبح أول مصرى تولى وظيفة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة المصرية. ومن خارج الجامعة ظهر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى الذى وضع مؤلفاته المعروفة عن تاريخ الحركة القومية المصرية بين عامى ١٩٢٩ – ١٩٥٩ .

نحن إذن فى أعقاب ثورة ١٩١٩ أمام جيل جديد من المؤرخين ممن درسـوا خارج مصر وقدموا دراسـاتهم، منطلقين من شعور قومى راسخ، مستندين إلى أسس المنهج العلمى الحديث ليسهموا

فى نهضة الكتابة التاريخية المصرية، سـواء داخل الجامعة أو خارجها، مشاركين فى إعادة تشكيل الحياة الفكرية فى مصر، حين نقلوا إليها طرائق البحث العلمى التى عرفها العالم الغربى المتطور بعـد أن هضموهـا وتمثلوهـا وطبقوها عند تناولهم تاريـخ مصر وأمتهم العربية الإسـلامية، إنه جيـل شـكل نقلة فى حركة التفكـير التاريخى فى مصر، ابتعدت بها عن المنهج الكلاسـيكى الذى درج عليه كتاب السـير والحوليات والمغازى والخطط والآثار والتراجم، ورسَّخت أسس الكتابة العلمية للتاريخ.

محمد شفيق غربال:

ولد محمد شفيق غربال بالإسكندرية في يناير عام ١٨٩٤ فى حى يحمل اسم عائلته غربال وتوفى في أكتوبر ١٩٦١، وكان قد واصل تعليمه الابتدائي في هذا الحي، ثم واصل تعليمه الثانوي بمدرسة رأس التـين، والتحق بعدها بمدرسـة المعلمين العليا بالقاهرة، تلك المدرسـة التي خرجت لمصر عددًا من رواد النهضة الأدبية والعلمية، منهم الدكتور أحمد زكي وإبراهيم المازني والشـاعر عبد الرحمن شـكري ومحمد فريد أبو حديد وعبد الحميد العبادي وغيرهم.. وقد أتمَّ دراسـته بها عام ١٩١٥ ليحصل على بعثة حكومية لدراسة المواد الاجتماعية والتاريخ فى جامعة ليـفربول بإنجلترا، حيـث حـاز درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف عام ١٩١٩، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسًـا بالتعليم الثانـوى بالإسـكندرية لنحـو ثلاث سـنوات، ابتعث بعدهـا إلى إنجلترا مرة أخرى لاسـتكمال دراسته العليا، فالتحق بمدرسة الدراسات التاريخية التابعة لجامعة لندن.

وفى جامعـة لندن التقى بالمؤرخ الكبير "أرنولد توينـبى" الذى أعجب بكفاءته فأشرف على رسـالته التى نال بها درجة الماجسـتير عام ١٩٢٤ فى موضـوع عنوانـه «بدايـات المسـألة المصرية وصعود محمـد عـلى» "The Beginnings of The Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali" الـتى نـشرت فى لندن عام ١٩٢٨ ولم يقـدر لها أن تترجم إلى العربية رغم أهميتهـا، ليس فقط لأنها أهم أعماله المبكرة، ولكـن لأنها كانت من الكتابات الرائدة الموثقة التى عالجت فترة مهمة من تاريخ مصر هى الفترة الواقعة ما بين حملة بونابرت عام ١٧٩٨ وصلح

بوخارست بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٨١٢، فربطت الدراسة بين أحداث مصر والموقف الدولي، كما ربطتها بالمسألة الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية. وقد أهدى غربال رسالته إلى توينبي باعتباره « معلمًا عظيمًا وأستاذًا ملهمًا ».

بعد أن نال غربال درجة الماجستير لم يُقدَّر له أن يتم دراسته لمرحلة الدكتوراه، حيث انتهت مدة بعثته، فعاد إلى مصر عام ١٩٢٥ ليعين مدرسًا للتاريخ بمدرسة المعلمين العليا حتى عام ١٩٢٩ عندما نقل أستاذًا مساعدًا للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية، في الوقت الذيكان فيه الأساتذة الأجانب يحتلون معظم كراسى الأستاذية في التاريخ الحديث خلفًا للمؤرخ الإنجليزي « آرثر جرانت » ليصبح أول مصري يتولى هذا المنصب الرفيع، ثم لم يلبث أن انتخب عميدًا لكلية الآداب عام ١٩٣٩ خلفًا للدكتور طه حسين، لكنه سرعان ما نقل إلى وزارة المعارف بعد نحو عام، ليعمل فى خدمة التربية والتعليم كوكيل مساعد للوزارة حتى عام ١٩٤٢، حين أعادته وزارة النحاس باشا للعمل بالجامعة مرة أخرى لمدة ثلاث سنوات، عاد بعدها مستشارًا لوزارة المعارف، فوكيلًا لها، ثم نقل وكيلًا إلى وزارة الشئون الاجتماعية لفترة قصيرة، وإن حرص على أن يظل أستاذًا غير متفرغ بالجامعة حتى بلغ السن القانونية عام ١٩٥٤. وكان من الواضح أن حفاظه على استقلاليته وعدم تورطه في الحياة الحزبية - بالرغم من ميله المعروف إلى حزب السعديين خصوم الوفد - كان ذلك وراء كثرة تنقله ما بين الجامعة ووزارة المعارف.

ومن المعروف أن غربال أثناء عمله بوزارة المعارف لم يأل جهدًا فى حركة التعريب والتمصير للمقررات التاريخية، كما قام بعدد من الإنجازات العلمية المهمة، حين ساهم في تأسيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٤٥ وأصبح نائبًا لرئيسها فرئيسًا لها عام ١٩٥٦. وفي العام نفسه اختارته جامعة الدول العربية رئيسًا لمعهد البحوث والدراسات العربية التابع لها، كما تولى رئاسة قسم الدراسات التاريخية به، خلفًا للأستاذ قسطنطين زريق، وقد اختار صفوة من العلماء ليحاضروا فى المعهد، ودرس لجيل من المؤرخين العرب الذين ترأسوا أقسام التاريخ بالجامعات العربية.

وكان غربـال عضوًا نشـطًا في جمعيـة الآثار القبطيـة المصرية، والجمعيـة الجغرافية المصرية، والمجمع العلمى المصرى، ومجمع اللغة العربية، كما كان عضوًا مؤسسًـا فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، والمجلس الأعلى للآثار، وقد مثل مصر فى عدد من المؤتمرات التاريخية العالمية، وانتخب عضوًا فى المجلس التنفيذى لليونسكو ١٩٤٦- ١٩٥٠ ممثلًا للشرق الأوسط.

وقـد كرَّمته الدولة فمنحته جائزتها التقديرية فى العلوم الاجتماعية عندما رشحته جامعة عين شمس عام ١٩٦٠ لنيلها، أي قبل وفاته بنحو عام، وكان قد دعا أستاذه توينبي إلى مصر لقضاء عطلة الشـتاء، لكن القَدَر لم يمهله فتوفي في أكتوبر عام ١٩٦١ بعد مرض قصير، فرثاه أسـتاذه بمقـال في جريـدة «التيمز» رثاء علميًا رفيعًـا فور علمه بوفاته، وعندما جاء إلى مصر شـارك في حفل تأبينه بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

مؤلفاته وآثاره :

لـم يترك غربال مؤلفات كثـيرة، رغم أنه عاش مؤرخًا ومات مؤرخًا، لقد تعرض لما تعرض له أمثاله من مناصب قيادية تسعى إليه ولا يسعى إليها، ولكنه كان يأخذ ذلك بشىء من الرفق، ولم ينس أو يتناسى جذوة المؤرخ الكامنة فيه. لقد كان مؤمنًا بأن تعليم ومحاورة تلاميذه أكثر أهمية من تأليف الكتب، فأصبح أبرز تلاميذه أعلامًا في المدرسـة التاريخية الحديثة وهم : أحمد عزت عبـد الكريـم ، وعبد العزيز الشـناوي ، ومحمد رفعت رمضان ، وأحمد الحتة ، وحسـن عثمان ، وعلي الجريتلي ، ومصطفى عفيفي ، وأبو الفتوح رضوان ، وإبراهيم عبده ، وغيرهم.

ويُعَدُّ شفيق غربال أبرز روَّاد المدرسة العلمية الحديثة لكتابة تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تلك المدرسـة التي برز منها الدكتور محمد صبري «السـوربوني» والأسـتاذ محمد رفعت، ممن تلقوا دراسـاتهم العليا فى أوروبا خلال العشرينيات وعادوا ليعملوا بالجامعة المصرية وليؤسسوا جيلًا مـن المؤرخـين الأكاديميين، وإن كانوا قد تأثروا بالفكر الليـبرالي وما يرتبط به من تمجيد لدور الفرد ودور الصفوة أكثر من تأثرهم بالمدرسة الاجتماعية التي كانت قد برزت في حقل الدراسات التاريخية منذ أوائل القرن العشرين.

وتتمثل أهمية شفيق غربال في حركة التفكير التاريخي في مصر في أنه يمثل نقلة لها وزنها، وفى أنه ترك انطباعات حية فى تفكير ونهج من تتلمذوا عليه، لقد كان يمثل في حد ذاته - وفقًا لما قاله عنه الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى - ثورة فى المنهج التاريخى في المشرق العربي، فهو يتميز بذهن ذكي غني بشتى المعلومات، وقدرة على التركيز والتلخيص وعلى التحليل و التركيب إلى جنوح للتعميق المتوغل إلى واقعية ساطعة ودقة في النقد. لقد كان غربال بعيدًا كل البعد عن المنهج الكلاسيكي الذي درج عليه كتاب السير والتواريخ والمغازى والخطط والآثار والتراجم فى العالم الإسلامي : سند دراساته بتفهمه لطبيعة عمله ومدارسه في الشرق والغرب، وطعَّمه بشيء من التذوق الأدبي - الغني، مع توسيع لقاعدة المعرفة التاريخية بالأدب والفلسفة وعلوم النفس والاجتماع.

أما الدراسات والكتب التي خلفها غربال: فإلى جانب رسالته عن المسألة المصرية وصعود محمد علي والمنشورة بالإنجليزية سنة ١٩٢٨ نشر دراسته عن «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١» وذلك عام ١٩٣٢ ثم أعقبها بتحقيقه ودراسته لمخطوطة «ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين أفندى الرزنامجي» التي نشرها عام ١٩٣٦ تحت عنوان «مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨-١٨٠١».

وفي عام ١٩٤٤ نشر غربال كتابه صغير الحجم عظيم الفائدة «محمد علي الكبير» الذى قدَّم فيه دراسة عميقة لأحوال المجتمع المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، مع تقصٍ دقيق لما طرأ عليه من تغييرات كبيرة خلال هذه الفترة، لم يجعل محمد علي شخصية تتحرك فى الزمان والمكان، ولكن جعله محور لدراسات تبدأ بمصر العثمانية ثم الحملة الفرنسية، وتنتقل إلى أوربا والدولة العثمانية، ثم إلى أحوال المجتمع المصرى كما تسلمه محمد على، ثم تحول هذا المجتمع وفق ما أرتأته له مشيئة هذا الباشا، الذى استطاع إقامة سلطة مركزية تجمع كل القوى المتصارعة في إطار واحد والنهوض بحركة إصلاح وعمران واسعة فى كل المجالات، معتمدًا على القوة والعلم والمال، وليس على القوة العسكرية وحدها ، وإن أبدى غربال ميلًا نحو إنجازات محمد علي حَادَت به عن الموضوعية في بعض القضايا التي تناولها.

ومع بداية الخمسينيات انجذب شفيق غربال من دراسة القرن التاسع عشر إلى التاريخ المعاصر، فألف كتابه عن تاريخ المفاوضات المصرية – البريطانية، الجزء الأول، الذى تناول الفترة ١٨٨٢ – ١٩٣٦، ونشره عام ١٩٥٢ ولم يشأ الأستاذ أن يكتب جزءًا ثانيًا يصل به إلى عام ١٩٥٤ حيث وقعت اتفاقية الجلاء، ربما لقرب عهد المؤلف ومعاصرته للأحداث مما قد يبتعد به عن التجرد والموضوعية، لذلك ترك ذلك لتلاميذه لينجز أحدهم، وهو الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى الموضوع، عندما أصدر عام ١٩٦٨ كتابه «العلاقات المصرية – البريطانية ١٩٣٦ – ١٩٥٦».

وفى عام ١٩٥٧ ألقى غربال مجموعة من المحاضرات فى الإذاعة الأوروبية، نشرت فى أصلها الإنجليزى تحت عنوانThe Making of Modern Egypt ترجمها الأستاذ محمد رفعت ونشرت تحت عنوان «تكوين مصر» كشف فيها عن عشقه لمصر خلال عصورها جميعًا.. «مصر التى تسمو فوق هامات الحقب والعصور». وقد رصد فى محاضراته هذه موضوعات الاستمرار والتغير فى تاريخها، الحكومة والمجتمع، الإنسان والمجتمع، المدينة والريف في تاريخ مصر، مصر والعهد القديم، مصر الهللينية ومصر المسيحية، مصر والإسلام وأخيرًا مصر والغرب. وفى هذا العمل – كما يقول الدكتور محمد صابر عرب فى تقديمه لطبعة دار الكتب له عام ٢٠٠٨ – وضع غربال يده على مفاتيح الشخصية المصرية، سواء من حيث المنهج الذى استخدمه أو من حيث الموضوعات التى تناولها. تلك الشخصية التى صاغها المصريون منذ بداية تاريخهم الطويل، حيث أعادوا صياغة كل الثقافات التى مرت عليهم بما يتلاءم مع تلك الشخصية الحضارية التى أذابت ما – ومن وفد إليها ولم تذب فيهم. لقد كان غربال يرى أن «العملية التاريخية» هى نتاج تفاعل متواصل بين اختيارات واندفاعات وإنجازات «الجموع» وبين إرادات «أفراد» بعينهم يصبحون رموزًا أو قادة أو زعماء وصفوة بفضل إبداعهم لأنواع جديدة من الحلول للتحديات القائمة أو المستجدة أمام المجتمع.

* * *

وكان آخر ما نُشر لغربال كتاب «من زاوية القاهرة» الذى ضم مجموعة من أحاديثه الإذاعية الأخيرة قبيل وفاته، فقد شاءت المراقبة الثقافية بالإذاعة المصرية - التي دأبت على نشر مختارات من أحاديث كبار الكتاب والمفكرين - أن تنشر هذه المجموعة التى كان غربال قد اختار عنوانها قبل وفاته، ذلك العنوان الدال الذى يشير إلى توسط مصر العالم العربي جغرافيًّا، فهى المرآة الصادقة لظاهرة عربية عامة، ظاهرة خلاصتها تركيب عجيب بين العناصر الأصيلة والعناصر الوافدة ، فمن هذه الزاوية أطل غربال على عدد من رواد الفكر الإنسانى ممن أضاءوا للبشرية سبل الخير والحق والجمال، منذ سقراط حتى الأفغانى. وقد تناولت الأحاديث ما يتصل بالعرب وتاريخهم، فجاءت ردًّا علميًّا رصينًا على ما يُوجَّه للعرب من افتراءات، وما يُلصق بتاريخهم من أكاذيب وأضاليل للحط من شأنهم ومكانتهم فى التاريخ، فجعل الأستاذ يبرز كيف أضاف العديد من المفكرين العرب إلى الحضارة الإنسانية وتراثها الأخلاقي والعلمي إسهامات شتى.

ومما يُذكر لشفيق غربال أنه أشرف على تحرير «الموسوعة العربية الميسرة» التي أصدرتها مؤسسة فرانكلين، كما ترجم كتاب كارل بيكر عن «المدينة الفاضلة»، فضلًا عن مراجعته وتقديمه لعدد من المؤلفات التاريخية والأدبية المترجمة عن اللغة الإنجليزية.

وفيما يتعلق بموقف غربال من قضية تفسير التاريخ، فقد كان يرى أن من الإسراف وضع قانون ثابت يفسر حركة المجتمعات البشرية التي هي المادة الحية للتاريخ بمعناه الواسع، فالإنسان ليس آلة صماء يسهل التحكم فيها، فاختلف بذلك عن أستاذه «توينبي» الذي بنى دراسته للتاريخ على قانون ثابت يقوم على التحدي والاستجابة، ذلك القانون الذي لقي نقدًا رغم قيمة الجهد الكبير الذي قام به توينبي.

لقد كان غربال مدركًا لذلك، فلم يشأ أن يخضع لفلسفة تاريخية معينة، وجعل يأخذ من كل تفسير بقدر طبقًا للملابسات التي تحيط بموضوعه، وحيثما تصادفه قضية كبرى من قضايا التطور الاجتماعي، نجده يستشهد بآراء كبار المفكرين التي قد تفسر الزوايا المختلفة لهذه

القضية، دون أن يربط نفسه كليًّا بهذا أو بذاك.

لقد كان غربال دون شك على علم وثيق بأهم المناهج التاريخية وبالاتجاهات المختلفة لكبار المفكرين، لكن طبيعته السمحة واتساع أفقه وإيمانه الواضح بحرية الإنسان، جعله يتحرز من الانتماء لمدرسة معينة في تفسير التاريخ.

ذلكم هو محمد شفيق غربال، المؤرخ الأديب، والمفكر الوطني، أحد المؤسسين الرواد لنهضة الكتابة العلمية لتاريخ مصر المعاصرة خلال القرن العشرين.



غُرْبَال وتَكْوين مصـر
(مدخل إلى فلسفة التاريخ)

بقلم: أ.فايز علي
باحث في العلوم الاجتماعية

يظـل لتاريـخ كل أمة خصوصية وتفرد، وإذا أمكن إدراجه في إطار رؤية فلسـفية فإن مصر أولى بتلك الرؤية نظرًا لما يتميز به تاريخها من امتداد شاسـع وتعقد في عوامله وعناصره.وحينما يقـال مصر يتبـادر إلى الأذهان الأهرام والمعابد القديمة الفرعونية، أو منار الإسـكندرية فضلًا عن الكنائس والجوامع، وهلم جرًّا.

وحينمـا وضع مؤرخنا الكبير غربال كلمـة "تكوين" قبل "مصر"؛ فقد وعى كل تلك الهيئات المختلفـة، وشـمل كل عصور تاريـخ مصر بل ما قبل ذلك التاريخ الحافـل، فارتفع فوق كل ما قد يبدو من تعارض بين المفكرين، أو تنافس بين التيارات والأحزاب السياسية [١].

مؤرخ مصر الحديثة:

هكذا أعد محمد شـفيق غربال أو أعدّ نفسـه ليكون مؤرخًا لمصر الحديثة، تلك التي صارت مسـتعمرة بريطانيـة منذ سـنة ١٨٨٢م أي قبيل ميـلاد مؤرخنا (في سـنة ١٨٩٤)، وهو ابن مدينة الإسـكندرية ، التي سُـميت المدينـة المتاخمة لمصر كما سيشـير هو نفسـه في "تكوين مصر" [٢]. إنهـا مدينـة عالميـة (كوزموبوليتانية) بـل كانت حاضرة مصر كلهـا والعالم القديم منذ نشـأتها المعروفـة [٣]، وظلت هكذا، فلم ينل من مكانتها ظهور عواصم تالية لمصر كانت القاهـرة آخرهـا.

---

(١) عقب حادث دنشـواي سـنة ١٩٠٦م تأسـس الحزب الوطني سـنة ١٩٠٧ وأحزاب أخرى. وفي سـنة ١٩٠٨ تأسـست الجامعـة المصريـة، ممـا زاد من حراك المجتمـع آنذاك. وجاءت جنازة مصطفى كامل سـنة ١٩٠٨م لتزيد المشـاعر تأججًا. فايز علي: حادث دنشواي والشعر، الجمعية التاريخية ٢٠٠٦.

(٢) كانت هذه مقدمة لدراسـة عن "فلسـفة التاريخ" ولكنها لم تظهر. راجع: حسـام عبد الظاهر: أضواء جديدة على كتابات غربال – في تحقيقه ل: "تراث محمد شفيق غربال. البحوث والمقالات، دار الكتب، القاهرة ٢٠١٢، جا ص٢٦ .

(٣) أسسـها الإسـكندر الأكبر في شـتاء سـنة ٣٣٢-٣٣١ ق.م ، وذلك في طريقه إلى سيوة، في مكان راقودة بلدة مصرية متاخمـة لبحـيرة مريـوط، وأقام جسـرًا يربطها بجزيرة فاروس ذكرت في أوديسـا، فنشـأ عنه مينـاءان.. مجموعة مؤلفين: الموسـوعة المصرية تاريخ مصر القديمة وآثارها: العصر اليوناني الروماني، هيئة الكتاب، ١٩٧٨، مجلد ١: ج٢: ص ٤٨٨. راجع أيضًا:

J.B.Bury, A History of Greece, Mod. Libr., New York, 1927, p. 758..

آفاق فكريــة:

نعـم غربـال بجوّ أسري هانئ يدفع إلى طلب العلـم والمعرفة، بينما كانت مصر - وهو لم يزل في صبـاه - تموج بتيارات فكرية وسياسـية واجتماعية متنوعة وفق تنـوّع المرجعيات. وظهرت الجامعـة المصريـة سـنة ١٩٠٨ نتيجة لتضافر شـتى الجهـود الوطنية المخلصة على تعدد مشـاربها وانتماءاتها الفكرية [١].

ودون إسـهاب نـرى أن مؤرخنا - وهـو لم يزل بعد في طور الإعـداد والتكوين - عاصر كوكبـة مـن المفكرين والأدبـاء كانوا بمثابة المرشـدين الروحيين له. منهم مثـلًا العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل، وأحمد أمين، وقبلهم أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد، ومدرسته «المصرية» [٢].

وطبيعي أن يتأثر المؤرخ الناشـئ آنذاك بالتيـارات الفكرية المتباينة التي مثّلها أولئك الرواد منذ مطلع القرن العشرين.

ولعـل "تكويـن مصر" كان أفضل عنوان يعـبّر عن مصر آنـذاك - أي في الفترة التي بدأت آنـذاك بتعبير أدق. تلك هي الدلالة المسـتقبلية الممكنة لذلك العنـوان، وإن كان - كما تقدم - يحمل معنى شاملًا شمولية تاريخ مصر.

النزعة المصرية والتحديث:

انقلابـات التاريـخ حادّة، فمـصر - على عظمة تاريخها في مراحل كثـيرة - تصبح

---

(١) راجع: عبد المنعم الجميعي: شفيق غربال - سيرة وتحية، أيضًا:

P.J. Vatikiotis, The Modern History of Egypt, Weidenfeld Pbl., London 1969, p. 176f, 204 f.

(٢) ليسـت المصريـة تخصصًـا علميًا ولا انتماء سياسـيًا بقدر ما هي أسـاس أصيل للشـخصية، وقد نادى بها مفكرون مثل لطفي السـيد.. راجع عنه: أحمد لطفي السـيد: قصة حياتي، هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠٠؛ شوقي ضيـف: الأدب العـربي المعاصر في مـصر: ط ٧: دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٥١ ومـا يليها (مقالاته في "الجريـدة") أيضًـا:

Vatikiotis, op. cit., p. 265 ff.

مستعمرة بريطانيـة حديثـا![1] والجامعـة الوليـدة ترسـل ابنهـا إلى إنجلـترا لدراسـة تاريـخ مـصر الحديثـة واسـتجلاء أبعـاده، فيعـود غربـال لـيرود تمصـير التاريـخ.

والتمصير لا يعني مجرد إحلال أسـاتذة مصريين محل الأوروبيين الذين كانوا يدرسـون تاريخ مصر[2].

ولذا نجـد «غربـالًا » يرود أفق الحضارة المصرية التي شـهدت عظمة وتفرّدًا - في مراحل حكـم الفراعنـة - لا يكـاد يُدرك لهما شـأو. وما له لا يفعل ذلك، والعالم كله مهتم بتلك الحضـارة؟ والبحـوث والتنقيبـات عـن الآثار القديمـة تـزداد وتيرتها منذ حملـة بونابرت فصاعدًا![3].

غربال والواقعية الجديدة:

مثـل كل مـن وايتهـد (١٨٦٤-١٩٤٧) وبرترانـد راسـل (ت ١٩٧٠م) المدرسـة الواقعيـة (الإنجليزية)[4].

وأمـا أرنـولد توينـبي - الذي تتلمذ غربال على يديـه - فقد كان هبة التاريـخ، إذ أنزل مصر منزلتها اللائقة في صنع الحضارة الإنسـانية وتطويرها على امتداد التاريخ، مقدمًا رؤية فلسـفية

(١) ثمـة نظريـة جـادّة أن أول ملـوك بريطانيـا القديمة كان مصريًا أسـس مسـتعمرة مصرية هنـاك، ودفن في هرم Silbury كفرعون..

J. Ivimy, The Sphinx and The Megaliths, Abacus Pbl., UK 1974, p. 147 f.

(٢) راجع تفصيلًا: لماذا شفيق غربال من شوامخ المؤرخين؟ لأستاذنا المؤرخ العلامة رأفت غنيمي الشيخ وقد تفضّل سيادته بإدارة الجلسة التي ألقيت فيها هذه المحاضرة في الجمعية التاريخية يوم السبت ٢٠١٢/١٢/٢٩.

(٣) التاريـخ علـم موضوعي يقوم على إسـهامات الجميع مصريين وأجانـب، وغربال قدَّم موسـوعة "تاريخ الحضارة المصرية" لسليم حسن ونجيب ميخائيل وبول غليونجي وآخرين، وفي "الأدب المصري" القديم كتب سليم حسن أيضًا، وأما محمد كامل حسين فله: في الأدب المصري الإسلامي: ١٩٣٥.

(٤) فيلسـوفان رياضيان وواقعيان، اتجاههما تحرري إنسـاني. يعليان من شأن المبادرة الفردية، والمغامرة والإيمان والبطولة في نشـأة الحضارة، أ.هـ جونسـون: فلسـفة وايتهد في الحضارة، ت.ع. ياغي، المكتبة العصرية، صيدا: ١٩٦٥.أيضًا:

Kunzmann- Weiss, dtv-Atlas Philosophie, 1. Afl., dtv, Muenchen 1991, S.S. 221, 227.

للحضارة البشرية [١]".

وتعتبر دراسة غربال للتاريخ تطبيقًا لما وعاه مؤرخنا من رؤى نظرية لتفسير حركة التاريخ، وبالأحرى ظهور الحضارات وتطورها، وعلى رأسها نظرية التحدي والاستجابة" لـ: توينبي. إذ تقوم صفوة مبدعة مستنيرة بالاستجابة لتحديات الطبيعة على نحو بنّاء، قائدة خطى المجتمع نحو التقدّم. ومع فساد تلك الصفوة يحدث التدهور. فمدار الأمر إذن حول مبادرة رجال عظماء، وذلك تعبير نصادفه في "تكوين مصر" أيضًا [٢].

وبقدر أهمية تلك الدراسة بقي الاهتمام بها كبيرًا، لتعاد طباعتها مرارًا. هي لبنة مهمة في صرح كبير، فما لها ظلت باقية ولم يتطاول ذلك الصرح مثلما تطاولت صروح الكرنك وهابو؟ لا بأس "فأعظم ما ترجوه ما لا تناله – وأكثر من لاقيت من لا يوافق".

عرض لبعض قضايا الدراسة :

التاريخ يعني نقد الوقائع وتمحيصها.وإذا قارنا التاريخ بالبناء بدا لنا تاريخ مصر أشبه بناطحة سحاب بين مجموعة من العمارات والفيلات. فإذا نظرنا إلى ساكن الطابق العلوي الأحدث بناء في كل تلك البنايات؛ تبين لنا أن مسئوليته تزداد بقدر ارتفاع البناء الذي يقيم فيه، وذلك بالنظر إلى حقوق الارتفاق التي تضبط علاقته القانونية بساكني الأدوار الأخرى التي تسبقه. أما الأساس الذي يقوم عليه تاريخ

---

(١) أولى توينبي حضارة مصر وديانتها القديمة وفكرها أهمية كبيرة في: "مختصر دراسة التاريخ": A Study of History، لخصها سمرفيلد، وترجمها إلى العربية محمد فؤاد شبل.

راجع أيضًا: رأفت الشيخ: لماذا غربال؟ م.س.

راجع عن توينبي:

.Dtv. Lexikon, Brockhaus, Mannheim 1999, B. 18, S. 256

(٢) يرى ابن خلدون (ت ١٤٠٦) أن الدولة تمرّ بأطوار ثلاثة تبدأ بالقوة (العصبية) وتمرّ بالرفاهية، وتنتهي بالضعف تحلّل العصبية ونشوء دولة أخرى (كالأشخاص).لقد وضع أُسسًا نقدية لدراسة الحضارة والتاريخ، سابقًا فيكو بنحو ثلاثة قرون: عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة، ص ١١٦، ١٢٨، ١٥٢ وما يليها.

البشريـة فهـو ما قبل التاريخ [١]. ولمصر إسـهام عظيم في حضارات تلك الفترة المبكرة [٢].

وأما تاريخ مصر فيبدأ تقريبًا سنة ٣١٠٠ ق. م، باختراع الكتابة وتأسيس الدولة المركزية، وإن أضيفـت إليه فترة مهمة أطلق عليها تسـمية "ما قبيـل الأسرات"[٣]، وهي ذات أهمية قصوى، إذ أسهمت في ظهور حضارة الأسرة الأولى الزاهرة.

وتمتد الأسرات المصرية منذ حوالي سنة ٣١٠٠ ق.م إلى سنة ٣٣٢ ق.م التي شهدت غزو الإسكندر مصر، وعدّة تلك الأسرات ثلاثون، تنقسم على ثلاث وحدات رئيسية، وفترات بينية أخرى [٤].

وأما حكم إسـكندر وخلفائه البطالمة فيمتد من سـنة ٣٣٢ إلى سنة ٣١ ق.م – أي نحو ثلاثة قرون، تصبح مصر بعدها مستعمرة رومانية، منذ انتصار أكتيوم في سنة ٣١–٣٠ ق.م حتى الفتح العربي في سنة ٦٤١ م(٢١ هـ) [٥].

---

(١) يمثل آخر مليوني سنة في عمر الأرض (حوالي ٤ مليارات سنة)، ويبدأ بالباليوليتيك (العصر الحجري القديم) وهو يعاصر البليستوسـين، إذ عاش الهومينيد (أشباه البشر) ... وأما الإنسان العاقل فيقدر أنه ظهر منذ خمسين إلى مائة ألف سنة.. راجع: فايز علي: فلسفة التاريخ، القاهرة، ٢٠٠١، ج ١:ص ١٧ وما يليها، وكذا دراستنا: إنسان ما قبل التاريخ وحضاراته، القاهرة ٢٠٠٥، ٤ أجزاء، المقدمة.

(٢) فايز علي: ما قبل التاريخ: ٢: ٨١ وما يليها.

(٣) وتسـمى خطأ بالأسرة صفر، وتسـبق عصر التوحيد (الثاني) على يد مينا أو نعرمر (حوالي ٣١٠٠ – ٣٢٠٠ ق.م) ، إذ أن ثمـة توحيـدًا أول (حوالي ٤٢٤٢ ق.م) سرعان مـا انفصمت عراه. راجع: فايز علي: ما قبل التاريخ: ٣: ٢٠٤ وما يليها، فلسفة التاريخ: ١: ١٥ وما يليها. كذا دراسات:Hoffman, Baumgartel, Hayes, Adams

(٤) تلك القسـمة المعتمدة في علم المصريات الآن، وترجع إلى مانيتون السـمنودي المؤرخ المصري (ت ٢٤٥ ق.م) ، الذي فقد كتابه، ولم يصلنا إلا في إشـارات ومقتطفات لدى يوليوس الأفريقي (٢١٧م) ويوسـيفوس ت ٣٤٩م... فايز علي: فلسفة التاريخ: ١: ١٠ وما عليها. وفيه إشارة إلى:

W.g. Waddell, Manetho Classical Libr., London 1940; Emery, Archaic Egypt; s.a. Posener u.a., Lexikon der Aegyptichen Kultur, Loewit Vrlg., Wiesbaden 1960, S. 156.

(٥) في سـنة ٦٤١ سـقط حصـن بابليون (مارجرجـس الآن بمصر القديمة) وكان أكبر حصـون الرومان بمصر – في أيدي العرب، ثم فتحت الإسكندرية سنة ٦٤٢، وكانت العاصمة

C.D.G. Mueller, Grundzuege des Chrislich – Islamischen Aegypten, WBG, Darmstadt 1969, S. 144 ff.

وتنقسم الفترة الممتدة منذ الفتح العربي فصاعدًا إلى عصور إسلامية نسبة إلى الأسرات التي حكمت مصر خلالها. وتدلف مصر إلى العصر الحديث منذ نهاية القرن الثامن عشر [١]. تلك في تصورنا قسمة اعتبارية أو صورية محضة إذ لا مفرّ من تصور فلسفي محكم لمسيرة الروح المصري في الزمان حتى نصل إلى تصور مُرْضٍ في هذا الشأن [٢].

والآن نوضح كيف عالج مؤرخنا قضايا دراسته، وهي: مصر هبة المصريين، الاستمرار والتغير في تاريخ مصر، الحكومة والمجتمع، الإنسان والمجتمع، المدينة والريف، مصر والعهد القديم، مصر والهللينية، مصر والمسيحية، مصر والإسلام، وأخيرًا مصر والغرب.

أولًا- مصر هبة من؟ :

يتنازع توينبي وهيرودوت هذه الفكرة، فمصر هبة النيل عند الأخير، ظلت تضم برگًا ومستنقعات طائشة، ولم يهذّبها إلا المصريون الأوائل [٣].

كيف؟ كان تحدّي الطبيعة الجامحة إبان التحوّل المناخي الحاد في نهاية عصر الجليد. إذ سرعان ما تحوّلت مصر من غابات خضراء زاهرة إلى صحراء يشقها نهر لم يروّض بعد [٤]، ومثّل ذلك الوضع تحدّيًا وجوديًا للأقوام آنذاك.

---

(١) تبدو تسمية العصور (طولونية وأخشيدية...) غير موضوعية، والأجدر أن نبحث فيها عن ملامح التنوير أو النهضة...إلخ. وفجأة يظهر العصر الحديث (مع محمد علي أو قُبيله) وكأن لم يكن قبله أية إرهاصات. راجع عن تاريخ مصر آنذاك: Mueller, op. cit.

(٢) وفق تعريف هيجل للتاريخ، وذاك مجرد افتراض، إذ يمكن اعتماد مفاهيم أخرى.راجع:
G.W.F. Hegel, Philosophie der Geschichte, in: Werke in 20 Baenden, B. 12, 3. Afl., Suhr-Kamp, 1971, 1992.

(٣) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، مط. دار الكتب، القاهرة٢٠١١ ، فصل:مصر هبة المصريين. ولهيرودوت مقولات سائرة: مصر أم الدنيا، والمصريون أكثر شعوب العالم تقوى، وقد سبقوا اليونان إلى أعياد الآلهة واحتفالاتهم... راجع: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة : محمد صقر خفاجة، تقديم : أحمد بدوي، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٥٩ ومواضع أخرى. وعن هيرودوت: Posener, Lexikon, S. 101

(٤) يرجح أن تلك الفترة الجافة (حوالي ٨٠٠٠ ق.م) سبقتها مراحل جفاف متناثرة. فمنذ نحو عشرة آلاف سنة حدث التصحّر في مصر، ليشكّل تحديًا خطيرًا للإنسان المصري.. فايز علي: إنسان ما قبل التاريخ: ٢: ١٠٥.. ومؤلفات: رينيس، هاولز، Knapp, Petrie, Hayes المشار إليها في الدراسة.

وكانت ثمة استجابات شتى، لعل أمثلها التحوّل من حياة القنص وجمع الغذاء إلى الرعي فيما تبقى من مراعٍ في الوادي وبعض الواحات.

هنالك تجلّت أهمية الكدح في سبيل الإفادة القصوى من ذلك الشريان الحيوي، الذي فرض الوحـدة على الأهلين، فطفقوا يتعاونون في شـق الترع والمسـاقي، وردم المسـتنقعات اتقاء لشرور الملاريا والأمراض، وتوطئة لحياة المرعى ثم الزراعة [١]. هكذا فكروا في استئناس الحيوان بصورة أكبر، واستزراع النبات الذي كان ينمو بريًا من قبل [٢].

أولئـك الـرعاة (الجدد) هم الصفوة المبدعة التي عناها توينبي، وغربال بقي أمينًا لأسـتاذه، إذ يفترض أن من الرعاة من اتجه صوب الشمال، ليتلاءم مع مناخ أميل إلى البرودة مستغلًا أصواف رعيتـه من الحيـوان في صنع ملابس تقيه البرودة، وأما الذين اتجهـوا صوب الجنوب حيث المناخ يتراوح بين الحرارة المعقولة والمناخ الاسـتوائي أو شـبه الاسـتوائي؛ فلا شـك أنهم استحدثوا من المأوى والملبس ولوازم الحياة ما يلائم ذلك المناخ [٣].

وإذا كانت المبادرة المناسبة تسعف صاحبها، فلا شك أن انعدام المبادرة الملائمة أدى بأصحابه إلى الفشل، فلم يبحثوا عن مكان جديد، ولم ينجحوا في تغيير أساليب حياتهم، فواجهوا الردى. وتلك الرؤية في تصوّرنا - لا ترفض القدر ولا تعاديه، فالإيمان بالقدر يدفع صاحبه إلى العمل إذا كان ذا همّة، وإنما التذرّع بالقدر المجهول هو الذي يقعد بالكسول.

---

(١) راجع: سـليمان حزين: البيئة والإنسـان والحضارة في وادي النيل الأدنى - في: تاريخ الحضارة المصرية، النهضة المصرية، مجلد ١، ص ٣٥ وما يليها، وله أيضًا: حضارة مصر - أرض الكنانة، ط١، دار الشروق، القاهرة ١٤١١/١٩٩١ وأيضًا: بريسـتد (جيمس هنري) : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة : حسـن كمال، ط١، وزارة المعارف، القاهرة ١٩٢٩، ص ١ وما يليها.

(٢) شـهدت تلك الفترة اسـتخدامًا موسعًا للآنية الفخارية لحفظ الطعام وطهيه، وتطور معدّات الصيد أيضًا.. فايز علي: ما قبل التاريخ: ٢: ١٠٥ وما يليها. وقد شـهر تقسـيمان للحضارة وفق آثار الفخار لـ: Petrie, Kaiser ، أيضًا مادة فخار - لدى: سونيرون وآخرين: معجم الحضارة المصرية، ترجمة : أمين سلامة، هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠١، ص ٢٥٢.

(٣) غربال: تكوين مصر، ط. هيئة الكتاب ١٩٩٠، ص ١٨.

ونضيف كذلك أن حضارات ذلك العصر – وهي تدخل غالبًا في العصر الحجري الوسيط – تنتشر معظم مواقعها في الواحات الكثيرة التي بدأت آنذاك تجتذب الرحّل، بما ضمته من مصادر الحياة وأهمها الماء لتجتذب إليها الحيوان والبشر جميعًا. والواحات آنذاك كانت أكثر عددًا وأوسع نطاقًا من الآن. وأما في الوادي فمواقع السبيل بكوم أمبو، والشيخ فضل بمصر الوسطى، وفي الكاب قرب إدفو، والمحلات القارونية بالفيوم، وفي حلوان أيضًا [١].

هكذا تجلّى دور القلة الخالقة في نشأة المدنية بتعبير توينبي. "وليكن التفسير ما يكون، فإن مصر، مصر التي تشكلت على هذا النحو المفاجئ المثير، قد سيطرت هي أيضًا على مصائر أبنائها، واقتضتهم ثمن بقائها على الشكل الذي صنعوه. هذا هو موضوعنا" [٢].

ولعلنا نقول إن الحضارة نشأت في مصر مزاجًا بين إرادة البشر والحتم الجغرافي، متمثلًا في النيل وعوامل المناخ الأخرى، فلم تكن مصر أبدًا هبة النيل وحده بل هبة المصريين أيضًا.

ثانيًا- الثبات والتغيّر:

هما مبدآن متناقضان لكنهما متلازمان، وقد تنازعا تيارات الفلسفة ومدارسها منذ القدم. وإذا كانت الطبيعة مبدأها الحتمية؛ فإن الروح – كما يقول هيجل – جوهره الحرية [٣].

وإذا كان الحتم الطبيعي قد يعني اطراد ظواهر الطبيعة حتى تبدو ثابتة؛ فإن الحرية تعني التغيّر فيما تعني.

---

(١) كان للشرق الأدنى دور كبير في حضارة تلك الفترة، فعرفت مثلاً الحضارتان النطوفية والغسولية في فلسطين. راجع: فايز علي: المرجع السابق: الموضع نفسه .

(٢) غربال: تكوين مصر ٢٠١١، ص٩.

(٣) توجد هذه القسمة الثنائية أيضًا عند كانط (ت ١٨٠٤م) سلف هيجل العظيم. إذ تسود الضرورة عالم الفينومينا (الظواهر) ولاتوجد الحرية حقًا إلا في عالم النومينا (الحقيقة) الذي لا يدركه إلا العقل العملي (الضمير). عن كانط:

I.Kant, Werke in 12 Baenden, Suhrkamp,Frankfurt,s.a.Atlas Phil.,E.R Sandvoss,Geschichte Der Philosophie,dtv Vrlg.,Muenchen1989, B. I, S. 48, 91, u.s.w.

وما انفك باحثو الحضارة يتحدثون عن الثابت والمتغيّر [١] ويعرض مؤرخنا غربال لتصورات فلاسـفة التاريـخ والحضارة مثل كونت وشـبنجلر، ويعتمد – مرة أخـرى – منهج توينبي، الذي عدّله باريتو وغيره من فلاسفة الاجتماع.

ولا يلتزم مؤرخنا– عن حق – بمفتاح واحد بل يحتفظ بسلسلة من تلك المفاتيح والمداخل لفهم نشـأة الحضارة المصرية وتطورها. فما النتيجة؟ جملة اسـتنتاجات جديرة بالمدارسة. حينما زار إرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢م) مصر تفقد كشوف مارييت باشا الأثرية العظيمة [٢]، ولكن ماذا قال عنها؟ قال: "إن مصر ولدت شيخًا هرمًا. ومن الملائم ألا يبقى الإنسان شابًا طول عمره، ولكـن ليس مـن الطبيعي ألا يمر الإنسـان بمرحلة الشـباب"[٣]. قول معنـاه أن الثبات جوهر الحضارة المصرية، منذ نشأتها، فأساليب معيشة الفلاح في القرن التاسع عشر لا تكاد تختلف عن تلك التي اصطنعها أسلافه منذ ألوف السنين. ودلالة ذلك أن لا تطور ولا ابتكار [٤].

ونظرًا لتعصب رينان للحضارة الهللينية ومقولات فلاسـفتها ومن جاء بعدهم من مفكري أوروبـا؛ يبـدو من المفهوم أن يقول عنه غربال: "وخلاصة مـا رأى [أي رينان] في مصر القديمة

(١) مثل جوستاف لوبون (١٨٤١ – ١٩٣١) الذي أعلى من شأن العقل الجمعي وأثره في سـلوك الأفراد ناحيًا نحو الفلسفة الوضعية، ومن العوامل الثابتة أيضًا الأرض والإقليم والمناخ والعرف وعوامل الجغرافيا، وأما المتغيّر فيشمل عوامل كالهجرة والغزو والآراء الدينية: لوبون: سرّ تطور الأمم، ترجمة: فتحي زغلول، دار الفرجاني، القاهرة، ص٩، ٢١، ٤٨..

(٢) كان مارييت رئيس هيئة الآثار، وأشرف على تنقيبات عدّة في معبد حور بإدفو والسـيرابيوم بسـقارة، وأسـس المتحـف المـصري (القديـم) ، ولما توفى سـنة ١٨٨١ تم دفنه في حديقـة المتحف المصري بالتحريـر وإقامة تمثاله الكامل واقفًا أمام قبره. راجع:

J.P. Corteggiani, Das Museum Kairo, Nottbeck Vrlg., Koeln 1978, S. 9 ff.

(٣) غربـال: تكويـن مصر، ٢٠١١، ص ١٤-١٥ وعن مارييت و رينان ورحلته إلى مصر (١٨٦١ ثم ١٨٦٤م) راجع: ثروت عكاشة: مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء القرن ١٩، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ج١، ص ٢٦٩.

(٤) يمكننـا الـرد على رينـان بالإشـارة إلى إبداعات المصريـين الأدبيـة ذات الاتجاهات والأنـواع المتباينة مثل تعاليـم الوزيـر بتـاح حتب (حوالي ٢٥٥٠ ق.م) والملـك خيتي الرابع (حـوالي ٢٠٧٠ ق.م) وبردية اليائس من الحيـاة...وهي نمـاذج صارخـة للتجديـد والنقـد... فايـز علـي: الأدب المـصري: ج٢.

H. Brunner, Altaegyptische Weisheit, WBG, Darmstadt 1988.

أيضا: سـليم حسـن: الأدب المصري القديم، ١٩٤٥، كتاب أخبار اليوم، عدد٢ ، ديسـمبر١٩٩٠، ج١.

أنها حضارة قيّدها الاستبداد الدينيّ والسياسي"[١]. ولا عذر لدى رينان – في تصورنا – في ضوء تلك الكشوف الباهرة من آثار مصر، التي نالت تقدير شمبليون وعلماء الآثار المصرية لا سيما الفرنسيين منهم إلا أن يكون التعصب رائده [٢].

ولذلك يفنّد غربال – عن صواب – مقولة رينان غير المنصفة وأضرابها، فيوضح أن الأهرام والمعابد والمقابر المنيفة إن عبّرت عن نضج الحضارة – لا شيخوختها؛ فلقد سبقتها أطور من حضارات ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات [٣].

ما أجمل رد غربال ! والحق أن البحث في حضارات ما قبل التاريخ مهم بل واجب حتى نفهم كيف ظهرت حضارة الأسرات، بيد أن ثمة صعوبات كثيرة تكتنف ذلك البحث، ومن أهمها عدم وجود وثائق إذ أن الكتابة لم تكن قد اخترعت بعد [٤]، فضلاً عن قلة آثار تلك الفترة نظرًا لتعرّضها لعوامل الفناء والضياع .

ويعبر مؤرخنا سريعًا من العصر العتيق والدولة القديمة إلى عصر الانتقال الأول فالدولة الوسطى، التي تنتهي بحلول الهكسوس على سدة الحكم، وطردهم، وبذا تقوم الدولة العالمية

---

(١) غربال: المرجع السابق: ص ١٥ وما يليها.و كذا اعتبر رينان فلسفة المسلمين مجرد فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية تعصبًا للجنس الآري.

(٢) كان تفسير الهيروغليفية خطوة أساس لفهم الحضارة المصرية.. وقد أسهم فيه تسويجه وأكربلاد وتوماس يونج وغيرهم، ولكن شمبليون كان أسعدهم حظًا.راجع:

B. Walterson, Introducing The Egyptian Hieroglyphs, Edinburgh, Posener, Lexikon, S. 103.

فايز علي: اللغة المصرية وكتابتها الهيروغليفية، القاهرة ٢٠٠١

(٣) ما قبل التاريخ يشمل: العصر الحجري القديم منذ نحو مليوني سنة، وعصوره الثالث أو الأدنى: حتى (حوالي ١٠٠٠٠٠ ق.م) ، الثاني أو الأوسط: حتى (حوالي ٤٠٠٠٠ق.م) ، الأول أو الأعلى: حتى (حوالي سنة ٨٠٠٠ ق.م) ، العصر الحجري الوسيط (٨٠٠٠ – ٥٠٠٠ ق.م) والعصر الحجري الحديث (٥٠٠٠ – ٣٨٠٠ ق.م) وأما ما قبل الأسرات فيشغل فترة تقريبية من (حوالي سنة ٣٨٠٠ إلى ٣١٠٠ ق.م). وفي ذلك الإطار تشعبات وأقسام عدّة .

(٤) عرفت الكتابة الهيروغليفية في الأسرة الأولى. والرأي أن ثمة مراحل تمهيدية سبقت ظهورها في عهد ما قبيل الأسرات، وتلك استنتاجات مبنية على ما تجود به الحفائر.. كما فعل Breasted, Petrie, Kaiser, Dreier... ممن أشرنا إليهم ومؤلفاتهم في: ما قبل التاريخ .

(الدولة الحديثة) التي يُسميها مؤرخنا الإمبراطورية، ويقسمها آخرون إلى إمبراطوريتي التحامسة (الأسرة ١٨) والرعامسة الأسرتين (١٩، ٢٠)[١].

ويفسّر ثورة إخناتون الدينية بأنها كانت محاولة (الروح) للبحث عن الهدوء والطمأنينة المفتقدين رغم إنجازات (الإمبراطورية) العسكرية وثرائها المادي[٢].

كذلك يرى أن ما تبقى من مصر في عصر الأسرات الأخيرة (من الأسرة ٢٠ حتى ٣٠) كان نواة متحجرة، نظرًا لثبات النظام الاجتماعي القائم على ضبط النيل، وانطواء مصر على نفسها بينما طفق العالم يتغير من حولها. ويمهّد بذلك كله لمعالجة مقدم الإسكندر الأكبر[٣].

ونقرّر إجمالًا أن الدولة الحديثة لم تقم على التوسّع الهجومي، ولذا فهي تختلف – في تصوّرنا – عن إمبراطوريات الإسكندر رغم فكره الإنساني المتطور والرومان من بعده، وكذا الإمبراطوريات

---

(١) يعتبر بريستد – عن حق – أن منخبررع تحتمس الثالث (من ٣ مايو ١٥٠١ق.م – ١٧ مارس ١٤٤٧ وفق بريستد) أول رجل يؤسس إمبراطورية على وجه الأرض. وقد استكمل بالطبع جهود أسلافه، ولكنهم جميعًا لم يستهدفوا التوسع في ذاته بخلاف بونابرت مثلًا. وقد أحسن صنعًا مؤرخنا إذ لم يلقب تحتمس بنابليون مصر. ويدخل في فترة حكمه المديدة عهدا تحتمس الثاني وحتشبسوت، وثلاثتهم إخوة غير أشقاء، وأبناء تحتمس الأول وفق بريستد أيضًا: تاريخ: ص ١٧٣، ١٨٨ وما يليهما، وعن تاريخ مصر آنذاك:

E. Hornung, Grundzuege der Aegyptischen Geschichte, WBG, Darmstadt 1978, 2. Afl., S. 72 ff.

(٢) وإن ترتبت على انتصارات التحامسة والأمنحتبيين وغيرهم غنائم وثراء، فإن حضارة مصر آنذاك كانت لها ركائزها المعنوية الروحية وفي صلبها عقيدة الخلود التي تجلى صراع الخير والشر الواقعي، وهو ما يعكس عدم طمأنينة المرء في الدنيا، بينما تقدم كتب الآخرة فلسفة عميقة في انتصار الخير أخيرًا، و تلك هي الطمأنينة الحقة. راجع دراما الصراع في:

G. Roeder, Urkunden zur Religion des Alten Aegypten, 1 Afl., Eugen Vrlg., Duesseldorf 1978, S.120.

(٣) لذلك قدمت شعوب البحار عن مصر صورة شعب متجهم على غير الحقيقة كما يرى مؤرخنا عن صواب. وشعوب البحار ظهرت حوالي ١٢٠٠ ق.م فصاعدًا لتقضي على الإمبراطورية الحيثية، ومنهم الدانان والشردن السردينيون؟ والتشكل صقليون؟ والترشو أجداد الإتروسكان؟ والبرشت فلسط والأخيرون من أصل إيجي.. راجع: كوتريل: الموسوعة الأثرية العالمية، ترجمة :محمد عبد القادر، هيئة الكتاب ، القاهرة، ص ٥٠٥-٥٠٦.

الأوروبية الحديثة.

أما مقبرة سيتي الأول (حوالي ١٣٠٩- ١٢٩٠) :فيضرب بها مؤرخنا المثل لحال عدم الاستقرار التي اعترت الروح المصري آنذاك، بيد أننا نرى في نقوشها تصويرًا لصراع الحياة الأبدية وعوامل الفناء، وذاك صراع أصيل أدركه المصري في "كتب الآخرة" قبل هيراقليط بأزمان، الأمر الذي يعلي من شأن الفلسفة المصرية (القديمة).

كما أن انتساب ذلك الملك العظيم إلى ست(إله العواصف والصحراء) عبّر عن رؤية سياسية مهمة، وذلك أنه كان حامي البلاد ضد القادمين من الصحراء، وهم أعداء مصر[١].

وعهد سيتي مهم جدًا لأسباب منها أنه جاء بعد أزمة العمّارنة بنحو نصف قرن ليعلن عن إعادة الميلاد (وحم مسوت) renaissance أي عصر النهضة. وقد كان في جانبه الحربيّ محاكاة أمينة لجهود تحتمس الثالث (ربما كان أعظم الفاتحين القدماء) ، وفي جانبه الحضاري إحياء للعمارة الرشيقة والفنون المتقنة (معبد أبيدوس) واستتبابًا لعقيدة آمون – رع[٢].

ثالثًا- الحكومة والمجتمع والإنسان:

لعل أبرز ما يميز النظام الاجتماعي في مصر هو المحافظة التي تتجلى في التقاليد والعادات الراسخة، التي يبدو أنها لا تكاد تتغير عبر الأجيال، وإن تغيرت ففي بطء شديد. ومعنى ذلك أن إلزام المجتمع يصير مقدمًا على التزام الفرد.

---

(١) سيتي أي المكرّس ل (ست) ، وقد أنزل رع منزلة عالية.. بقيت مومياؤه مفخرةً لخبراء التحنيط القدامى، إذ يبدو كالنائم ليشهد بعظمة مصر.. فايز علي: التحنيط ودلالاته الفلسفية والتاريخية، محاضرة بقصر ثقافة هليوبوليس ١٩٩٣.أيضًا:

A.- P. Leca, The Cult of The Immortal, New York.

(٢) في الجيل السادس بعد أخناتون الذي نحىّ آمون جانبًا، وأحلّ محلّه أتون.ويقال – بترجيح مقبول جدًا – إن معبدي أبو سمبل بُدئ في تشييدهما في عهد سيتي إ، وإن استكملها ابنه رمسيس الثاني، الذي ضحى بالإتقان الذي تتسم به عمارة سيتي، لينشر منشآته في كل مكان. وأما معبد أوزير بأبيدوس فمن أعاجيب العمارة في العالم. راجع:

A. Zayed, “Abydos”, EAO (Egyptian Antiq. Org.), Cairo.

يمهـد مؤرخنـا بتعريفات علماء الاجتماع للوحدات التي ظهـر منها الاجتماع البشري منذ فجـر الحضـارة[١]. ويخلص إلى أن الفـرد – وإن كان عماد المجتمع في مـصر – فقد كان ضحيته أيضًـا، ويصـدق هـذا – من وجهة نظـره – في العصور الأولى؛ حيث ولي الحكـم ملوك آلهة ثم أتباعهم أنصاف الآلهة أو أشـباههم، وحتى في عصر الديانات السـماوية، فـ « العقيدة الدينية لم ترجح كفّة الفرد كما كان ينبغي لها أن تفعل»[٢]، وذلك أن أولي الأمر كانوا هم «من يملك وسائل فرض الطاعة على الرعية » ، كما أنهم افترضوا جموح الطبيعة البشرية نحو الشر.

ولعـل مؤرخنـا قد اعتمد – ضمنًـا – منهج الأطوار الثلاثة، الذي يفـرّق بين حكومة الملوك الآلهة (سواء الفراعنة أ وخلفائهم من البطالمة والقياصرة) وحكومة الشرع السماوي (المسيحية والإسلام) ثم الحكومة الوضعية وفق أحكام العقل البشري[٣]، وإن كان قد أقر مبدئيًا أنه لا يجوز اصطناع مقاربة واحدة لتفسير التاريخ كله.

ويقـف مؤرخنـا مليًـا بمسـألة مهمـة، وهي تحقـق الوحـدة المصريـة الأولى بين مملكتي الشـمال والجنـوب[٤]. فـيرى عـن صواب – ربمـا – أنها تمّـت صلحًا لا قسّرا كمـا يصوّر البعـض[٥]. وكانت اسـتجابة عظيمة لتحدّي الطبيعـة وعمادها النهر (فيضان النيل وتحاريقه ونـدرة المطر...إلخ) ولولا

---

(١) مثـل البطـن والمعشر والقبيلـة و عصبة القبائل. وتلك التجمعات البشرية نشـأت عنهـا المحلات الأولى التي تطورت عنها القرى والمدن والأقاليم. راجع: أحمد الخشاب: علم الاجتماع ، القاهرة١٩٦٣.

(٢) غربال: تكوين ١٩٩٠، ص ٤٧.

(٣) كمـا فعل أوجسـت كونـت (ت ١٨٥٧) أحد ممثلي الفلسـفة الوضعيـة: Positivism، وهي من المذاهب المعارضة للميتافيزيقا. وقسمته داحضة، فحضارة مصر القديمة قامت على علوم متطورة تعزّ محاكاتها حتى في عصرنا هذا، فكيف ندخلها قسرًا في مرحلة الميتافيزيقا أو الأسطورة..؟ راجع عن كونت والوضعية: dtv-Atlas, S. 165 f.

(٤) هي في الواقع الثانية، إذ سبقها عصر الاتحاد الأول حوالي سنة ٤٢٤٢ ق.م بزعامة المعادي كما وضحنا.

(٥) غربـال: تكويـن: ٣٧. واسـتنتاج مؤرخنـا يبـدو سـليمًا، وأمـا المعارضـون فيذهبـون إلى أن نعرمـر قـد صـوّر على لوحته وهـو يقمع أعـداءه من أهل الشـمال أي الدلتا وذاك تفسـير قسري. يراجـع:
Hayes, Most Ancient Egypt, Chicago 1965; G. Maspero, Geschichte der Kunst in Aegypten, uebz. Rusch, 2. Afl, Hoffm. Vrlg. Stuttgart, S. 23.

تلك الوحدة الطوعية لتعثرت جهود ضبط النهر وتقويم واديه الذي كان يعجّ بالمستنقعات والأحراش.

بيد أن القول إن مصر سادها حكم مركزي (مطلق في أغلب الأحيان) - كما يذهب مؤرخنا - فيه نظر. فلم يكن أبناء الشمس من ملوك الأسرة الخامسة مثلًا يتمتعون بسلطان أسلافهم: سنفرو وخوفو وخفرع من الأسرة الرابعة ولا أسلافهم من الأسرات الأولى وبعد نهاية الدولة القديمة سادت فوضى عارمة، وإن أسفرت عن قيام حكومات محلية لم تتمتع بسلطة مركزية بما في ذلك أسرة أهناسيا القوية (الأسرتان التاسعة والعاشرة)[١].

كذلك لا يمكننا الزعم بأن الدولة الوسطى تمتع ملوكها بسلطة مركزية مقارنة بالأسرة الثالثة أو الرابعة مثلًا، بل كانت أقرب إلى اللامركزية وهلم جرًّا[٢].

وصفوة القول إنه لا يوجد نسق واحد يمكن أن تندرج فيه كل فترات التاريخ المصري وعصوره، وهذا ما نخالف فيه أستاذنا.

ويبدع مؤرخنا فيقول عن حكومة مصر (الفرعونية) وهو يناقش آراء رينان: «إنها كانت حكومة الفنيين. والفنيون يكونون إذن أول طوائف مجتمعنا المصري»[٣]. وكيف لا يكونون كذلك، والمعبود بتاح - إله الدولة القديمة أيضًا - كان ربهم، أي رب الحرفيين والصناع؟[٤] وكان

(١) وهي من أثرى فترات التاريخ بالأدب والفكر السياسي، مما يثبت أولية مصر على اليونان مرة أخرى. وقد وضحنا ذلك في: تعاليم الملك الفيلسوف - فلسفة السياسة قبل أفلاطون وأرسطو، القاهرة ٢٠٠٥، أيضًا في فلسفة تاريخ مصر: ج٢، ص١٠٤. أيضًا: Brunner, Weisheit, S.S. 137 ff, 358-367.

(٢) أغفل بعض مفكري الحضارات - مثل راسل وتوينبي التباين الظاهر بين مراحل التاريخ المصري (الفرعوني) مما أضر باستنتاجاتهم الكلية على نحو ما وضحناه. وللأسف أن مؤرخنا تابع ذلك هو وبعض المفكرين مثل جمال حمدان في: شخصية مصر.

(٣) ذاك أبلغ رد على أندريه ريمون - وهو مؤرخ عظيم أيضًا؛ إذ يقول: إن مصر لم تعرف نظام الطوائف المهنية قبل العصر العثماني في: الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن ١٨، ترجمة: ناصر إبراهيم - باتسي جمال الدين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥، ج ٢ ص٧٣٤؟ هنالك تتضح أهمية الرؤية الكلية لتاريخنا.

(٤) تلك من الملاحظات المفيدة للمؤرخ. راجع: Ivimy, op. cit., P40. وتوضح فائدة القراءة التأملية للتاريخ. عن المعبود بتاح: Posener, Lexikon, S. 205 f; Roeder, op. cit.,S.57ff.

منهم بالطبع مخترعو الكتابة [١].

هكـذا ظلـت الوحدة قائمـة على التركيب بين عنصرين أو أكثر. فالتـاج مركب من تاج الشـمال الأحمر وتاج الجنوب الأبيض [٢]. وهناك الشـونتان والفيلقان في (الجيش الموحّد)، ومقبرتا الشـمال والجنـوب (لفرعـون)، والمعبودتان الحاميتـان للمملكتـين، ونباتا البردي واللوتس الرمزيتان..

ويدعـم مؤرخنـا مبدأ المحافظة مرة أخرى، إذ عمد فرعـون - في رأيه - على تقريب حديثي النعمة ورفعهم، كما أوصد أولئك الفنيون الأبواب أمام الدخلاء، وهكذا حافظ النظام على بقائه وبالأحـرى جمـوده [٣]. وظلت القلّة تسـتأثر بنتاج الغالبية من الكادحـين، وإن عنيت الحكومة بالقوانين «لكفالة حسـن السلوك والسـيرة القويم». وأما في عهود البطالمة والقياصرة فقد عمّت البلوى، واستشرى الاستغلال، فلم يجن الأهلون من النظام القديم إلا مساوئه.

ومـن جانبنـا نقدّم نمـاذج داحضة لذلـك التصوّر الذي ينـال في الواقع قبـولًا لدى مفكري الحضارات والاجتماع, منها مثلًا أدب عصر الانتقال الأول، الذي يعلي من شـأن الفرد وفكره، ويثـور بالأفكار والمعتقدات الموروثة، فيطرح الشـك فيها علانية، ويحض إما على تشـاؤم مفرط أو تفـاؤل يقـود إلى اغتنـام الملذات [٤]. كذلـك لا يمكـن أن تدخـل نماذج النحـت الإبداعية

---

(١) كانـت حرفـة الكتابة عالية المنزلة (راجع تمثالي الكاتب باللوفر والمتحف المصري). إلخ. وتعاليم خيتي بن دواو. إف راجع:سليم حسن:الأدب: ١:٢٢ Maspero, op. cit., S. 87 ff

وظلت الكتابة حرفة في التراث العربي أيضًا (كتاب الصناعتين - أي النثر والشعر - للعسكري مثلًا) .

(٢) ظـل للونـين رمزيتهمـا الطاغيـة عبر تاريخ مـصر، فالأبيض أوزيـر والأحمر سـت، والقاسـمية والفقارية من (المماليك) حتى الزمالك والأهلي عن التاج المزدوج راجع مثلًا: Posener, Lexikon, S. 138.

(٣) لـم يكـن إيمحتـب ولاحم يونو(معمارا زوسر وخوفـو) ولا أضرابهما من حديثي النعمـة، ولا كاجمني أو بتاح حتب.. وأين نظراء نعرمر أو خع سـخم وي أو سـنفرو أو أمنمحات أوسـنوسرت.. إلخ. بين ملوك العالم؟ راجع عنهم: Posener, Ibid.و مراجع أخري عن تاريخ مصر: بريستد،سليم حسن, زايد...

(٤) برهنّـا في: فلسـفة التاريـخ: ج٢: ص٤: أو مـا يليهـا، ودراسـات أخـرى على سـبق أولئـك الأدباء لسـارتر وكاميـه ومفكـري الوجوديـة والمذاهـب الحديثة.وكذا دراسـتنا عـن: الثـورة الاجتماعية-مؤتمـر الجمعية التاريخية:أبريـل٢٠١٢.

مـن الدولة الوسـطى وفترة العمارنة. بل حـتى من الدولة القديمة والدولـة الحديثة في باب الفن التقليدي الجامد أبدًا. من تلك تماثيل أوسركاف من الأسرة الخامسـة أو سـنوسرت الثالث من الأسرة الثانية عشرة، وهلم جرًّا[١].

ولا غـرو أن تمتـد مـصر بفكرهـا وحضارتها إلى خارج حدودها في كل اتجاه بالعلم ثم لا ترود مجال الحرب إلا دفاعًا ضد الغزاة، وفيها نشـأت الفلسـفة، والفكر السـياسي والاجتمـاعي، ومبـادئ الأخلاق والإبـداع الفـني والأدبي قبل اليونـان وروما وأوروبا الحديثـة[٢]. وذلـك كلـه مـا يتعـارض مـع قـول غربـال السـابق.

ويسـتنبط مؤرخنـا حكمًا عامًا، وهو أن مـصر ظلت ضيعة، وإن اختلـف لقب حاكمها أكـان سـلطانًا مـن المماليك أم واليًا لقيـصر روما.. إنـه باختصار الحكـم المطلق» والبلاء قديم قدم إنشـاء مصر»[٣]، ففرعون مصر ملك إله، توهم أنه خالق مصر، ومصر ملك خاص له، فـكان ملكًا يخـدم أهواءه ومسراته وتمجيده في هذه الدنيـا.. فلا عجب أن نادى في الملأ (أنـا ربكـم الأعلى)[٤]. وهـو حكـم يسـتند في رأينـا - إلى مقولة توينبي: «خلال الخمسـة أو السـتة آلاف مـن السـنين الماضية اسـتأثر قادة المدنيـات المختلفة بثمـرة كد الجماعات وحرمـوا عبيدهـم حقهـم فيهـا دون تـردد أو وخـز ضمـير»[٥].

ويلتحـق بالركب جمع منهم مثلًا جمال حمـدان، الذي يقول: "لا يعرف تاريخ مصر من ينكر

---

(١) تقول برانتون إن رأس تمثال سنوسرت الثالث الجرانيتية تزري برأس نفرتيتي في متحف شارلوتنبرج في برلين - حللنا الفن في الدولة الوسطى في: فلسفة التاريخ: ج٢. وقارن: Maspero, op. cit., S. 115 ff.

(٢) اعتبـار تلـك الأوليـات لمصر - عن جدارة وموضوعية لا عن تعصّب - هو لبّ التمصير - في رأينا - سـواء في الجامعة أو في مراكز البحوث أو الإعلام.. وهلم جرًّا.

(٣) غربـال: تكويـن (٢٠١١) : ٣٥-٣٨. وللأسـف أن هيجـل وصم الشرق القديم - ومصر منـه - بالعبودية، وكذا كونت. وقد فندنا ذلك في: فلسفة التاريخ: ١: ٤٦، تعاليم الملك الفيلسوف، مواضع شتى.

(٤) القرآن لم يسمّ ذلك الملك، ومن غير المنطقي الحكم على كل ملوك مصر بمثل ذلك الحكم عدم استغراق الحد الأوسط في القياس. راجع مثلًا: الأعراف: ١٠٣، يونس: ٧٥، طه: ٦٣-٦٤، النمل: ١٢-١٤، وهلم جرا.

(٥) غربال: المرجع السابق: ٣٨. وحكم توينبي أيضًا غير مبني على استدلال منطقي سليم.

أن الطغيـان والبطـش من جانب، والاسـتكانة أو الزلفى من الجانب الآخر هي من أعمق وأسـوأ خطـوط الحياة المصرية عـبر العصور"[١]... وهلم جرًّا. واسـتناد تلك الأحـكام إلى الحتم الجغرافي وسـواه ليس مقنعًا.

وإذا كانت شـؤون الإدارة والحكومة لم تبحث بتفصيل كاف بعد، فإن إصدار أحكام كتلك المتقدمة لا يستند إلى مقدمات راسخة، فما يقال عن فرعون الخروج لا يستند على وقائع – بله حقائق – تاريخية.

وأما الحكم بمقتضى "ماعت" أي العدالة فيصلح مقدمة منطقية للاسـتدلال. كذلك آيات الإبـداع في التحنيـط والبناء والفلك، وفي الأدب والفلسـفة والفكر السـياسي الاجتماعي قبل فلاسفة اليونان بقرون عديدة. ويصعب أن يكون للمرء أجداد مبدعون كأولئك الفراعنة ولا يبـاهي بهم افلماذا توجـه كل تلـك الاتهامـات إليهـم بـلا مقدمـات منطقيـة ولا مـبررات؟.

بيد أن البطالمة والقياصرة رفعوا من شأن الأغراب الذين « مارسوا شئون تجارة السلع وتجارة الفكر » . « واستنزفت دماء الأهلين إلى آخر قطرة »[٢].

ومع مقدم المسـيحية ثم الإسـلام بُعثت الشخصية المصرية من جديد، ولكن حدّ من تحرّر الفـرد إيمـان الحكم بأن الشرّ متأصّل في البشر، وأن الناس خلقوا في مراتب ودرجات متفاوتة. ورغـم صـلاح النظرية الإسـلامية في إقامة العدل والمسـاواة والتكافل؛ فقد أوجـب الواقع « أن الحكم ينبغي أن يكون في يد من يملك وسائل فرض الطاعة على الرعية » .

---

(١) في صيغـة النـصّ تجهيل لمن لا يسـلّم بحكم حمدان! وثقة بأن ما يقوله يقـين مطلق مع أنه لم يبن ذلك الحكم على أيـة مقدمـات منطقية مقنعة: شـخصية مـصر: دار الهلال، القاهرة ١٩٦٧ (عـدد ٥٠٩، مايو ١٩٩٣) ص ٥٧. والعجيـب أن يحمـل كتابه ذلك العنـوان! وقد فنّدنا دعـواه ودعاوى مماثلة في: السـلطة والحق الإلهي في مصر، مؤتمر الجمعية التاريخية، القاهرة ٢٠١١.

(٢) يبدو أن خفوت شخصية الفرد وراء حجب التقاليد والعادات الاجتماعية حدّ من الإبداع الفردي. وقد ذهب العقاد في تفسـير تخلّف الشـعر مذهبًا مقاربًا، فقد حفلت السّاحة بالعروضيين التقليديين، وأما البارودي (ت ١٩٠٤م) فقـد (بزغت مقومات الشـخصية البارودية مـن وراء حجب الأوضاع وأعبـاء العرف والاصطلاح) : العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، النهضة المصرية ١٣٥٥/١٩٣٧، ص ١٣٢.

ومـن جانبنـا نـرى أن النظريـة الإسـلامية التي يذكرهـا غربـال هي اجتهاد بشر يصيبون ويخطئون. وجميل أن نركن إلى الالتزام الخلقي بوازع الضمير لدى الأفراد، ولكن حسـن النوايا في تلك الأمور قد يقود إلى فوضى [١]. لذلك فالحزم مطلوب وإلا قوضت دعائم المجتمع.

ونؤكـد مـن جهتنا أن تاريـخ مصر منذ التوحيد الأول لم يخلُ مـن مبادرة أفراد مبدعين، منهـم مثلًا إيمحتب الذي يعزى إليه تأسـيس العمارة الحجرية، فضـلًا عن تعاليمه الحكيمة الـتي فقـدت هي وتعاليم كاجمني الأكبر (كاإيرسـو)، ولكنهـا بقيت محفوظة ضمنًـا في تعاليم الحكمـاء مـن بعده: بتاح حتب وجدف جور وخيتي وأمنمحات... حـتى آني وأمنمئوبـت [٢].

رابعًا- المدينة والريـــف :

تقدّم أن مؤرخنا ابن الإسـكندرية (المصرية أيضًا). ولعلّ عبارته الرئيسـية في هذا الفصل: أن الحضـارة المصريـة (قديمًا) ظلت ذات ثقافة ريفية بالأسـاس مما يوحي بأن ثمة تعارضًا – ولو لم يكن جوهريًا – بين الريف والحضر، مع أن الريف في اعتقادنا هو أصل الاستقرار والزراعة و من ثم الحضارة. وظهرت بنادر في مراكز الأقاليم حيث كان مقرّ إدارتها، وسـوقها ومواسـمها، وعباداتها المحلية أيضًا.

وأمـا الحضـارة المدنيـة الحقـة – أي الحضارة الـتي تنبع من حيـاة المدينة بالأسـاس – فهي الحضارة السـكندرية، وبالأحرى حضارة مصر منذ عهد الإسـكندر الأكبر. وقد نشأت بالطبع مدن أخرى غير الإسكندرية منها توليماس في الصعيد [٣].

---

(١) كما حدث في فترة العمارنة تحت حكم إخناتون للأسـف، فقد علا شـأن الأفاقين والمنافقين، ورجعت البلاد القهقري كما يتضح من مراسلات العمارنة:

Watterson, Amarna:Ancient Egypt,s Age of Revolution,Tempus Pbl.,UK1991, pp. 50, 60, 82.

(٢) راجع نماذج لهؤلاء المبدعين في: H. Brunner, Weisheit

وأيضًـا: ج. هـاري: إيمحتب,ترجمتـه هيئـة الآثار, و فيـه يظهر عبقرية أيمحتب في العمـارة و الطب و الحكمة وأسبقيته علي اسكلبيوس و إيبوقراط و جالينوس...

(٣) راجع: د. فالبيل: الناس والحياة في مصر القديمة، ترجمة : ماهر جويجاتي، ط١، دار الفكر، القاهرة ١٩٨٩، أيضًا محرم كمال: تاريخ الفن المصري القديم، دار الهلال ١٩٣٧. و قد عولجت الحياة اليومية في جُلّ كتابات علماء الآثار. منها:

Ermann – Ranke, Aegyten und Aegyptisches Leben im Altertum, Mohr Vrlg., Tuebi ngen 1943.

وأما حضارة مصر في ذلك الطور فكانت مزيجًا من الحضارات المصرية والهيللينية واليهودية، وإن ظل الريف محتفظًا بتقاليده المصرية الخالصة المستمدّة من الميراث الحضاري المصري.

ويزداد الطابع المتروبولي تأكيدًا بمرور الزمن، فقد حرص الحكام الرومان على تحويل «عواصم الولايات – تلك المدن التي كان يطلق عليها اسم « متروبوليس » إلى بلديات ذات حكم ذاتي» رغبة منهم في قهر مقاومة المصريين، إذ رابطت القوات العسكرية في الأرياف، التي خصص دخل قراها للإنفاق العسكري....إلخ. لقد تمّ إذن فرض نظام مستمدّ من نمط « الدولة – المدنية» المعروف في الحضارة الهللينية [1].

والواقع أن حضارتي اليونان واليهود اعتمدتا على التنقل إن لم نقل الترحال، ومن ثم الاقتباس من هنا وهناك، وإن ذهب بعض المؤرخين الغربيين مثل جورج جيمس إلى حد اتهام أرسطو ومفكري هيلاس (اليونان القديمة) بالسّطو على ميراث المصريين الثقافي بأوامر من الإسكندر! [2] وما يبدو لنا مبالغة بعيدة ليس إلا محاولة لتفسير ظاهرة عجيبة حقًا، وذلك أن يذيع فجأة شأن الحضارة الهللينية مع ظهور إسكندر وفتوحاته المدوية [3].

فالأمر إذن لا يعدو – عند البعض – كونه سطوًا على الحضارات القديمة، ونهب تراثها الثقافي، ونسبته إلى تلك الفئة من شعوب البحار. ولذلك فتلك الحضارة (المدنية) لم تكن إلا نسخة شائهة– وإن تكن براقة لحضارة الريف .هكذا نرى.

وآية ذلك ما يقوله مؤرخنا – ولكن في سياق مختلف – عن تطوير عبادة سيرابيس في العصر البطلمي لتكون تأليفًا بين معتقدات مصرية وأخرى هللينية، بصرف النظر عن نصيبها

---

(١) أفاض توينبي عن عبودية الحرفيين في هيلاس القديمة وتأليه المدينة – الدولة – توينبي: تاريخ الحضارة الهللينية،ترجمة : رمزي جرجس،هيئة الكتاب٢٠٠٣: ٢٠٩ وما يليها.

(٢) ج. جيمس: التراث المسروق، الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة، ترجمة. شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٥ وما يليها. راجع عن إسكندر Bury, op. cit., 675

(٣) نعتقد أن الإعجاب بالبطولة جار على الموضوعية كثيرًا في كتابة تاريخ الحضارة الهللينية وأثرها في العالم. راجع Bury, Ibid .

من النجاح [١].

كذلك حديث مؤرخنا غربال عن أون وطيبة وأخيت أتون وسواها من المدن المصرية القديمة[٢]. وإن اعتبرها مدنًا كهنوتية، فهنا موضع خلاف آخر. وذلك أن المعابد في تلك المدن المصرية كانت تضم مؤسسات المجتمع كافة، ففيها المشفى، وبيت الحياة الذي يضطلع بوظائف التربية والتعليم، وفيها المكتبات. كما تنوعت أوقاف المعابد وملحقاته من مشاغل ومصانع وضياع وغير ذلك من أصول منتجة. هكذا ظلت تلك المدن حواضر ذات إشعاع مدني بمعنى الكلمة قبل ظهور مدنية الإسكندرية [٣]. **وهنا مفرقنا عما ذهب إليه مؤرخنا غربال أيضًا.**

أما حضارة اليهود فتعبير يبدو غريبًا في سياقه، ويكفي ما عبر عنه بريستد في «فجر الضمير»، إذ يردّ إبداع العبرانيين – يعني أسفارهم المندسة – إلى تعاليم المصريين القدماء[٤]. وهذا ما سترد عنه مناقشة أكثر تفصيلًا. على أية حال كان لحضارة اليهود ـ في رأي مؤرخنا ـ أثر في تكوين مصر.

ويضيف مؤرخنا أن الرهبنة كانت رد فعل إيجابيًا، فقد عبّرت عن رفض المصريين للهيمنة الرومانية المتجلية في حياة المدينة الصاخبة، فاتجه الرهبان إلى الصحراء. ولم تكن ثورة الفلاحين كذلك إلا اعتراضًا على حياة المدينة الرومانية آنذاك.

ومع الإسلام أُعيد الاعتبار لحياة المدينة ودورها في المجتمع المصري، وإن كانت في بعض الرؤى "تفتقر إلى مراسيم إنشاء الأنظمة المدنية، ولكن مع ذلك لا مراء في أن مدينة القاهرة

---

(١) تلك كانت محاولة نبيلة من بطليموس الأول سوتير (٣٢٣ – ٢٨٣ ق.م) فأصبح سيرابيس مزيجًا من أوزير – أبيس وآلهة أخرى يونانية ومصرية:

F. Aly, Apiskult im Laufe der Aegyptischen Geschichte, Kairo 1988.

(٢) راجع: محرم كمال: مرجع سابق: ص ٨، ٤٣ وما يليهما.

(٣) راجع تخطيط أخيت. أتون تل العمارنة في: محرم كمال: مرجع سابق: ص ١٥٦ وما يليها..

Watterson, op. cit., p. 78 ff.

(٤) أشار غربال كذلك إلى نشيد أتون – قارن: بريستد: فجر الضمير، ترجمة : سليم حسن،، هيئة الكتاب: ٢٩١ وما يليها، سليم حسن: الأدب المصري (م.س) :ج٢ و ما يليها Watterson, op. cit., p. 61 ff.

الإسـلامية قامـت بنصيبهـا الأوفى في بناء مصر السـياسي.. بفضـل هيئاتها المدنيـة ومعاهدها الدينية..."[1].

ويضيـف إلى ذلـك الحركات الشـعبية وأثر الطوائـف الصوفية، وتمسّـك الأهلين بالقصص الشعبي، الأمر الذي خلق صلات قوية بين الريف والمدينة [2]. و"شهد عصرنا الاتجاه نحو إدماج المدينة والريف في فكرة المواطنة المشتركة، ونمو فكرة الدولة".

وربما لا يتسـع المقام للحديث عن ظاهرتين مهمتين هما السـوق والمولد، وما يعكسـان من سلوكيات الحياة اليومية من جهة ، وطقوس الاحتفالات الدينية من جهة أخرى. ويكفينا إشارة هيرودوت- لما زار مصر- إلى أن المصريين سبقوا اليونان. والغريب أن يحافظ المصريون على تلك الأنماط من السلوك الاجتماعي عبر عصورهم إلى اليوم [3].

ولـم يكن قصارى أمل المصري العادي أن يشـارك بالرقص واللهو في تلك الاحتفالات، بل كان له نصيـب مـن أوقاف تلك المعابـد، وحظ في رؤية تمثال (الإله) ، ونيـل الرفد والعون منه، والتماس مشورته في شئون حياته [4].

وذلك كله يدل في رأينا علي اندماج المدينة و الريف في المواطنة المشتركة منذ القدم.

خامسًا- مصر والعهـد القديـم:

ظلت سيناء عبر تاريخ مصر معبرًا للمهاجرين واللاجئين والرحّالة، أولئك الذين قدموا من آسيا غالبًا. وثمة في الوثائق المصرية ما يستنتج منه بترجيح غالب أن رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مصر لم تسبق عهد الأسرة الثانية عشرة (حوالي ١٩٩١ – ١٧٧٨) ، ولكن دون يقين جازم [5].

---

(١) غربال: تكوين مصر (٢٠١١) : ص ٦٢-٦٣

(٢) عالجنا موضوع الأدب الشعبي في دراستنا السابقة: الأدب المصري: جـ٤: ٢٠١ وما يليها.

(٣) هيرودوت يتحدث (م. س) : ١٥٩ وما يليها.

(٤) وآمن المصري بالنحوس والشعور كدأبه حتى اليوم. راجع دراستنا: معبد الأقصر، القاهرة ١٩٨٩.

(٥) أمر الرب أبراهام بالعبور (تكوين: ١٢: ١-٣) والرب أعطى الأرض لإبراهيم ونسله جميعًا – وليس أولاد يعقوب وحدهم – العلامة عادل غنيم: حائط البراق وليس حائط المبكى، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٩، ص ٩-١١.

ولـم تكن تلـك الرحلة التجارية المدخل الوحيد، بل نعلم من العهد القديم أن يوسـف قدم مصر أيضًا، وأنه صار وزيرًا لفرعون دون تحديد هويته: "فأسكن يوسف أباه وإخوته، وأعطاهم ملكًا في أرض مصر في أفضل الأرض، في أرض رعمسيس كما أمر فرعون (تكوين: ٤٧: ١١-١٢).

هكذا أكرم فرعون وفادة يوسـف وأبيه يعقوب، وإخوة يوسـف، حتى أقطعهم أفضل أرض في مدينة رمسيس في شرق الدلتا [١].

ويغلـب على الظـن أن فرعـون يوسـف كان مـن الحكام الأجانـب – الهكسـوس – بناء على حسـابات تاريخية تقريبية ، واستبعادًا لفكرة أن يسـتوزر فرعون مصري شخصا أجنبيًا، فضلًا عن الجوار الجغرافي المرجح بين الهكسوس واليهود [٢].

هذا عن مجيء القوم مصر، وأما خروجهم فيربطه مؤرخنا – على نحو ما – بزوال عقيدة أتون في آخـر الأسرة الثامنة عـشرة (١٥٧٠ - ١٣٠٤ق.م) وتحديدًا بعـد زوال حكم إخناتون (١٣٧٠-١٣٤٩ق.م) ، ذلك الملك الموحّد.

يقول مؤرخنا: « ولن تدهش إذا كان زوال سلطة عبدة أتون مرتبطًا بعض الارتباط باضطهاد بني إسرائيل في عهد الأسرة التاسعة عشرة – كما يرى المؤرخون عامة» [٣]. عبارة تعتبر اضطهاد بـني إسرائيـل واقعة تاريخية، ولكن دون دليل أو برهان في أيـة وثيقة تاريخية فيما نعلم، ودون تحديد هويّة فرعون.

---

(١) وهي أرض جاسان تك: ٤٥: ١٠، وفيها تقع مدينة رمسيس بر. رعمسيس وهي تانيس الحالية:
.Nagels enzyk lopaedie Aegypten, Genf 1967, S. 666 ff .

أيضًا: سونيرون: معجم: ص ٩٣-٩٤.

(٢) هكسـوس مدمـج مقطعـين: حكاو. خاسـوت وتعني أمـراء البلاد الأجنبية أو مشـايخ البدو، في إشـارة إلى قادة أخلاط أقوام تسللوا إلى مصر آنذاك، فهم ليسوا شعبًا بعينه – راجع:

R.M. Engberg, The Hyksos Reconsidered; Studies in Ancient Oriental Civilization, 18, Chicago: 1939.

(٣) غربال: تكوين ٢٠١١: ص ٥٣. وعن إخناتون دراسات كثيرة منها:

C.Aldred, Echnaton,Luebbe Vrlg.uebrs.J.Rehork,B.Gladbach; B. Watterson, Amarna: Ancient Egypt's Age of Revolution, Tempus Pbl., UK: 1999 .

وعلى أية حال فالربط جائز نظريًا بين الهكسوس وبني إسرائيل على نحو ما تقدّم، ولكن ذاك لا يـبرر تأخـر طرد بني إسرائيل على ذلك الحين أي ما بعد وفاة إخناتون (حوالي سـنة ١٣٤٩ق.م) إذ أن طرد الهكسوس قد تم (حوالي سنة ١٥٦٧ق.م) على يد أحمس [١]، وبين التاريخين نحو قرنين من الزمان.

ويلاحـظ غربـال أن فترة العمارنة قد عبرت عـن ثورة دينية قادها الملك إخناتون بنفسـه، وهي بلا شـك كانت ثورة شـاملة في مجالات شتى منها الفكر واللغة والأدب، والعادات أيضًا [٢]. كما يشير إلى ما تضمنه نشيد أتون من مظاهر التوحيد الإلهي. ونقتبس هنا منه:«كل أسد يخرج مـن عرينـه ليفترس، وكل الثعابين تنسـاب لتلدغ، والظلام يخيّم، والعالـم في صمت في حين أن الذي خلقهم في أفقه» [٣]، والعبارة تعبر عن العناية الإلهية، ورحمة الله بمخلوقاته في سياق وحدة الوجود Pantheism [٤].

والشـبه بيّن بين تلك العبارة، وما ورد في المزمور الرابع بعد المائة: « الأشـبال تزمجر لتخطف ولتلتمـس مـن الله طعامها » (المزمور ١٠٤: ٢١) . من هنا ندافع عـن وجهة النظر القائلة بأصالة الحضارة المصرية وسـبق آدابها في ميادين شـتى، ولذلك نخالف الرأي القائل إن « اليهود» كان لهم أثـر في الحضـارة المصرية [٥]. بـل الواضح أن بني إسرائيل هم الذين أفـادوا من الحضارة المصرية إبان إقامتهم التي دامت أكثر من أربعة قرون.

---

(١) . وذلك في عهد ملكهم أبوفيس – راجع مقالنا: "الهكسوس بين الحضارة والبداوة" – مؤتمر الجمعية التاريخية، القاهرة ٢٠١٠.

(٢) في دراستنا: الديانة المصرية: ص ١٢٥ وما يليها اعتبرنا إخناتون أبًا للتصوّف والرهبنة.

(٣) راجع نص نشيده في أتون: بريستد: فجر: ٣٠٢، ومقارنته بالمزمور الرابع بعد المائة،
Watterson, Ibid., p. 61 ff.

(٤) وتعني ألا موجود على الأصالة سوى الخالق، وإن ظهر لنا أن المخلوقات متعددة. راجع:
Hegel, Gesch. Der Phil., Reclam, Leipzig 1982, B. III, S. 217 ff.

(٥) كان بريسـتد متبحـرًا في دراسـات العهد القديم، ولما اتجه لدراسـات الشرق القديم ومـصر ردّ الفكر العبري في مجملـه لتعاليـم المصريين وحكمتهم. عمل مديرًا لمعهد شـيكاجو للآثـار الشرقية، وتوفي سـنة ١٩٣٥. راجع عنه كوتريل: الموسوعة الأثرية.

وأما اعتراف مؤرخنا – هكذا صراحة كما تقدّم في العبارة المقتبسة – باضطهاد بني إسرائيل إبـان الأسرة التاسـعة عشرة، فأمر يدعو للدهشـة [١]. ويفسرّ ذلك تفسـيًرا يبعث على الدهشـة كذلـك، إذ يقول إن الرعامسـة شـيدوا عمائر ضخمة، وقاموا بتسـخير غير الأهلـين فيها! لعله يقصد بني إسرائيل تحديدًا، بيد أنه يختصّ – على غير بيّنة – رمسيس الثاني تحديدًا [٢]. ولكن التوراة نفسـها لم تخصّه، بل ذكرت رمسـيس وحسـب دون تحديد، والرعامسـة كُثر كما نعلم.

إن الاعتراف بالسّخرة والاضطهاد عليه ردود موضوعية دون انحياز من المؤرخ لمصر القديمة. فالسـخرة كعمل شـاق بلا أجر لا دليل على ظهورها في ذلك الزمان [٣]، وأما النص الذي قدّمناه عن مجيء يوسف، وهو نص توراتي، فلا يدلّ على اضطهاد بل تكريم وإعزاز وتفضيل. وطبيعي أن يـأتي ملـك ما من بعـد ذلك، فيحـاول تقليل تلك الامتيـازات التي كانت قـد منحت لقوم يوسف. ذلك كل ما هنالك، وهو ثابت في كتابهم المقدس.

وبعـد إبراهيـم ويوسـف – يذكر مؤرخنـا كليم الله مـوسى – عليهم السـلام جميعًا، وكيـف تبنته امرأة فرعون [٤]... ويعـاود الحديث عن تعذيب بني إسرائيل، وكيف رحلوا رحيلًا عسـكريًا محشودًا. والثابت أن المتون المصرية لا تشير إلى شيء من هذا إلا إشارة عابـرة في لوحة مري. إن بتاح بن رمسـيس الثاني ، وأغلـب الظن أن فرعون الخروج – المزعـوم – لم يكن إلا حاكم إقليـم مغمورًا، وربما لم يتجاوز نفوذه إقليم شرق الدلتا

---

(١) لاحظنا كذلك إدراج اسم "إسرائيل" – مجردًا من السياق التاريخي – أو إقحام حدث الخروج ليقع وفق حسابات كتابية – في أزهى عصور مصر (تحتمس الثالث أو أمنحتب الثاني...إلخ) مثلًا:

W. Budge, The Dwellers on The Nile, Dover, New York: 1977, p. XV, XVII.

(٢) وضحنا في دراسـتنا: «خروج بني إسرائيل» تفنيد كل زعم أن يكون فرعون الخروج أحد فراعنة مصر العظام، والأرجح أنه كان حاكمًا مغمورًا في فترة اضطراب وفوضى.

(٣) فنّدنا دعاوى السخرة في: فلسفة التاريخ: ١: ٨٩ وما يليها.

(٤) في العهد القديم أن ابنته «رأت السّفط بين الحلفاء»... (خر: ٢: ٥-٦) ، وفي القرآن: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ القصص: ٩. وعن نشأة موسى:

M. Grant, Das Heilige Land, uebrs. J. Rehork, B. Gladbach 1984, S. 65ff.

على أحسـن تقدير[١].

وأمـا الرحيـل العسـكري المحشـود – في ضوء ما تقـدم – فيصعب أن يـدلّ على عناية إلهية بالقـوم بقدر ما يـدلّ على قلة إيمانهم بالله، وضعف يقينهم فيـه، فضلًا على حرصهم على إخفاء مـا سرقوه من أمتعة المصريين بدعوى الإعارة[٢].وعمومًا فقد كانت الدولة الحديثة عصر الدولة المصرية العالمية ذات الإنجازات العسكرية المشهودة.

سادسًا: مصر والهللينية:

علاقة مصر بالهللينية تبدأ قبل غزو الإسـكندر مصر سـنة ٣٣٢ ق.م، وتأسيسه إمبراطورية ضخمة، فقد قدم « المغامرون الإغريق إلى مصر تجارًا وملاحين وجنودًا مرتزقة، وقد استخدمهم (بسـماتيك٦٦٣-٦٠٩ق.م) وحلفاؤه برًا وبحرًا في قتال الأشـوريين والفرس»[٣] أي قبل الاحتلال الفـارسي لـمصر سـنة ٥٢٥ ق.م. وآنذاك عاشـت جالية إغريقيـة في نوقراطيس (كـوم القعاف) قرب صالحجر، في القرن السـابع ق.م. وجعل لهم فيها أمازيس سـوقًا خاصة بهم، وهناك شـادوا معابدهم[٤]. « وقد زار مصر مشـاهير الإغريق كأفلاطون وسـولون وهيرودوت، ولكن يجدر بنا ألا نغالي فيما أثمره هذا اللقاء من أثر ثقافي متبادل»[٥].

ورغـم الصمـت المطبق عن الفـترة الممتدة بين سـنة ١٠٨٠ ق.م (نهاية الدولة المصرية الحديثـة) وغـزو الإسـكندر مـصر سـنة (٣٣٢ ق.م) ؛ فقـد حفظـت المعـارف المصريـة

(١) فايز علي: خروج (م. س) .

(٢) وفق رواية "سفر الخروج" ذاتها. المرجع السابق.

(٣) غربـال: تكويـن (٢٠١١) : ٦١ – ٦٢. قـارن أحمد فخري. مصرالفرعونيـة ، ط٥، الأنجلو المصرية، القاهرة١٩٨١: ص٤٢٠ وما يليها، أيضًا: . Bury, op. cit., p.108ff

بل إن ثمة شواهد على أن أم الملك خفرع من الأسرة الرابعة – كانت من أصل هلليني.

(٤) تقع نوقراطيس بالقرب من سايس – مقر الحكم آنذاك. راجع: سونيرون: معجم: ٣٤٢، هيرودوت: ٤٢ (هامش لأحمـد بـدوي) ، زايـد: مصر الخالدة: ٢: ٥١٧. وأما بطليمايوس فاسـم لعدة مدن ذات حكم ذاتي أيضًا أسسـها بطليموس الأول، منها واحدة في إقليم طيبة، وثانية كانت ميناء على البحر الأحمر.أيضا: . Bury, op. cit

(٥) غربال: تكوين (السـابق): الموضع نفسـه. ولكننا نرى أن أثر مصر بحضارتها آنذاك على الإغريق والفينيقيين وشعوب البحار كان أكبر كثيرًا مما نعتقد. وهذا ما دفعنا إلى تأليف دراسة عن "الفلسفة المصرية".

الموروثة في الأوزيرياكا (محفل أوزير الأعظم) والمينيفيثون (مكتبة طيبة) وأخواتها، وأما معبد دلفي الذي احترق سنة ٥٤٨ ق.م فقد أعيد بناؤه بمنحة من أمازيس (٥٦٨ - ٥٢٥ ق.م)، وهو الذي صرّح لليونانيين بالوجود في مصر، والتتلمذ على أيدي الكهنة، وارتياد معاهد العلم [١]... وبالطبع كانت مصر في تلك القرون السبعة قد شاخت حضارتها، و"علا شأن شعوب فتية: هم الإغريق والفينيقيون والأتروريون والميديون واليهود والآراميون والرومان"[٢].

ولعل ذلك التغيّر الطارئ يفسر لنا - رغم كل الإيجاز - ظهور الإسكندرية المفاجئ حاضرة لمصر والعالم القديم، وذيوع صيت مكتبتها وعلمائها، ومتحفها أيضًا، بل وتنمحي ذكرى ما عداها! لا نعتقد أن ذلك كله تم مصادفة أو عن طريق أخطاء كزلات اللسان [٣].

إنه إذن الظهور العسكري للإسكندر، وانطواء الحضارة المصرية على ذاتها، وغلبة العنصر الهلليني غلبة سياسية مكّنته من السيطرة على مقاليد الحضارة المصرية و صبغها بصبغة هللينية. هنالك ينبغي إعادة النظر، والبحث فيما قدّمته مصر لتلك الحضارات الناشئة آنذاك، إذ لا مغالاة في ذلك أبدًا، بل الحذر كل الحذر من بخس الدور الذي قامت به مصر في ذلك

---

(١) هكذا نصحّح - في أغلب الظن - رؤيتنا لتلك الفترة، فتردّ الأمور إلى أصلها. وعقب وفاة أمازيس احتل الفرس مصر ٥٢٥ ق.م: فخري: مصر: ٤٢٨، هيرودوت:

A.T. Olmstead. History of The Perisan Empire, Uni. Chicago Prs., p. 86 ff.

وقد درج المفكرون على أن هيلاس هي مهد الفلسفة. راجع:

E.R. Sanduoss, Geschichte der Philosophie, dtv Vrlg., Muenchen 1989, B.I, S. 345 ff.

(٢) غربال: تكوين (٢٠١١) : ٦١، وقارن: توينبي: الهللينية: ١٩. ولعل مما يفسّر اضمحلال حضارة مصر آنذاك هيمنة قلّة (غير مبدعة) وانفصالها عن الجماهير، الذين تسرّب إليهم اليأس والكسل.. ونحن نرج هنا إلى تنظير برتراند راسل في: السلطة والفرد، ترجمة : لطيفة عاشور، هيئة الكتاب ١٩٩٤: ص ٣٦ وما يليها. راجع عن الهللينية أيضًا: J.B. Bury, op.cit .

(٣) توالى على حكم مصر في تلك الفترة غزاة وعداة من أشور وفارس وميديا ومقدونيا.. ويجب النظر باعتبار إلى تكوّن فئات من المنتفعين، ولعل أسوأ ما فعلوا هو جهدهم في تشويه حضارة مصر والتقليل من شأنها. وللأسف أن تلك الفترة لم تنل بعدُ اهتمامًا كافيًا. راجع عن تلك الفترة: بريستد: تاريخ: ٣٤١ وما يليها، أيضًا:
Hornung, Gesch., S. 115 ff.

السـياق. وذلك أن أرباب الفكر والفلسـفة (محبة الحكمة) قد زاروا مـصر وأقاموا بها، وتعلموا حكمـة المصريـين [١]. ولا نعتقد أنه مـن المصادفة أيضًا حرص معاهد العلـم على تلقين طلابها الفلسـفة اليونانية على أنها معرفة هللينيـة صرفة، وأن الشرق عامة – ومصر خاصة – لم تظهر بها أية فلسفة، مع ما تنطوي عليه تلك العبارة من تناقض [٢].

سابعًا- مصر والمسـيحية:

كما نشأت في مصر دعوة العهد القديم فقد وردتها دعوة العهد الجديد مهاجرة من الاضطهاد، والمسـيحية بترسـيخها مبدأ الخلود الأخروي والمحبة الإنسـانية والرحمة بالبائسـين والفقراء قد لاءمـت عقيـدة أوزير المصرية كما لـم تلائمها أية عقيـدة أخرى، وصدق قول هارتاسـك: "إن المسيحية قد لاءمت في مصر بين خصائصها وبين خصائص الدين القديم [الأوزيرية] الأساسية لمدى أوسع مما شهدناه في أي بلد آخر" [٣].

وصار لمصر كنيسة مستقلّة بعد مراحل من الاضطهاد الروماني سواء في الطور الوثني أو بعد اعـتراف القيـاصرة بالمسـيحية، وكان يوحنا مرقس أول كارز، وهو الشـهيد الذي اضطلع بعبء الكفاح من أجل نشر العقيدة في مصر وعبر البحر المتوسط [٤].

---

(١) مـدار الأمـر انحياز واضح للفكر الغربي. فحتى راسـل يكتب عن "تاريخ الفلسـفة الغربية". وقد ظل سـائدًا رد الفلسـفة إلى "هيلاس" في نشـأتها وتطورها. ونذهب إلى عكس ذلك تمامًا، فنبرهن على أن الفلسـفة نشأتها مصرية. راجع أيضًا: ج. جيمس: التراث المسروق: ص ٤٨.

(٢) تدخـل مقولـة ذائعـة عن "الاسـتبداد الشرقي" مبررًا لعدم ظهور الفلسـفة في مصر، بزعم أنهـا تحتاج إلى مناخ ديمقراطي. وقد بينا سابقًا تهافت الدعويين بإيجاز. وتحليل الديانة المصرية على نحو مغاير لما هو معهود يكشف عن أبعادها التحررية.

(٣) غربال: تكوين (٢٠١١) : ٧٣. والراجح أن نظم الرهبنة قد أفادت من الأنظمة الهرمسية الغنوصية والأفلوطينية. فايز علي: الديانة المصرية: مواضع شتى. أيضًا: Mueller, op. cit., S. 82 ff.

(٤) أعدم القديس مرقس في ٣٠ برمودة سـنة ٦٨م، ويقال إن رأسـه وسّـد الثرى في كاتدرائيته بإسـكندرية، وسرق جسـده إلى البندقية في القرن ١٣م. وضع القداس الإلهي، وهو كارز مصر وكاروزها (المبشر)، وفي روما سـنة ٦٧م أسـهم في تأسيس كنيسـتها مع بولس... باقي بشارة: معالم تاريخ الكنيسـة القبطية، مك. مارجرجس، القاهرة، ص٢٠، وما يليها. عن نشأة المسيحية في مصر: Mueller, op. cit., S. 75 ff.

وطوّرت مصر لغة تلائم الديانة الجديدة، وإن كتبت بحروف يونانية [١]. وسرعان ما استوعبت تلك اللغة إبداعات الهللينية الفكرية لاسيما الرواقية، وأضفت على مدرسة الإسكندرية مسحة غنوصية، فجمعت إلى الفلسفة التصوف واللاهوت، وشهر من علمائها كليمنتس وأوريجين [٢]. وترجمت البشائر الأربع إلى القبطية، وحفظت تراتيل الكنيسة وترانيمها المقدّسة واللغة- كما ذهب الأدباء والمفكرون - حافظة لروح الأمة.

وبعد جولات من الصراع الفكري مع كنيسة روما حول طبيعة المسيح استقلت الكنيسة المصرية بعقيدتها، وذلك في مجمع خلقيدونية [٣]، وصارت لها تقاليدها وتقويمها.

وأما الرهبنة فكانت استجابة للاضطهاد الذي عاناه المسيحيون عامة ومسيحيو مصر خاصة على أيدي القياصرة من نيرون إلى دقلديانوس، الذي يبدأ التقويم القبطي - تقويم الشهداء - ببداية حكمه [٤]، وقامت الرهبنة على تعاليم السيد المسيح التي حضّ فيها على الزهد والتقشف هجرة إلى العالم العلوي. وعلى يد الأنبا باخوم (٢٩٠ - ٣٤٨م) تأسس أول دير في العالم [٥]، وإن سبقه آباء في الرهبنة غير الديرية مثل الأنبا أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦م) والأنبا

(١) عدا سبعة أحرف (ثاي، فاي، حوري...) أخذت عن الديموطيقية وظهرت كتابتها في القرن الثاني ق.م أي قبل المسيحية، وترجم إليها العهدان القديم والجديد. من لهجاتها المنفية والفيومية والأخميمية والبحيرية... شاكر باسيليوس: موسوعة اللغة القبطية، ك١، مط. أنبارويس، ص ٦ وما يليها.

(٢) عن كليمنس وأوريجينيس راجع: Sandvoss, op. cit., B.2, SS 64 – 65.

والأنبا جريجوريوس أسقف البحث العلمي: الفلسفة المسيحية الشرقية، الكلية الإكليركية، القاهرة، ص ٤٠..

(٣) انعقدت مجامع مسكونية للجدل حول طبيعة المسيح، والأنبا شنودة (٣٣٣ - ٤٥٢) رئيس المتوحدين عاصر أربعة منها، وهي: القسطنطينية (٣٨١م)، إفسس (٤٣١م)، إفسس الثاني (٤٤٩م) وآخرها مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م الذي شهد انشقاق الكنيسة القبطية عن كنيسة روما.. نقى شنودة اللغة القبطية، وأسس الديرين الأبيض والأحمر بسوهاج، ومصر الأديرة والكنيسة. راجع: بشارة: الكنيسة (م.س) : ص ٨٣ وما يليها. Mueller, op. cit., S 106f.

(٤) تبدأ الاضطهادات العشرة بعهد نيرون (٥٤ - ٦٨م) وتنتهي بعهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥)، وبعام ٢٨٤م يبدأ التقويم (القبطي ش = تقويم الشهداء = م (التاريخ الميلادي) - ٢٨٤ . Mueller, op. cit., ss. 78, 117 ff. بشارة: السابق: ص ٣٠ وما يليها.

(٥) هو أبو الشركة، أسس أول دير في العالم في طابنسين قرب نجع حمادي سنة ٣٢٠م.. بشارة: السابق: ٨١ وما يليها Mueller, op. cit., 105 ff.

بولا (٢٣٥ - ٣٢٥م)[١].

ومـن مصر انتـشرت نظم الرهبنـة، وانتقلت عبر البحـار إلى العالم الأوروبي [٢]، وقد شـهد القرن الرابع ظهور المسـيحية وانتشـارها باعتراف القياصرة ودعمهم.

وأمـا الأنبـا شـنودة (٣٣٣ - ٤٥٢م) فـكان رأس الرهبانية المتوحدة، والمؤســس الفعلي للأدب القبطي الخالص، إذ نقى اللغة من المفردات اليونانية، وكذلك المؤسس الحقيقي للكنيسة القبطية، تلك التي وهبت مصر استقلالية معنوية عن القياصرة حتى أن العرب الفاتحين كما تقول رويار: «لـم يـروا في مصر إحـدى ممتلكات بيزنطة، بل بدت لهم مملكة تكاد تكون مسـتقلة»، إذ أن بطارقة إسكندرية تطلعوا إلى «أن يجعلوا من مصر دولة دينية مستقلة»[٣] عن الحكم الروماني بطبيعة الحال. وفي استقلال الكنيسة قوة لمصر.

إن الميراث القبطي المصري ظل يجري على ألسنتنا وفي معاملاتنا. فالحكايات والأمثال الشعبية تضم أخيلة وبيانًا وألفاظًا مصرية أصيلة.

وأما التقويم القبطي (توت - بابه - هاتور..) فيحمل أسـماء الأرباب المصرية، وهو الأنسـب لمواسـم الزراعـة والري والحصاد [٤]. ورغم أن المسـيحية والإسـلام شـكلا إلغـاء للفكر الديني السابق، فقد كانتا في الوقت ذاته امتدادًا حضاريًّا له بدرجة ما.

---

(١) تصـوّر الأيقونـة غرابًـا يأتي برغيف كامل. بـدلاً من نصف رغيف - للأنبا أنطونيـوس لدى لقائه بالأنبا بولا.. السابق: ٧٤.. فكتور عوض الله: اللوحات المصورة بالمتحف القبطي، المطبعة الأميرية ١٩٦٥، ص ٣٢ وما يليها.

(٢) سـيرة حيـاة أنطونيـوس عثر عليها في (تريف) على حدود فرنسـا وبلجيكا، واطلع عليها الأب أوغسـطين ٣٥٤ - ٤٣٠ فقادته إلى الهداية. ومع الراهبين بندكت ويوهانس كاسـيان انتشرت أنظمة الرهبنة من مصر إلى أوروبا، ومعهـا فنون الكتابة والمخطوطات. راجع: سـيرة الأنبا أنطونيـوس وتاريخ ديره العامرة - مجمع رهبان الدير عن أوغسطين الأول أوريليوس راجع: dtv – Atlas Phil. , S. 69 .

(٣) غربال: تكوين (٢٠١١) : ٧٦. وظلت مصر محتفظة بكنيستها، التي يرأسها "بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية".

(٤) فايـز عـلي: الأدب والنيـل عبر العصـور، الهيئة العامة لقصور الثقافـة، القاهرة ٢٠٠٩، أيضًا: جـ٣ من دراسـتنا: الأدب المـصري (م. س)، وفيهـا وضحنـا ارتبـاط أدب مصر القبطية بالأدب المصري من قبـل ومن بعد. وتحمل تلك الأشهر أسماء معبودات مصرية قديمة.

سابعًا- مصر والإسلام:

قدّم مؤرخنا بالحديث عن الغزو العربي وما تلاه منذ سنة ٦٤١م [١].

ووضح - عن حق- أن انتشار لغة الفاتحين العرب كان أسرع من انتشار الديانة الجديدة وأتمّ، إذ انفتحت مصر على عالم (إسلامي) شاسع، ذي ميراث حضاري حافل متنوع، وصارت مصر ملتقى لمستوطنين من بقاع الدنيا، منهم الأتراك والشراكسة والصقالبة... أولئك الذين أثروا تجارة السوق المصرية، وماجت بهم أروقة الأزهر ومعاهد العلم. وقد ظلّ الأزهر جامعة تهوى إليها أفئدة العلماء وطلاب العلم من أركان الدنيا جميعًا.

أما تجار أوروبا (المسيحية) فلم يكن لهم رسالة حضارية حتى نهاية القرن الثامن عشر (نحو ١٧٩٨م)، أي نهاية الفترة الأولى - وفق تقدير مؤرخنا، وبداية الفترة الثانية التي تمتد إلى زماننا الحاضر أي عهد غربال، والقسمة على هذا النحو - في تقديرنا - تعتمد على العلاقة بالغرب، إذ يشير تاريخ ١٧٩٨م إلى حملة بونابرت. ولا نعتقد أنه مؤشر حقيقي لبداية العصر الحديث إلا إذا سلّمنا بأن التطور التاريخي في أوروبا هو المرجع والمنتهى. فلماذا يكون اللقاء مع الغرب أو مواجهته بداية تاريخ مصر الحديث؟[٢]

وأستطرد من ملاحظة مؤرخنا، إذ يقول:« وأما عن مساهمة الأقباط في الجانب العقلي من الثقافة الإسلامية فأمر ليس من اليسير الكلام فيه »، ونعتقد - مع مؤرخنا - أن الفكر القبطي نقل إلى الحضارة الإسلامية تراث مصر القديمة والتراث الهلليني أيضًا [٣].

---

(١) استُخدم لفظ غزو - غزوة لوصف حروب الرسول - ﷺ - وصحابته، واتخذ عثمان لقب غازٍ، وحذا حذوه خلفاؤه من سلاطين الدولة العثمانية.

(٢) أبت شخصية مصر إلا الظهور في العصور الإسلامية أيضًا. ونعتقد أن تسمية تلك العصور حسب الأشخاص (طولونية وإخشيدية..) حجب تلك الخاصية. راجع عنها: Mueller, op. cit., S. 144 ff.

(٣) غربال: تكوين (٢٠١١) : ٨١. ونرى أننا لم نبرأ عبر العصور من إلقاء تهمة الوثنية على المصريين ومن بعدهم اليونان والرومان.. مما صرف عن دراسة ميراث عظيم وبخسه وإصدار أحكام مسبقة ضده، دون الاحتكام إلى معايير تلك العصور.

وفي مجـال الأدب والفـن يتسـع أمامنا مجال الحديث، من ذلك ما أسـهم به ابـن بطريق (ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) ويحـيى بن سـعيد الأنطاكي من بعده، وكلاهما كتب في التاريخ وسـير الآباء، وكذا أبناء العسّال في العصر الأيوبي، و منهم الصفيّ بن العسّال وكتابه في الفقه الأرثوذكسي، وكذا ابن كَبَر (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) وكان كاتب إنشاء في العصر المملوكي [١].

وإذا تحدثنا عن فتح الأندلس فإننا نؤكد ما يقوله جورج جيمس – عن صواب – إن المصريين الأقباط شاركوا الفاتحين العرب والبربر فيه، فانتقلت إلى أوروبا عبر الأندلس معارف المصريين (القدمـاء) إضافة إلى الـتراث الهلليني، وإن تعمّد البعض إغفال دور المصريين في ازدهار معاهد قرطبة وأشـبيلية وغرناطة ومكتباتها [٢].

كما نلاحظ أن تمسّك المصريين بلغتهم القبطية كان سببًا – في افتراضنا – لتأخر دور مصر في الإبداع الشـعري خاصة عن دمشـق وبغداد مثلًا، وإن تميّزت ثقافة مصر عادة بالاعتدال والوسـطية. وبهذا الافتراض نفسّر ظهور البارودي ومدرسـته متأخرًا في القرن التاسع عشر في طور نهضة الشـعر وتجديده. تأخّر زمني إذن وافقه إبداع كثيف [٣].

ونؤسس على رؤية غربال الحصيفة أن دور مصر لم يكن مجرد ولاية ممتازة في عهود الخلافة أو الدولة المملوكية أو العثمانية، بل نقول إنه لولا مصر ودورها ما كان لأمور تلك الدول أن تستقيم. فالفرق شاسـع بين قولنا مصر الأموية فالعباسية، ثم مصر الطولونية فالأخشيدية ثم الفاطمية... إلخ، وبين قولنا الدولة المصرية في طورها الأموي أو العباسي... إلى آخر تلك التسـميات [٤].

---

(١) محمـد سـيد كيـلاني: الأدب القبطي قديمًا و حديثًـا ، دار الفرجاني ، القاهرة: ص ٥ وما يليها ، أيضًا دراسـتنا: الأدب المصري: ج٣: ص٣ وما يليها.

(٢) جورج جيمس: التراث المسروق: ص ٤٨ وما يليها.

(٣) ولعل هذا الفرض يفسر لنا قول العقاد عن أن للبارودي "ميزة واضحة.. وهي أنه وثب بالعبارة الشـعرية وثبة واحدة.." بلا تدرّج ولا تمهيد: العقاد: شعراء مصر: ١٢١.

(٤) فالمسـألة إذن ليسـت إقليمية أبـدًا، بل هي تحاش لفصل متعمّد بين مراحل التاريـخ، يؤدي إلى فصل مكوّنات الروح المصري مما يعود بالضرر على كافة الأطراف. ونشـير إلى مؤلف محمد كامل حسـين: في الأدب المصري: ص ١١٦ ومـا يليهـا، الذي بحث في تميّز الأدب المصري بعد الفتح الإسـلامي،رغم قلّة محصـوله ميراثه، فما وجد منه من أبيات قليلة تكشـف عن صبغة إقليمية مصرية. أما دراسـتنا: الأدب المصري– فكما أوضحنا – تبحث في جوهر ممتد عبر العصور وهو الروح المصري.

وإذا لـم يكن من اليسـير لغربـال أن يتحدّث آنذاك عن مسـاهمة الأقبـاط، فإلام أفضت محاولات محمد حسين هيكل ومحمد كامل حسين في الأدب، ومحاولات غيرهما؟ واليوم نتساءل: هل تغيَر الوضع كثيرًا؟ وفي أي اتجاه يا ترى؟.

تاسعًا- مصر والغـرب:

ليـس ثمة مـا يدعو إلى تثبيـت العلاقة بين الهويّـات الثقافية والسياسـية، فالغرب والشرق مفهومان ينطويان على التغيّر بأكثر مما ينطويان على الثبات. وبناء على ذلك يرى مؤرخنا أنه ليس علينا أن نظل أسرى كراهية التسـلط الغربي في مرحلة أو مراحل معينة – مثل مرحلة الحملة الفرنسـية مثلًا – ففي السياسـة كل شيء يتغيّر باسـتمرار، و"الغرب" له دلالات ثقافية غير تلك السياسـية مثـلًا. وينتقد – عن حق – أولئك الذين يكتبون كما لو أن الشـعب المصري يتعين عليه أن يختار موقفًا حاسمًا يلتزمه دون رجعة" ويفرضون علينا ما يجب علينا اتباعه [١].

ولعلـه ينتقـد إذن التطرّف في محـاكاة الغرب أو اللهث وراء اللحـاق به كما يرفض التجمّـد عنـد وضعيـة المـاضي التليـد أو الـتراث العظيـم، وينتقد – أشـدَ الانتقاد – مثلبـة الـتردد، الـتي تقـود إلى الفشـل، كمـا حدث إبـان ثورة الشـعب في سـنة ١٩١٩، الـتي عاصرها شـابًا طموحًا [٢]، فكتب يقـول: «كنّا نخشى أن تمتدّ إلى شـعبنا الدعوات الأوروبيـة الجديدة القائمة في الروسـيا وإيطاليا وألمانيا، فترددنـا في تعبئة مواردنا الحية والمعنويـة. وترتـب على ذلـك أن حذونا حذو كرومر، أي أننـا حاولنا الحصول على شيء من كل شيء بقدر معلوم» [٣].

بـلى، انتقد غربال ضعف إيمان القادة بالشـعب، وأنانية "الصفـوة"، واختلاق المعاذير لتبرير

---

(١) غربال: السابق: ٨٥. وعن تلك الفترة راجع: Vatikiotis, op. cit., p. 239 ff

(٢) غربـال: المرجـع نفسـه : ٩٢. راجع أيضًا ما أورده محمد حسـين هيـكل (ت ١٩٥٦م) في: الشرق الجديد، ط ٢، دار المعـارف بمصر ١٩٩٠. أيضًـا: مؤتمـر الجمعية التاريخية عـن ثورة ١٩١٩، في ذكراها التسـعين: القاهـرة ٢٠٠٩.

(٣) غربال: المرجع نفسه، وتلك من العبارات الكابحة للطموح والمبادرة على عكس ما نادى به غربال.

التقصـير المؤدي إلى الفشـل، وأننا لـم نتعلم من أخطاء آبائنا إبان ثورة سـنة ١٨٨٢م، ولعله كان يعني أن على الصفوة أن تتسـم بالتضحية والنزاهة حتى تسـتحق أن تقود الجماهير، وهو ما يفهم من قوله: "إن الجماهير وحدها بلا قيادة لا تسـتطيع أن تصنع شـيئًا على الإطلاق... إنها في حاجة إلى رمز... هو الزعيم"[١].

وذلك القول فهم منه مؤرخنا حسام عبد الظاهر أن مؤرخنا ربما كان يؤمن بالبطولة الفردية أكثر من إيمانه بالبطولة الجماعية. ولا شـك أن البطولة سـمة جيدة في الحالين، ولكن ادّعاءها مـرض عضـال. ويختم غربال مقاله بعبـارة تؤكد أن البطولة – مهما يكـن تعريفها – ينبغي أن تصبّ في صالح الجماهير، فيقول: "لا يجب اعتبار الدولة شيئًا أفضل من كونها اتفاقًا على المشاركة في المنافع، بل هي مشاركة في العلوم كافة.. والفنون كافة.. والفضائل كافة، وفي الكمال كله"[٢].

قدّم غربال إذن قراءة نقدية للواقع المصري المعيش منذ أكثر من نصف قرن، ملقيًا نظره إلى جدليّـة التطور في تاريخ مصر، كاشـفًا عن قضايا بقيت خلافيـة إلى الآن. فإلى أي مدى تكون استجابة مؤرخي العصر ومفكريه؟ .

* * *

---

(١) حسـام عبد الظاهر: تراث غربال (م. س) : ٢٤٧، والاستشـهاد من حوار لغربال مع مجلة الإذاعة سـنة ١٩٥٨م. فهل كان ظهور عبد الناصر آنذاك تصديقًا لقول مؤرخنا ومعتقده، أم أن مؤرخنا كان بعيد التفاؤل؟ .

(٢) غربال: المرجع السـابق: ٩٣.والقول للمفكر جاك برك. يقارن ذلك بما ذهب إليه جون لوك (ت ١٧٠٤)عن حال المساواة بالفطرة بين الناس، أولئك الذين يقيمون سلطة التشريع باختيارهم لتكون هي مرجعية حريتهم:
dtv. Atl. Phil., S. 121; s.a. Sandvoss, Phil., 2, p. 186; Hegel. Geschichte, III, S. 203 ff.

التاريخ المصري وفق هلموت برونر: الأدب المصري بالألمانية. والتواريخ تقريبية

بداية التاريخ واختراع الكتابة	حوالي ٣٠٠٠ ق.م
العصر العتيق: الأسرتان الأولى والثانية * مقابر أبيدوس وسقارة - متون المقابر، دراما الخلق من الأسرة ٢٥	حوالي ٣٠٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م
الدولة القديمة عصر بناة الأهرام الأسرات من ٣ - ٦ * تعاليم إيمحتب - جدف حور - بتاح حتب - كاجمني، قصص خوفو وسنفرومن الدولة الوسطى، متون الأهرام	حوالي ٢٧٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م
العصر الانتقالي الأول: الأسرات من ٧ - ١٠ * شكاوى الفلاح الفصيح - حوار إنسان مع نفسه - بردية اليائس	٢٢٠٠ - ٢٠٤٠ ق.م
الدولة الوسطى الأسرات من ١١ - ١٣ * عصر الأدب الكلاسيكي: تعاليم مري كارع - خيتي - نصائح أمنمحات - نبوءة نفرتي - بردية وستكار قصص خوفو وسنفرو - قصة سنوحي - قصة الملاح الغريق - الأناشيد الدينية والدنيوية	٢٠٤٠ - ١٦٦٠ ق.م
العصر الانتقالي الثاني عصر الهكسوس: الأسرات من ١٤ - ١٧ * رسالة أبو فيس على سقنن رع - لوحتا كامس بالكرنك	١٦٦٠ - ١٥٢٧ ق.م
الدولة الحديثة: الأسرات من ١٨ - ٢٠ * قصص: الأخوين إعماء الحق - الأمير المسحور - ونآمون - أسطورة إيزيس وأوزير - حوليات تحتمس الثالث - قصة القائد تحوتي - نشيد آتون - مدائح رمسيس الثاني - الأغاني الغزلية (تشستر بيتي) - تعاليم آني - أمنمئوبي - كتب الآخرة	١٥٢٧ - ١٠٧٠ ق.م
العصر الانتقالي الثالث: الأسرات من ٣١ - ٣٤	١٠٧٠ - ٧١٥ ق.م
العصر المتأخر: الأسرات من ٣٥ - ٣٠ * تعاليم عنخ ششنقي - أسطورة عين الشمس - أساطير سيتون خعمواست - بيتوباستيس - متون العالم الآخر.	٧١٥ - ٣٣٢ ق.م
العصر اليوناني: (الإسكندر والبطالمة)	٣٣٢ - ٣٠ ق.م
العصر الروماني (القياصرة)	٣٠ ق.م - ٣٩٥م

⊙⊙⊙

من قضايا

التاريخ الإسلامي

في كتابات محمد شفيق غربال

د. حسام أحمد عبد الظاهر

باحث في التراث والتاريخ الإسلامي
بدار الكتب والوثائق القومية

يُعَدُّ محمد شـفيق غربال (١٣١١ـ ١٣٨١ هـ/١٨٩٤ـ ١٩٦١م) واحدًا من المؤرخين الكبار الذين تركـوا أثـرًا كبيرًا في حركة الكتابـة التاريخية في العصر الحديث؛ وقد أهلـه الدور الذي قام به إلى وصفـه بأنه مؤسـس مدرسـة التاريخ المصري الحديـث، وأنه واضع أسـس تمصير التاريخ المـصري. ويُصنف شـفيق غربال غالبًا على أنـه مؤرخ في التاريخ الحديث، وأنه لم يترك سـوى كتـب قليلة أهمها: محمـد علي الكبير، وتاريخ المفاوضات المصريـة البريطانية ١٨٨٢ـ ١٩٣٦م، وتكوين مصر.

إن الذي بسـطته بإيجاز شديد[1] لا يخفى على الكثيرين، غير أن إسهامات محمد شفيق غربال في التاريخ الإسلامي وقضاياه أمر مجهول يتم الكشف عنه في هذه الدراسة.

وقـد دفعني إلى إعداد هذه الورقة الإيمان الحقيقي بأن الحدود والفواصل التي يجعلها معظم المنتمـين للتخصـص التاريخي بـين حقول هذا التخصص مـا هي إلا حـدود مصطنعة وفواصل متوهمة. وأن التاريخ كل واحد لا يتجزأ؛ وهو ما يتمثل في تجربة شفيق غربال كما سنرى.

وتهدف هذه الدراسـة إلى كشف لجانب مجهول من الإسهام التاريخي لشفيق غربال، وهو ذلـك الإسـهام المرتبط بحقل التاريخ الإسـلامي؛ حيـث إن له الكثير من الإسـهامات في هذا الحقل، وهي إسـهامات لم تؤخذ في الاعتبار بدعوى ـ غير صحيحة بالمرة ـ أن شـفيق غربال كان مؤرخًـا للتاريـخ الحديـث، وهذا الكشـف الجديد سـيجعلنا نعيد التفكـير في النظر إلى الإنتـاج الفكـري لهذا المـؤرخ الكبير من جديد. وبطبيعة الحال لا توجد أية دراسـة سـابقة تناولت هذا الموضوع وإن كان بعض مؤرخي التاريخ الحديث قد أشـاروا إلى موسـوعية محمد

---

(١) هناك الكثير من الكتابات حول شـفيق غربال، ومنها: عبد الرحمن زكي: محمد شـفيق غربال ١٨٩٤ـ١٩٦١م. مجلة جمعيـة الآثـار القبطية. المجلد ١٦ ١٩٦١ـ١٩٦٢م. القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٦٢م، ص ص ٢ـ٣؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى: شفيق غربال مؤرخًا. المجلة التاريخية المصرية. مج ١١، ١٩٦٣م، ص ص ٢٥٥ـ٢٧٨؛ خـير الدين الـزركلي: الأعلام. بيروت، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م. ج٦ ص ١٥٩؛ نقولا يوسـف: أعلام من الإسكندرية. الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٩م، ص ص ٢٩٥ـ٢٩٩؛ عبد المنعم الجميعي: اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر «القرنين التاسـع عشر والعشرين». القاهرة، عين للدراسـات والبحـوث، ١٩٩٤م، ص ص ١٥٩ـ١٧٠؛ أحمـد زكريـا الشـلق: مـن الحوليـات إلى التاريخ العلـمي ـ نهضة الكتابة التاريخية في مصر. سلسلة مصر النهضة ٨٤. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١١م، ص ص ١٧٤ـ١٨٠.

شـفيق غربـال واهتمامه بفروع التاريـخ المختلفة، مثل: محمد رفعـت[١]، ومحمد أنيس[٢]... وغيرهمـا.

ويرجع تفسـير عدم وجود أية دراسات سابقة حول هذا الموضوع - في ظني إلى سببين: أولهما - مـا هو شـائع عن أن تخصص شـفيق غربال هـو التاريخ الحديث؛ ولهذا فمن المسـتبعد أو غير المتوقع أن تكون له إسـهامات مهمة أو محددة في كتابة التاريخ الإسـلامي. والسبب الثاني يرجع إلى تعـذر الاطلاع على معظم كتابات شـفيق غربال في التاريخ الإسـلامي لتناثرها في الدوريات وبعض الكتب، مع عدم وجود ببليوجرافية تهدي إليها؛ حتى إنني لم أجد - في حدود علمي - أية دراسة أو بحث في التاريخ الإسلامي اعتمد على هذه الكتابات أو كانت من مراجعه.

قسَّـمتُ ورقتي إلى أربعة محاور أساسـية تشـتمل على مجموعات من قضايا التاريخ الإسـلامي - كما رصدتُها - عند شفيق غربال، وهي: قضايا المصطلح، وقضايا كتابة التاريخ الإسلامي، وقضايا التاريخ الإسـلامي العام، وقضايا التاريخ الإسـلامي الخاص بمصر. ثـم في النهاية تأتي النتائج التي يمكن الخروج بها من هذه الورقة.

أولاً- قضايا المصطلح :

اهتم شـفيق غربال بقضايا المصطلح اهتمامًا كبيرًا، ومن المعلوم أن قضية المصطلح من أهم القضايـا التي تعين المـؤرخ على فهمه للنصوص التاريخية وحكمه عليها، وقد انتبه عباس محمود العقاد لهذا الموضوع في اهتمامات مؤرخنا ذاكرًا أن دراسة غربال للكلمات «أشبه شيء بالبحث عن تاريخها أو مناسباتها التاريخية»[٣].

---

(١) محمـد رفعـت: كلمتـه في تأبين محمد شـفيق غربال بمعهد الدراسـات العربيـة العالية، ديسـمبر ١٩٦١م. المجلة التاريخية المصرية. مج ١٩، ١٩٧٢م، ص ٨.

(٢) محمد أنيس: شـفيق غربال ومدرسـة التاريخ المصري الحديث. مجلة المجلة. السـنة الخامسـة، العدد ٥٨، نوفمبر ١٩٦١م، ص ١٥ هامش (١).

(٣) العقاد: شفيق غربال في ذمة الله. جريدة الأخبار. ٢٥ أكتوبر ١٩٦١م؛ يوميات. القاهرة، ط٢، دار المعارف، ١٩٨٥م، ج٤ ص٦١٨.

ومن معالم هذا الاهتمام قيام شفيق غربال بتكليف عبد الرحمن زكي مدير المتحف الحربي ـ آنذاك ـ بتأليف كتاب يهتم بالمصطلحات العربية والمعربة المتعلقة بالسلاح، وهو الكتاب الذي أصدرته الجمعية التاريخية سنة ١٩٥١م. وقد أكد شفيق غربال في مقدمته لهذا الكتاب على أهمية المصطلح فقال: «كل من يشتغل بالبحث التاريخي يدرك مقدار حاجته لأدوات قريبة المنال، سهلة الاستعمال، تسعفه عند اللزوم لفهم اصطلاح يعترضه أثناء قراءة نص...»[(١)].

وقد زاد اهتمام شفيق غربال بالقضية الاصطلاحية خاصة بعد اختياره عضوًا بمجمع اللغة العربية (١٩٥٦ ـ ١٩٦١م) ؛ حيث ترأس لجنة المجمع للمصطلحات التاريخية والجغرافية، ويذكر شفيق غربال بخصوص مصطلحات التاريخ الإسلامي أن هذه اللجنة توصلت إلى أن المؤرخين يستمدون المصطلحات التي يستخدمونها من العلوم والفنون الأخرى؛ وبمعنى آخر أن علم التاريخ عند المسلمين ليس له مصطلحات خاصة به؛ وعلى هذا تم الاسترشاد بتجربة الخوارزمي (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) في كتابه «مفاتيح العلوم» والذي تمثلت طريقته ـ في حصر المصطلحات ـ على استعراض الكتب التاريخية والجغرافية واستخراج ما سماه «الألفاظ التي يكثر ورودها في تاريخ الروم أو فارس أو في المغازي ... إلخ»[(٢)].

وبناءً على ذلك قامت لجنة المصطلحات التاريخية بضبط الألفاظ الاصطلاحية الواردة فيه وضشرحها وتقديمها في ثوب معاصر. وقام بهذا العمل ـ تحت إشراف شفيق غربال ـ كل من يحيى الخشاب فيما يخص المصطلحات ذات الأصل الفارسي، والسيد الباز العريني فيما يخص المصطلحات العربية.

وإن كان هناك من تعليق على هذا الجهد فهو الأسف بأنه جهد لم يتم استكماله بدراسة المصادر الأخرى، وهو الأمر الذي إن تم سيمهد الطريق للوصول في النهاية إلى معجم المصطلحات التاريخية الخاصة بالتاريخ الإسلامي على أساس سليم، وهو الأمر الذي يفتقر إليه حقل التاريخ الإسلامي.

---

(١) من تقديم محمد شفيق غربال لكتاب السلاح في الإسلام، لعبد الرحمن زكي. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١م.

(٢) من تقديم محمد شفيق غربال لدراسة «ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة في كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي» ليحيى الخشاب، والسيد الباز العريني. المجلة التاريخية المصرية. المجلد السابع، ١٩٥٨م، ص١٦١و٢١٣.

وبجانب ذلك قدم غربال إسهامًا في دراسة المصطلحات السياسية في بحثه الذي نشره سنة ١٩٦٠م تحت عنوان «كيف دخلت بعض المصطلحات السياسية في اللغة العربية؟»[(١)]. والذي عرض علينا فيه صورًا من تطور المصطلح السياسي، منوهًا بضرورة الاهتمام بالمصطلحات التاريخية والعناية بها لأنها لم تنل ما تستحقه من اهتمام وعناية.

ومن النماذج الدالة في دراسة شفيق غربال هذه تطرقه لمصطلح (ثورة) الذي يَكْثُر وروده في المصادر العربية القديمة، ذاكرًا أن دلالة هذا المصطلح التي نعرفه بها الآن لم تُعرف في المصادر العربية؛ حيث إنها لم تستخدم إلا منذ زمن قريب جدًا. بل إنه في زمن الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لم يكن معنى ثورة معروفًا بالمعنى الذي نفهمه الآن، والثورة (Revolution) تم التعبير عنها في أول قاموس فرنسي عربي ـ وهو قاموس إليوس بقطر بـ (فتنة) و (قومة)[(٢)]. وهذا الأمر يفيدنا في التعامل مع الأخبار المصدرية في مصادر التاريخ الإسلامي التي يرد بها ذكر كلمة ثورة، وهي عبارة عن حركات احتجاجية وانتفاضات لا ترقى لمفهوم الثورة المعروفة في أيامنا، وإذا لم نأخذ هذا الأمر في الاعتبار لن نفهم الحدث التاريخي فهمًا سليمًا في سياقه الطبيعي.

وكما يُبين شفيق غربال أهمية مُراعاة الأبعاد الزمنية في المصطلحات واختلاف دلالة المصطلح من زمن لآخر، يبين كذلك ضرورة الأخذ في الاعتبار الأبعاد المكانية والتي تُحمِل المصطلح معاني في مكان لا توجد في مكان آخر به المصطلح نفسه. ومن المصطلحات التي لفتت انتباه غربال في هذا الصدد مصطلح (الإقطاع) والذي وجه سهام نقده ـ في إحدى مقالاته ـ لبعض الكتّاب في عصره بسبب عدم فهمهم لدلالات هذا المصطلح الشرقية والغربية وخلطهم بين المدلولين؛ حيث إن مدلول كلمة إقطاع في المجتمع الإسلامي غير مدلولها في المجتمع الأوروبي[(٣)].

ومن الجدير بالذكر أن شفيق غربال وضع برنامجًا وخطة عمل لإنجاز معجم للمصطلحات

---

(١) مؤتمر مجمع اللغة العربية. الدورة ٢٦، ج٩ للمؤتمر، مجموعة البحوث والمحاضرات، ١٩٥٩ـ١٩٦٠م، ص ص ١٩٥ـ٢٠٢.

(٢) محمد شفيق غربال: كيف دخلت بعض المصطلحات السياسية في اللغة العربية، ص ١٩٨.

(٣) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٥٣، السبت ٢١ يوليو ١٩٥١م، ص ٦.

السياسية في الفكر العربي والإسلامي. وقد قسَّم هذه الخطة إلى قسمين: أولهما خاص بأنواع هذه المصطلحات، والتي رأى أنها تنقسم إلى خمسة أنواع هي: «نوع يتعلق بفكرة الدولة، وثان يتعلق بفكرة الحكومة، وثالث يتعلق بالقانون والعدل، ورابع يتعلق بالفلسفة، وخامس يتعلق بالحياة الاجتماعية وآداب السلوك والسير، وما إلى ذلك»[١]. والقسم الثاني يختص بمراحل هذا البحث. ويؤكد شفيق غربال على ضرورة الرجوع في إعداد هذا المعجم إلى نصوص المعاهدات والاتفاقات وغيرها من وثائق[٢].

وحقيقة الأمر لم يلق هذا الأمر الاهتمام والعناية التي دعا إليها شفيق غربال؛ فلم نجد بين أيدينا فيما أعلم حتى الآن معجمًا للمصطلحات السياسية التي استخدمها المؤرخون في الحضارة الإسلامية، وهي فكرة لا زالت قائمة وتستحق الاهتمام الكبير من قبل مؤرخي الحضارة الإسلامية.

ومما يصلح شاهدًا أيضًا على اهتمامات شفيق غربال الاصطلاحية توقفه أمام مصطلح «عصر الجاهلية» شارحًا له ومصوبًا لبعض الآراء تجاهه؛ فيذكر أن كلمة (الجاهلية) لا تعني هنا «عكس المعرفة» بل إنها ـ بالأحرى ـ تعني «مخالفة القانون، والتمرد» أو «الجهل بوجود ما هو أفضل»، ويؤيد غربال البعض في تفسيرهم للكلمة على أنها تشير إلى العادات البربرية أو البدوية قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنه يؤكد على المعنى الديني لها من حيث كونها تعني نبذ التوحيد الصرف الذي جاء به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى عبادة الأصنام[٣].

وبالرغم من عدم ميل الباحث إلى استخدام صيغة (العصر الجاهلي) للتعبير عن الفترة السابقة لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأرى أن التعبير المناسب عنها هو «تاريخ العرب قبل الإسلام» بالنسبة لتاريخ الجزيرة العربية لأنه تعبير حيادي لا يحمل دلالات مسبقة قد

---

(١) محمد شفيق غربال: كيف دخلت بعض المصطلحات...، ص ١٩٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٧.

(٣) محمد شفيق غربال: الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي.[ضمن كتاب: الإسلام الصراط المستقيم. إشراف: كنيث.و.مورغان. ترجمة: محمود عبد الله يعقوب، مراجعة: نور الدين الواعظ. القاهرة، مؤسسة فرنكلين، بغداد ـ القاهرة ـ بيروت ـ نيويورك، ١٩٦١م، ج١ ص ٦٨.

يتضمنها وصف «الجاهلي»، إلا أن تفسير شفيق غربال للمصطلح يحمل بعض الوجاهة التي تبرر للبعض استخدامه.

ومن أبرز المصطلحات التي يمكن الوقوف عليها في إسهامات شفيق غربال الاصطلاحية مصطلح (التاريخ الإسلامي). هذا المصطلح الذي لا بد للمتخصص في هذا الحقل أن يعرف تاريخه وجذوره وأبعاده، ولم أجد من توقف أمامه شارحًا تلك الأمور. ولقد حاولتُ فيما سبق من زمن أن أفتش عن ذلك باحثًا في كتب الببلوجرافيات كفهرست النديم (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) وكشف الظنون لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) فلم أجد عند مؤرخي الإسلام من استخدم هذا المصطلح في التعبير عن الإطار التاريخي الممتد من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلا في حالات نادرة لعل أوضحها الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي عندما جعل لكتابه عنوان «تاريخ الإسلام» والذي كان الدائرة الأغلب في تراجمه خاصة بالعلماء والمفسرين والفقهاء والمحدثين والمرتبطين بالدين الإسلامي.

وفي تناوله لهذا المصطلح يقوم شفيق غربال بنقد ما اشتهر ولازال مشهورًا حتى الآن من تقييد استعمال كلمة (إسلامي) نقلًا عن العلماء الأوروبيين في دراساتهم التاريخية في إطلاق وصف نصراني أو مسيحي إلا على الأزمنة السابقة للعصور الحديثة والمعاصرة. ويوضح غربال طبيعة هذا الخطأ بقوله إن الاستعمال الأجنبي له ما يبرره عندهم، وهو الذي جاء نتيجة للفصل بين ما سموه السياسة وما سموه الدين. ويتساءل شفيق غربال: أما عندنا، فما وجه تبريره؟ وما مقياس الإسلامية؟ أهو وقوع الشيء في عصر سابق للمؤثرات الأوروبية؟.

ويوضح شفيق غربال ذلك بقوله إن الحضارة الإسلامية كانت مزيجًا من عناصر متباينة شرقية وغربية؛ وعلى هذا فلا يوجد سبب معقول لاستبعاد استخدام مصطلح إسلامي في الفترة التاريخية الحديثة التي شهدت تأثرها بالمؤثرات الأجنبية بينما لا تجردها من هذا الوصف في طور تأثرها بالفلسفة اليونانية القديمة في العصر العباسي مثلًا. مشيرًا إلى أن الحضارة الإسلامية تأثرت بنظم الساسانيين أو الروم، وهذا لم يمنعها من إسلاميتها، وكذلك تأثرت في مرحلة تالية

بالمؤثرات الفرنسية أو الإنجليزية، وهذا أيضًا بالتبعية لا يجعلنا ننزع عنها إسلاميتها[١].

ويجب الانتباه إلى حقيقة واضحة في سياقها التاريخي وهو أن شفيق غربال في كتاباته ـ حتى تلك التي نُشرت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م باتجاهاتها العربية ـ يرى أن إطلاق وصف «إسلامي» أعم وأصدق من وصف «عربي»[٢] على هذا المجال من التاريخ.

والذي يخرج به شفيق غربال من نتيجة وراء مناقشته المنطقية أنه «لا نستطيع بحال أن نعتبر الحضارة الإسلامية أمرًا طواه الزمان... أو أن التطور الإسلامي قد وقف عند حد معين، بل على العكس نعتبره مستمرًا متصل الأدوار»[٣].

وهذا التفسير ـ الذي أراه صحيحًا ـ يجعل الباحث يفتش عن رؤية شفيق غربال في قضية أخرى وهي **قضية التحقيب التاريخي** والموقع الزمني للتاريخ الإسلامي عنده.

والحقيقة أننا نجد تطورًا ما لدى شفيق غربال في قضية التحقيب أو الإطار الزمني للتاريخ الإسلامي؛ حيث ذكر سنة ١٩٣٨م أن «**العالم الإسلامي قد تطور بموجب الفتح العثماني تطورًا جديدًا**، كما أنه ليس من شك في أن ذلك الفتح يبدأ عهدًا جديدًا في تاريخ أمم أوروبا الشرقية، **ويحق للمؤرخ أن يجعل منه أساس التاريخ الحديث للشرق العربي وللشرق الأوروبي** ـ وأما ما ذهب إليه بعض الباحثين من الغض من شأن هذا الحادث فأمر لا يقوم على نظر قويم؛ فالقول مثلًا بأن المصريين وغيرهم قد خضعوا لحكام من الترك قبل خضوعهم للترك العثمانيين، وأن كل ما جرى في القرن العاشر هو استبدال ترك بترك يغفل فروقًا جوهرية بين النوعين من حكم الترك، ولا يستطيع أي مستقص لأحوال المصريين أو العراقيين إلا أن يدرك مقدار اختلاف طبيعة الحكم السلجوقي في بغداد والخلافة العباسية قائمة، والحكم المملوكي في القاهرة،

(١) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير. لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، (أعلام الإسلام ـ٨). القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٤م، ص ٣.

(٢) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٢م، ص١٨. ويُلاحظ أن شفيق غربال ـ بالرغم من ذلك ـ يستخدم مصطلح (التاريخ العربي) في الكتاب نفسه في سياقات خاصة. انظر: من زاوية القاهرة، ص ص ٩ـ١٠.

(٣) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٤.

وتقاليد الفاطميين والأيوبيين مستمرة، عن حكم السلاطين العثمانيين للمصريين وللعراقيين على يد نوابهم من الباشوات، تؤيد هؤلاء أو تعرقلهم جماعات من أجلاف الجند وأخلاط الناس. وأين هؤلاء الباشوات من سلاطين بغداد وسلاطين القاهرة؟ وأين إدارتهم العابثة من تلك الدواوين العربية اللسان الجامعة لكل ذي بيان ولكل صاحب فضل؟»[(١)].

ومعنى ذلك أن شفيق غربال بذلك يحدد حقل التاريخ الإسلامي بنهاية العصر المملوكي، إلا أننا إذا تتبعنا كتابات شفيق غربال زمنيًّا سنجده يغير هذا الرأي؛ فهذا الذي ذكره غربال سنة ١٩٣٨م سرعان ما قام بتغيير رأيه فيه في أكثر من موطن من كتاباته المختلفة ففي سنة ١٩٤٦م وفي مقالته التي عنوانها «أهم الأحداث في تاريخ مصر الحديث» يذكر أن العصر الحديث في مصر يبدأ عند نهاية القرن الثامن عشر[(٢)]. إلا أنه في سنة ١٩٤٩م يراوح بين الرأيين ويذكر أن مصر في ظل الحكم العثماني عاشت على ما خلفه له تراثها، فلم تزد عليه، وأن هذا العصر الذي يمكن تسميته بعصر الأمراء المماليك هو «عصر الانتقال للعصر الحديث»[(٣)] ويذكر في السنة التالية ـ ١٩٥٠م ـ أنه قد امتدت بعد نهاية القرن الثامن عشر عوامل التغيير في المجتمع الإسلامي سواء في مصر أيام محمد علي أو في الدولة العثمانية أيام سليم الثالث ومحمود الثاني أو في إيران أيام فتحي علي شاه[(٤)].

ورؤية شفيق غربال الجديدة والمكتملة والتي ظل مؤمنًا بها حتى رحيله أن تاريخ مصر الإسلامية على سبيل المثال يتم تقسيمه إلى فترتين مختلفتين كل الاختلاف في الطول: فالأولى تستغرق من منتصف القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر، بينما تشمل الثانية السنوات

---

(١) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، لحسين مؤنس. القاهرة، مطبعة حجازي، ط٢، ١٩٣٨م. ص ص (د ـ هـ) .

(٢) محمد شفيق غربال: أهم الأحداث في تاريخ مصر الحديث وأثرها في مركز مصر الحاضر.[ضمن محاضرات الموسم الثقافي الأول للجامعة الشعبية (التي أُلقيت بدار الجمعية الجغرافية الملكية، مارس ـ مايو ١٩٤٦م)]. القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٤٧م، ص ٨.

(٣) محمد شفيق غربال: في متحف الحضارة المصرية. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٣١، السبت ١٨ مارس ١٩٤٩م، ص ٦.

(٤) محمد شفيق غربال: كتب جديدة. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٠٨، السبت ٩ سبتمبر ١٩٥٠م، ص ٦.

التالية حتى عصره في منتصف القرن العشرين، مؤسسًا هذه الرؤية بقوله: «شهدت الفترة الأولى تَكَوُّنَ ثقافة إسلامية بلغت قدرًا كبيرًا من الاستقرار والتماسك سواء في أيام ازدهارها أو في عصر انحطاطها، وسواء نظرنا إليها من وجهة بنائها الداخلي أو من وجهة علاقاتها الخارجية. أما الفترة الثانية فقد شهدت إخضاع تلك الثقافة لدوافع وحركات من الشد والجذب، كانت ذات تأثير بليغ في كيانها»[1].

ويمكن القول إن نظرة شفيق غربال إلى الحدود الزمنية لحقل تخصص التاريخ الإسلامي استمرت حتى رحيله، وذلك لأننا نجدها كذلك في كتاب «منهاج مفصل» والصادر سنة ١٩٦١م أي في السنة نفسها التي رحل فيها؛ يؤكد فيه بصورة جلية على تبعية العصر العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر للفترة السابقة عليه ـ أي الإطار الزمني الشائع للتاريخ الإسلامي ـ أكثر من تبعيته للفترة اللاحقة عليه، ويبين أن التغيير الطفيف الذي أصاب الأقطار العربية والإسلامية نتيجة للتبعية العثمانية لم يمس شيئًا أساسيًّا من مقدمات المجتمع حيث «بقيت عناصره كما كانت : فلاحوه وبدوه وصناعه وتجاره وعلماؤه وأجناده وأصحاب المناصب. وما بين تلك العناصر من العلاقات بقي كما كان. ونظم حيازة الأرض ونظم الجباية هي هي، والواقع الذي يحدث كل يوم هو هو ، والمثل الأعلى هو هو»[2].

ويختلف شفيق غربال في هذه الرؤية عن مؤرخي التاريخ الحديث الذين لا يزالون حتى الآن يدرجون العصر العثماني ضمن دراساتهم، كما أن مؤرخي التاريخ الإسلامي والوسيط يستبعدونه من دائرة اهتماماتهم البحثية ويقصرون ويحددون مدى زمنيًّا لدراساتهم بنهاية العصر المملوكي في بدايات القرن السادس عشر الميلادي مقتدين في ذلك باتجاه بعض المستشرقين في وضع حدود فاصلة تعسفية بين الفترات التاريخية، بالرغم من وجاهة جميع الاعتبارات التي ذكرها شفيق غربال ومصداقيتها.

---

(١) محمد شفيق غربال: تكوين مصر. نقله إلى العربية بمعاونة محمد رفعت. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م، ص ص ٧٧ـ٧٨.

(٢) محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم. القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٦١م، ص١٣٠.

ثانيًا- قضايا الكتابة التاريخية :

ينوه شفيق غربال بقضية مكانة التاريخ في الحياة العقلية العربية، والدور الذي قام به علم التاريخ تجاه العلوم اللغوية والأدبية والدينية، وتجاه أفراد المجتمع في معاملاتهم، وكذلك تجاه الحكومات التي لم تستغن عن التجارب التاريخية في سياساتها. وأن التاريخ العربي الإسلامي كان واحدًا من أهم أدوات نشر الثقافة العربية الإسلامية بين مختلف شعوب دار الإسلام؛ وبالرغم من ذكره لهذه الحقيقة، إلا أنه يرى أن طلب التاريخ عند المسلمين كان غالبًا لمجرد لذة الطلب والقراءة مستشهدًا بروايات عن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) والمسعودي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م). كما يستخلص حقيقة عدم قيام المسلمين بفصل التاريخ عن المواد النثرية، والتي ترتب عليها عدم وجود دراسة نظامية للتاريخ قبل العصر الحديث، كما أن النقاد لم يتعرضوا لأساليبه.

ويؤكد غربال على ضخامة الإنتاج التاريخي عند المسلمين، إلا أنه يوضح أن هذه الضخامة تهولنا مظهرًا لا حقيقة وذلك لثلاثة أسباب هي:

١ـ كثرة الأسانيد، ويدلل على ذلك بقوله: «إذا حذفنا الأسانيد من تاريخ دمشق لابن عساكر أمكننا أن نهبط بالمجلد الواحد من ذلك التاريخ عشرات الأوراق إلى خمس ورقات».

٢ـ أن المؤرخين اعتادوا أن يوصلوا ما أعدوه بمادة منقولة من كتب السابقين نقلًا حرفيًا وبذا تكبر مصنفاتهم.

٣ـ هناك من المؤلفات التاريخية ما يصعب اعتباره كتبًا بالمعنى المألوف، وذلك مثل كتاب من جمع بين أختين، وكتاب من تزوج ابنة امرأته، وكتاب من وقف على قبر فمثل بشعر، أو كتاب للحاملين لاسم عبد المؤمن أو عوض....إلخ[1].

وتناول شفيق غربال القضية الأسلوبية في كتابة التاريخ عند المسلمين في العصور الوسطى على اعتبار أنها تُعد جزءًا من تراث المدنية العربية. ويرصد في ذلك الشأن ذيوع أسلوب الخبر عند مؤرخي الإسلام الأوائل، وهو الأسلوب الذي يجمع بين النظم والنثر ويحرص على إثارة انتباه السامع أو القارئ؛ ولهذا نجد أن كثيرًا من كتابات هؤلاء المؤرخين تعتمد على الذوق الفني أكثر

---

(١) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب. مجلة مجمع اللغة العربية. ج١٤ سنة ١٩٦٢ص ص ٢٥ـ٢٦.

من اعتمادها على الأمانة التاريخية، ضاربًا بذلك نموذجًا من كتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (ت٢٨٢ هـ/٨٩٥ م) يتضمن كلامًا تم بين معاوية وعمرو بن العاص والذي من المؤكد دار في جلسات سرية[١]، لم يقل لنا المؤرخ الذي عاش في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي كيف بلغه هذا الكلام، بالرغم من أنه ربما كان له أصل من الواقع ولكن لا سبيل إلى نفي ما أدخلته عليه وفيه صناعة المؤرخين. كما يتطرق للطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) ذاكرًا أنه ـ كما قال في مقدمة كتابه في التاريخ ـ أنه أدى كل ما ورد في كتابه على نحو ما أُدى إليه دون استخراج بعقل، ولا استنباط بفكر[٢].

ولا ينفي شفيق غربال عن المؤرخين المسلمين محاولة تنفيذ بعض الأفكار العظيمة في الكتابة التاريخية؛ ضاربًا على ذلك مثالًا بالفكرة التي قام على أساسها كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه (ت٤٢١ هـ/١٠٣٠م) المعروف ؛ غير أن غربال يرى أن فكرة الكتاب أعظم من تنفيذه، كما أنه يضع مسكويه في سياقه الزمني ويقول إنه وفق توفيقًا كبيرًا حينما أخذ يقترب من عصره، فاستفاد استفادة حقيقية من تجاربه شارحًا أسباب الحوادث ونتائجها.

وكما درس شفيق غربال مؤرخين يتسع نطاق التاريخ لديهم ليحيط بالشعوب عمومًا وبشعوب دار الإسلام خصوصًا، درس المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) والجبرتي (ت١٢٣٧هـ/١٨٢٢م) والذي يُضَيِّق نطاق التاريخ لديهما فيؤرخان لما يخص وطنهما مصر.

وبالرغم من أنه لا يخفى على شفيق غربال إسهامات كبار المؤرخين المسلمين كابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) وغيره في محاولاتهم التفسيرية[٣]، إلا أنه يصف التأليف التاريخي في معظمه بأنه أضعف ما خلفته الحياة العقلية العربية، مع إدراكه لمعرفة المؤرخين العرب لبعض معالم مناهج النقد التاريخي والمستمدة من مناهج دراسة الحديث النبوي وأسباب هذا الضعف في

---

(١) انظر: أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال. تحقيق: عبد المنعم عامر، ومراجعة: جمال الدين الشيال. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٥٩م، ص ١٦٩و١٧٧.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٧م، ج١ ص ٧و٨.

(٣) محمد شفيق غربال: التجمع والتفرق في الشرق العربي. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧١٩، السبت ٢٥ ديسمبر ١٩٤٨م، ص ٦.

رأيه ترجع إلى:

١ـ ضعف الخيال التاريخي أو التصور.

٢ـ انعدام أي إحساس يذكر بالكفاح بين قوتي الخير والشر في التاريخ أو بالفروق بين الأمم.

٣ـ عدم التحليل الدقيق للشخصيات التاريخية.

٤ـ ندرة أن يبدي واحد منهم ما يدل على رغبة قوية في الاستطلاع والتفهم والتعرف على البعيد عنه زمانًا ومكانًا من الوقائع والحقائق(١).

وبالإضافة إلى ذلك ينقد شفيق غربال المؤرخين المسلمين في عدم قيامهم بالتركيب، ويذكر أنه أقل ما عني به علماؤنا الأقدمون. والتركيب كما يذكره هو العرض المعقول المعلل، وإن كان موجزًا أو قليل التفصيل ـ لنمو التاريخ الإسلامي طبقًا لاجتهاد المؤلف ونفاذ تصوره ووضوح فكرته. ويُرجع غربال أسباب قلة الاهتمام بذلك إلى انشغال علمائنا الأقدمين بالجمع والرواية من جهة وانغماسهم جسدًا وروحًا في محيط الحوادث من جهة أخرى(٢).

وعلى الرغم من النقد الذي يوجهه غربال للكتابة التاريخية عند المسلمين إلا أنه لا يهمل التأكيد على أن علم التاريخ في الحضارة الإسلامية يتسم بصفتي العظمة والإنسانية، وأنه يخلو من الكثير من الشوائب الموجودة في كثير من كتب التاريخ عند الأمم الأخرى(٣).

ومما يرتبط بقضايا الكتابة التاريخية **قضية الإلهام عند المؤرخين المسلمين**، والتي تناولها شفيق غربال ـ متأثرًا بأفكار أستاذه أرنولد توينبي ـ في مقالة بالغة العذوبة(٤) محددًا في البداية أي مؤرخين يقصد فيقول إنهم «أولئك الذين تأثروا بمؤثرات بلغت في بعض الأحيان حد العنف، وعبروا عن شجونهم أو انفعالاتهم أو إحساساتهم بالتأليف التاريخي». أما الإلهام

---

(١) محمد شفيق غربال: أعظم كتب التاريخ في هذا الزمان. مجلة الراديو المصري. العدد ٦٧٨. السبت ١٣ مارس ١٩٤٨م، ص ٩.

(٢) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٦.

(٣) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب، ص ٢٦.

(٤) محمد شفيق غربال: مصادر الإلهام عند بعض المؤرخين. مجلة الهلال. السنة ٦٢ـ الجزء ١١، نوفمبر ١٩٥٤م، ص ص ٤٣ـ٤٩.

الذي يقصده فيعني به «وصف لما ينتاب المؤرخ من جراء الأزمة التي تدفع به نحو ذلك التعبير بالتأليف التاريخي ويوحى إليه أحيانًا بموضوع التأليف وبأسلوبه». ويطبق هذا الأمر على بعض المؤرخين ومنهم ابن خلدون الذي لمس في حياته الخاصة جميع ما تعرض له الأندلس والمغرب من مبادي الدول ومراتبها وتزاحمها وتعاقبها... فهو في الجملة ـ بالنسبة إلى المؤلف ـ «فرج من بعد ضيق وخلاص من بعد شدة... فأما الضيق والشدة فمرجعهما خراب الأندلس وخراب المغرب وتزاحم الدول وتعاقبها، وقد عانى من جراء ذلك ما عانى».

ومن القضايا الشائكة في الكتابة التاريخية عند المسلمين قضية التأثير المذهبي أو **كتابة التاريخ بين السُّنَّة والشيعة**؛ حيث يشكو كل من المؤرِّخين السُّنيين والشيعة من معالجة مؤرخي كل فريق منهم لأحداث التاريخ الإسلامي ويقول: «لا أزعم أنه من الممكن تأليف تاريخ يرضى به الفريقان تمامًا، إذ أن لكل منهما نظرة تقوم على مقدمات مسلمة لا يقبلها الفريق الآخر»؛ ولهذا يضع شفيق غربال إطارًا يمكن من خلاله علاج هذه المشكلة يتمثل في إنشاء تاريخ يحترمه كل منهما يقوم على:

١ـ عرض وجهتي النظر.

٢ـ الخلو من الاستهجان والذم والامتهان.

٣ـ نوع من التقريب القائم على الاحترام المتبادل والتفاهم وإيثار المصلحة الأعم على المصلحة الأخص[١].

ومن قضايا كتابة التاريخ التي لاقت اهتمامًا لدى شفيق غربال **قضية المصادر التاريخية** التي لم تلق عناية تستحقها في النشر. وهذا ما يبينه دعوته لتحقيق كامل لكتاب «تجارب الأمم» لمسكويه[٢]، وأيضًا إشارته إلى الإخراج الحقير ـ وفقًا لتعبيره[٣] ـ لخطط المقريزي ؛ وكأنه كان

(١) محمد شفيق غربال: أحكام المؤرخين على الرجال. مجلة الهلال. السنة ٦٣ـ الجزء٤، إبريل ١٩٥٥م، ص ٤٢.

(٢) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب، ص ٣٣. ولم تتحقق دعوة شفيق غربال إلا بعد أربعين عامًا؛ وذلك في الطبعة التي حققها أبو القاسم إمامي وصدرت في طهران سنة٢٠٠١م.

(٣) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب، ص ٣٣. ومن الجدير بالذكر أن أمنية شفيق غربال ـ نحو كتاب خطط المقريزي ـ لم تر النور إلا خلال السنوات ٢٠٠٢ـ٢٠٠٤م حين تصدى لتحقيقه أيمن فؤاد سيد ونشرته له مؤسسة الفرقان في لندن.

واعيًا بطريق غير مباشر إلى ضرورة إعادة تحقيق هذا الكتاب الجليل تحقيقًا يليق به.

ويهتم شفيق غربال باثنين من أنواع مصادر التاريخ الإسلامي العديدة التي رجع إليها على غاية كبيرة من الأهمية وهما **الوثائق والآثار**.

بالنسبة للوثائق يعتبر غربال أحد مؤسسي مدرسة التاريخ بالاعتماد على الوثائق في مصر[١]، وهو ما يظهر واضحًا في كتاباته المختلفة في التاريخ الحديث، وقد انسحب ذلك أيضًا على اهتماماته بالتاريخ الإسلامي؛ فيذكر أن الوثائق ينبغي أن تكون قريبة للدارس[٢].

ويأتي إدراكه لأهمية الوثائق في التاريخ الإسلامي لسببين: أولهما سبب خاص يتمثل في تأخر عصر التدوين نسبيًا، وثانيهما سبب عام وهو أن الكتب ترسل أحكامًا عامة قد تصدق وقد لا تصدق على جميع الأحوال والأمصار؛ ولهذا ينبغي مقارنتها بالوثائق التي تتناول ما حدث فعلا[٣].

ومن الجدير بالذكر أن شفيق غربال وإن لم يساهم في حركة نشر الوثائق العربية إلا أن له جهود ملموسة في الاهتمام بها ونشرها، وهو ما نراه بارزًا في إدراكه لأهمية الوثائق البردية العربية في تصحيح أحكام الكتب التاريخية[٤] وهو الأمر الذي دفعه إلى تكليف أدولف جروهمان وهو واحد من أبرز علماء هذه الوثائق القلائل إلى تأليف كتاب عن هذه الوثائق لتنشره له الجمعية التاريخية. وبالفعل قام جروهمان بالاستجابة لهذا التكليف ووضع كتابه: From the world of Arabic Papyri والذي نشرته الجمعية التاريخية سنة ١٩٥٢م، وهذا الكتاب يحوي مقدمة مطولة عن البرديات العربية، كما يضم نشرًا للعديد من الوثائق البردية من مجموعات بردية مختلفة.

كما أن شفيق غربال في دراسته للتاريخ الاقتصادي العربي ينوه بحقيقة أن العمل في الوثائق العربية لا زال في مبدئه[٥]، وفي دراسة له أخرى عن تاريخ الأزهر يعلق على الدراسات التي

(١) سامي خشبة: مفكرون من مصر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص ١٩٥.

(٢) من تقديم شفيق غربال لكتاب: السلاح في الإسلام، لعبد الرحمن زكي.

(٣) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٧.

(٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٥) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، لأرشيبالد لويس. ترجمة: أحمد عيسى. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م، ص ٣٥ و٣٨.

قامت حوله بقوله «لا أعرف أحدًا رجع إلى الوثائق الأصلية، بل لا أعرف أحدًا ابتدأ بحصر تلك الوثائق فنحن إذن في البداية وأمامنا كل شيء»[١]. وبالرغم من تكرار هذه الدعوة إلا أن الاهتمام الذي تلقاه الوثائق لا زال محدودًا جدًّا، كما أن نشر الوثائق مصاب بالشلل.

وبجانب ذلك اهتم شفيق غربال بنصوص الوثائق العربية التي ضاعت أصولها، كمجموعة الوثائق الفاطمية الذي أوصى مجلس إدارة الجمعية التاريخية برئاسة شفيق غربال في جلسته المنعقدة يوم الخميس ٢٢ نوفمبر ١٩٥٦م بنشرها مع توصية بأن يقوم بتحقيقها جمال الدين الشيال وإعدادها للنشر، وبالفعل صدرت هذه المجموعة في عام ١٩٥٨م[٢].

هذا عن الوثائق، أما بالنسبة للآثار فإن شفيق غربال يرى أنها إن أُحسن استعمالها تقدم للمؤرخ خاصة في الموضوعات الاقتصادية أدق المعلومات وأغزرها وأصحها[٣]. ويأتي اهتمامه الكبير بالآثار واضحًا في إنشاء متحف الحضارة المصرية والذي كان غربال أنشط أعضاء اللجنة المكلفة بإنشائه وأكثرهم إنتاجًا، وظل في جهد متواصل لعدة سنوات حتى ظهر هذا المتحف إلى النور سنة ١٩٤٩م. وضم هذا المتحف قسمًا خاصًّا بتاريخ مصر الإسلامية.

وهناك نوع من التاريخ أسماه غربال «التاريخ الأثري»[٤] منوهًا بأن هذا النوع من التاريخ ليس بالشيء الجديد، بل هو من أهم ما عني به المصريون في مختلف عصور تاريخهم، وقد طلبوه مرتبطًا بالخطط[٥]. ويؤكد شفيق غربال على أهمية أسلوب الخطط في الكتابة التاريخية فيذكر أنه يجمع بين مزايا المرجع، يرجع إليه الباحث لتحقيق جزئي أو تفصيلي، ومزايا الدراسة المستفيضة لموضوع أو لمطلب، وهو أيضًا أسلوب يتميز بصفة الجمع بين العلم القديم الموروث، وبين ما طرأ عليه من

---

(١) محمد شفيق غربال: صحيفة من تاريخ الأزهر. مجلة الأزهر. المجلد ٢٣ـ الجزء ٩، رمضان ١٣٧١هـ ـ مايو ١٩٥٢م، ص ٥٩.

(٢) عبد المنعم الجميعي: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ دراسة تاريخية لمؤسسة علمية ١٩٤٥ـ١٩٨٥م، ص١٠٩.

(٣) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: القوى البحرية والتجارية، ص ٣٧.

(٤) محمد شفيق غربال: رسالة المؤرخ. مجلة الهلال. السنة ٦٥ـ الجزء٤، أبريل ١٩٥٧م، ص ١٣.

(٥) محمد شفيق غربال: وجوب العودة للتأليف التاريخي على أساس الخطط. [ضمن التاريخ والآثار ـ الحلقة الدراسية الأولى ٤ـ٩ من فبراير سنة ١٩٦١م]. القاهرة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦٢م. ص ١٥١.

تجديد أدى إليه تقدم البحوث[١]. ومما يندرج ضمن التاريخ الآثاري الفنون والصناعات، ويمكن للقارئ لكتابات غربال أن يخرج بنتيجة مفادها إيمانه الكامل بأنها من خير المظاهر التي تتجلى فيها الشخصية العربية والإسلامية[٢]؛ ولهذا فهو يدعو المؤرخين إلى الاهتمام بها كمصدر لا غنى عنه في بحوثهم، بل إنه نفسه يقوم بتقديم برنامج وخطة عمل لمشروع جديد عن الخطط المصرية[٣]، وهو مشروع لم يدخل حيز التنفيذ حتى الآن، ولا زال صالحًا.

وآخر قضية يمكن تناولها ضمن هذه المجموعة هي **قضية الاستشراق وكتابة التاريخ الإسلامي**. وبطبيعة الحال لا يمكن النظر إلى حركة الاستشراق على أنها اتجاه واحد بل إنها تتضمن بداخلها العديد من الاتجاهات، إلا أن هناك سمات عامة لكتابات الكثير من المستشرقين في مؤلفاتهم في موضوعات التاريخ الإسلامي، وهذه السمات يحصرها شفيق غربال[٤] فيما يأتي:

١ـ حسن استخدام الأصول العربية.

٢ـ التمكن من مناهج النقد والتحليل.

٣ـ عرض التاريخ الإسلامي كفصل أساسي من فصول تاريخ الإنسانية يؤثر فيها وتؤثر فيه، وبه من الفضائل أو الرذائل كأي جماعات إنسانية.

٤ـ دراسة ماضي الأمم التي تكونت منها الأمة الإسلامية، وهذا يؤدي إلى قدرة المستشرقين على تعليل موقفها من الإسلام وما لها بعده وأثرها في الحضارة الإسلامية.

٥ـ دراسة ديانات التوحيد ومعتقدات الجماعات، وبهذا يقدر المستشرقون العوامل الدينية وأثرها في المجتمعات الإسلامية، كما يستطيعون عرض الفرق والحركات الانفصالية دون الوقوف منها موقف البغضاء والكراهية.

٦ـ معرفة أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية في الأمم فلا يستأثر التاريخ السياسي

---

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص١٧.

(٣) محمد شفيق غربال: وجوب العودة للتأليف التاريخي على أساس الخطط، ص ص ١٤٩ـ١٥٣.

(٤) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٦.

أو الحربي والطبقات الحاكمة بكتابتهم للتاريخ بل ينال العامل والفلاح وطبقات العمال والفلاحين دورهم الذي يستحقونه في التاريخ.

٧ـ محاولة التركيب بعد التحقيق، أي العرض المعقول المعلل للتاريخ الإسلامي طبقًا لاجتهاد المؤلف ونفاذ تصوره ووضوح فكرته.

ويجب التفرقة في رؤية شفيق غربال تجاه المستشرقين بين الفكر أو الفلسفة التي تحكم تعاملهم مع المادة التاريخية وبين توظيف الكثير منهم لهذا الفكر لخدمة بعض الأغراض غير العلمية؛ وهو ما يظهر في مناقشات غربال وردوده وتعقيباته على كثير من الآراء الاستشراقية التي لا تدل على فهم صحيح لحقائق التاريخ الإسلامي، ومن ذلك:

١ـ ربطه بين بعض صور حركة الاستشراق وبين حركة الشعوبية المعروفة في التاريخ الإسلامي قائلًا بأن خصوم العرب [والمسلمين] قديمًا وحديثًا يصدرون عن بغضاء وحقد هادفين إلى الحط من قدر العرب ودورهم التاريخي في الماضي والحاضر، مستشهدًا بالعديد من الاستشهادات الدالة على ذلك سواء من حركة الشعوبية أو حركة الاستشراق(١).

٢ـ تأكيده على عدم تغييب عامل الزمن ودوره في اختلاف حركة الاستشراق ويرى غربال أن الاستشراق قبل انتقال فكرة التنظيم العالمي إلى حيز المباحث السياسية العلمية ـ أي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ـ جاء مواكبًا لحركة الاستعمار الأوروبي لبلدان العالم الإسلامي، ذلك من أجل تحقيق مصالح أوروبية مختلفة يأتي من بينهما: تقديم حقائق عن الإسلام والمسلمين لتيسير مهمة الحاكم الأوروبي، وخلق ميادين جديدة لانتشار الأفكار الأوروبية خاصة ما يتصل منها بالمذاهب الاجتماعية...إلى غير ذلك. ويؤكد غربال على أن هذه المصالح الأوروبية تؤسس على فكرة أن رسالة الإسلام قد قضيت وأنه لا رجاء للمسلمين إلا بأخذ فكرة الحركة عن المجتمع الأوروبي والتخلي عن فكرة المحافظة والسكون(٢).

٣ـ تعليقه على رأي برنارد لويس عن العقلية العربية وأنها عقلية ذرية تنظر إلى الأشياء على

---

(١) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص٢٨ ـ ٢٩.

(٢) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٧٢.

اعتبار أنها كليات متفككة لا رابطة بينها ولا يتركب منها كل واحد، يقول: إن هذا الرأي يعيبه أمران: أولهما إطلاقه لهذا الحد. وثانيهما أنه نظرة مُحْدَث من رجال القرن العشرين متأثرة بنظرة العالم وتفكيره في هذا القرن، ويحكم غربال على هذه الرؤية الظالمة للعقلية العربية بأنها لا تستحق منا أن نعترف لها بالسلامة من كل شك أو أن نسلم لها بكل الصحة[١].

٤ـ حديثه عن الرأي الشائع القائل بأن العرب ما هم إلا نقلة للعلوم لمن أثبتوا فيما بعد أنهم أولى بها منهم فيذكر أن في ذلك كل الفضل لثلاثة أسباب:

أ ـ أن نقل العلم يفيد تحصيله ثم دره ثم نشره.

ب ـ أن العلم يتطور بانتقاله من مرحلة لأخرى.

جـ ـ تعدد المنابع التي أخذ عنها العرب من هندية وفارسية وقبطية وآرمية ومصرية ويونانية وأن ما فعله العرب من خلق مركب واحد من هذه العناصر المتباينة يُظهر الأصالة الحقيقية لهم[٢].

٥ـ مناقشته الرأي القائل بأن معظم أصول العلماء الكبار غير عربية وأنهم من الأعاجم، ورد على ذلك بأن هذا الأمر يُعد فخرًا للعرب لأنهم نجحوا في إلحاق أهالي هذه الشعوب بهم في سبيل تكوين مجتمع واحد، ونجحوا في ذلك، والدليل عليه إلحاقهم مبتكرين خالقين مبدعين، والابتكار والخلق والإبداع ليس أبدًا من صفات الأذلاء[٣].

ويتوقف شفيق غربال بالدرس بالتحليل أمام مدرسة الاستشراق الفرنسية خاصة ما يرتبط منها بدراسة تاريخ الشام في العصر الإسلامي، وهي المدرسة التي تعتبر الشام امتدادًا طبيعيًا لانتشار الشعوب الأوروبية من يونانيين ورومانيين، ولكن ليس من الطبيعي عندها أن تكون الشام عربية أو تابعة لدول إسلامية كالطولونيين والإخشيديين أو أن يكون من سكانها مسلمون. ويؤكد شفيق غربال هذه الرؤية عن طريق فحص أعمال اثنين من كبار مستشرقي

---

(١) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٧.

(٢) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠ـ٢١.

هذه المدرسة، وهما: سوفاجيه Sauvaget ولامانس Lammens.

وإذا أخذنا لامانس كدراسة حالة معبرة عن فكر شفيق غربال تجاه أعماله سنجد شفيق غربال يخرج بعدة نتائج بناءً على نقده للامانس، والذي نلخصه في أربع نقاط هي:

١ـ إن تخصص لامانس في الكتابة عن العصر الأموي ليس بهدف تحري الإنصاف لهذه الدولة وإنما بهدف إفساد التاريخ العربي عن طريقتين: أولاهما مجرد الرغبة في معارضة جمهرة المؤرخين المسلمين في تنديدهم ببني أمية. وثانيتهما محاولة إثبات أن فضل الأمويين يرجع إلى أن سياستهم امتداد لسياسة تجار قريش قبل الإسلام أي أنها سياسة كانت قليلة التأثر بالاعتبارات الدينية.

٢ـ التناقض الكبير الذي يقع فيه لامانس؛ فمثلًا في موطن يسلم بحركة استيطان العرب قبل الإسلام في بلاد الشام، وما كانت لهم فيه من دول وإمارات، ثم في موطن آخر يذهب إلى أنه لا يوجد في الشام مسيحيون من أصل عربي.

٣ـ اتباع لامانس لطريقة توهيمية في عرضه عن طريق لي عنق النصوص لخدمة الأفكار المسبقة التي لديه، ويضرب غربال مثالًا على ذلك باستشهاد لامانس بأحد نصوص المقدسي (ت نحو ٣٨٠هـ/٩٩٠م) في كتابه «أحسن التقاسيم» الخاصة بازدهار تجارة بلاد الشام في العصر الإسلامي، حيث نرى لامانس يستنتج منها أعظم موارد الشام التي لم تفلح اضطهادات المسلمين وحكمهم المزري لها عن إفقارها. فبدلًا من أن يقنعه هذا النص بازدهار الشام في العصر الإسلامي يجعله يؤكد من خلاله على فكرته المسبقة عن الاضطهاد الإسلامي والحكم المزري للمسلمين.

٤ـ افتقار آراء لامانس إلى الأسس السليمة التي يبني عليها نتائجه وعدم دقته في كثير من المعلومات التي يذكرها كقوله بوفاة سليمان بن عبد الملك في حصار القسطنطينية وهو خطأ[1]، أو ترويجه لأفكاره الخاصة وإسقاطها على التاريخ الإسلامي؛ كقوله عن حرمان غير العرب من الحقوق السياسية، أو فكرته عن تطلع أهل الشام إلى ظهور السفياني نصير

(١) الصواب هو أن سليمان بن عبد الملك توفي سنة ٩٩هـ/٧١٧م في دابق من أرض قنسرين بين حلب ومعرة النعمان بالشام. انظر: الطبري: المصدر السابق، ج٦ ص ٥٤٦.

«الحرية الشامية» حيث إنه كلام لا يستند إلى شيء ولا يوجد مصدر واحد تحدث عن الحرية الشامية، أو ذكره وجود مملكة لاتينية متماسكة، مع أن ذلك يُعد وهمًا في ظل ما هو معروف في تاريخ الصليبيين من الشد والجذب بين الأمراء الإقطاعيين على مختلف مراتبهم، وبينهم وبين الكنيسة، وبين الجاليات التجارية الإيطالية، أو بين الصليبيين الذين ولدوا في الشام والصليبيين الوافدين حديثًا(١).

ثالثًا- قضايا التاريخ الإسلامي العام:

لشفيق غربال إسهامات في الكثير من موضوعات التاريخ الإسلامي بدءًا بتاريخ العرب قبل الإسلام، ثم عصر الرسول ﷺ، والعصور التالية له من راشدين وأمويين وعباسيين، كما كتب في تاريخ الغرب الإسلامي بجناحيه المغربي والأندلسي، وكذلك لم يغب عن كتاباته الحديث في تاريخ أفريقيا الإسلامية، وتاريخ الشرق الإسلامي والوجود الإسلامي في الهند والصين... إلى غير ذلك. يضاف إلى ذلك أن له إسهامات في الكتابة في الجوانب الحضارية في التاريخ الإسلامي سواء كانت نظمًا أو ما يرتبط منها بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والديني... إلخ.

والإطار الذي يحب شفيق غربال أن يتحرك فيه عند دراسة الحضارة الإسلامية هو الذي أفصح عنه في إحدى مقالاته والذي يمكن إيجازه في خمس نقاط هي:

- مصادر الحضارة الإسلامية وفروعها.
- تتبع الحضارة الإسلامية في انتشارها والتغيرات التي طرأت عليها.
- كيف تطورت الحضارة الإسلامية؟.
- العناصر البشرية التي كانت وراء التطور والدوافع التي كانت تسيرها.
- العقبات التي كانت تقف أمام تطور الحضارة الإسلامية(٢).

وليس من هدف الدراسة تتبع مختلف موضوعات شفيق غربال في تاريخ الإسلام وحضارته.

---

(١) انظر نقد شفيق غربال الكامل لآراء لامانس في: دائرة المعارف الإسلامية. ج١٣، ص ص ١٠٥-١٠٩.

(٢) محمد شفيق غربال: الحضارة العربية بإسبانيا. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٢٨، السبت ٢٧ يناير ١٩٥١م، ص ٧.

ويكفي القول ـ اختصارًا ـ إن طريقة غربال في كتابة هذه الموضوعات محملة بالتحليلات والآراء والمقارنات والاستنتاجات وعدم الوقوف فقط على الأحداث والتفصيلات التاريخية التي تملأ المصادر.

ومن الممكن تناول بعض القضايا الخاصة بالتاريخ الإسلامي العام عند شفيق غربال، وأولها قضية تطور **الخريطة الزمنية للعالم الإسلامي**، والتي تطرق إليها غربال في دراسته لسياسة التوسع الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربية. ويقسم غربال دراسته للمجتمع الإسلامي خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة إلى مرحلتين: أولاهما مرحلة التأسيس وتضم القرنين الأول والثاني. وثانيتهما مرحلة التطوير وتضم القرون الثلاثة الأخرى[١].

ويُعتبر شفيق غربال من المؤيدين للرأي القائل بأن حركية انتشار الإسلام جاءت عن طريق سلسلة من القفزات السريعة، وأن هذه الحركية يمكن رصدها زمنيًا عبر أربع درجات تتمثل في:

١ـ الفترة من ١٠ ـ ١٣٣ هـ: توسع رقعة الحكم الإسلامي من أواسط آسيا شرقًا حتى مراكش وإسبانيا في أقصى الغرب.

٢ـ قرابة قرنين ونصف ظل العالم الإسلامي كما هو؛ امتد بعدها حتى شمل غربي أفريقيا وآسيا الصغرى وآسيا الوسطى وشمالي الهند، وكان ذلك بين عامي (٤٠٠ـ٥٠٠هـ/حوالي ١٠٠٠ـ١١٠٠م).

٣ـ وبعد قرنين آخرين كانت هناك موجة أخرى من التوسع اندفعت صوب شبه جزيرة البلقان ومنحدرات روسيا وسيبيريا وبقية أرجاء الهند وإلى أندونسيا.

٤ـ أضحت خريطة العالم منذ مطلع القرن التاسع الهجري كما هي عليه باستثناء زوال الإسلام من شبه جزيرة إيبيريا وصقلية وتغلغله في بعض المناطق ـ على نطاق ضيق ـ لاسيما في أفريقيا[٢].

وبناء على هذا التدرج الزمني يخرج شفيق غربال في دراسته برأي ـ يستحق المناقشة ـ من أن الإسلام في المدة الواقعة بين عامي ١٣٣ ـ ٤٠٠ هـ/ ٧٥٠ ـ ١٠٠٠م بلغ تمام نضوجه، وعلى ذلك، فإن

---

(١) محمد شفيق غربال: الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي، ص ص ٦٤ـ٩٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٦٣ ـ ٦٤.

المناطق التي دخلت في الإسلام بعد تلك المدة لا يمكن أن تزعم أنها ساهمت مساهمة أصيلة في تطور الثقافة الإسلامية.

ولشفيق غربال نظرات سديدة في واحدة من أخطر القضايا في تاريخ الإسلام وهي **العوامل التاريخية التي أدت إلى شطر العالم الإسلامي** إلى شرق أقصى يقع شرق العراق وإلى وسط يمتد من العراق إلى مصر وإلى مغرب يقع غربي مصر. ويذكر أن الشطر في حد ذاته قديم وهو إلى حد ما طبيعي متأثر بحقائق التاريخ والجغرافيا، إلا أنه قد حدثت عوامل تاريخية طارئة فصلت هذه الأقسام بعضها عن بعض، وألهت كل قسم بكوارثه ونكباته .. فانطوى على نفسه، وجمد على ما هو عليه. ويرصد هذه الأحداث التي أدت إلى نتائجها القريبة والبعيدة إلى انقسام العالم الإسلامي، وتتمثل في:

١ـ اشتداد الضغط الصليبي على الأقطار الوسطى والمغربية من العالم الإسلامي في حوض البحر المتوسط.

٢ـ اكتساحات التتار في الشرق التي أدت في نتائجها البعيدة إلى انفصاله عن سائر أقاليم العالم الإسلامي، وبدأت أوضاعه تتضح في فارس والإمارات الفارسية، وأفغانستان، والهند الإسلامية.

٣ـ إجلاء المسلمين عن الأندلس ومهاجمة المغرب.

٤ـ حركة التطويق البحرية الأوروبية لبلدان العالم الإسلامي[١].

وفي شرحه المستفيض لنظريته هذه لا يهمل غربال المحاولات التي قامت من أجل إعادة بناء الوحدة الإسلامية: وأولها: محاولة الجبهة الإسلامية مواجهة الصليبيين. وثانيها: محاولة الدولة العثمانية إعادة بناء الوحدة الإسلامية، والتي لم تكن باليسيرة، وفشلها في ذلك يرجع إلى ثلاثة أسباب هي:

١ـ أن هذه المهمة كانت أكبر وأشق مما تصورت؛ ولهذا لم يتم منها إلا إخضاع العرب أو أكثرهم

---

(١) محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية ....، ص ١٢٣.

٢ـ استحكام العداء بين العثمانيين والإيرانيين وتحكم الفرقة بين السنيين والشيعة.

٣ـ فشل العثمانيين في طرد البرتغاليين ومن تبعهم ـ من هولنديين وإنجليز وفرنسيين بعد ذلك ـ من البحار العربية، وكانوا قد وصلوا إليها في أواخر القرن الخامس عشر[١].

ويدرس شفيق غربال **قضية القبلية والبداوة في التاريخ الإسلامي**. ويذكر أنه بالرغم من أن الإسلام أنكر نظريًّا فكرة المجتمع الوثني القبلية، إلا أن نظام القبلية بقوته الداخلية وأسلوبه في معاملة الغرباء ظل أمرًا مفيدًا بحيث لم يكن بالإمكان الاستغناء عنه أو نبذه. وهكذا تم تشكيل القوات المحاربة على أساس قبلي، كما تم تخطيط الأحياء في المدن المحصنة وتوزيعها على أسس قبلية كذلك. وسكان الأقاليم الذين دخلوا في الإسلام لم يكونوا مجرد أعضاء في المجتمع، بل اندمجوا في القبائل وانتسبوا إليها أتباعًا (موالي) كما كانوا يدعونهم، ولم يعاملوا على قدم المساواة مع العرب، إخوانهم في العقيدة.

وظلت مشكلة الموالي ـ سكان الأقاليم الذين دخلوا في الإسلام وانتسبوا إلى القبائل العربية ـ مشكلة تحير المجتمع الإسلامي إلى أن جاء الخلفاء العباسيون وتقوض الكيان القبلي[٢]. غير أن شفيق غربال يرى أن بذور القبلية والبداوة ظلت كامنة إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي الذي شهد بعثًا جديدًا للبداوة مع انقسام المسلمين إلى ثلاث خلافات عباسية وأموية وفاطمية، وأن هذا البعث شهده التاريخ الإسلامي ممثلًا في ثلاث قوى كبرى هي العرب والبربر والأتراك[٣]. فالبداوة هي العامل المشترك بين هذه القوى الثلاث.

وبجانب هذه القضية يتطرق غربال إلى قضية ترتبط ببعض جوانبها بالحضارة الإسلامية وهي **قضية المؤثرات الحضارية للبحر المتوسط**. حيث ينقد غربال الرؤية التي تصدر عن معظم الكُتَّاب الأوروبيين والتي لا يعترفون فيها للبحر المتوسط إلا بالحضارة الأوروبية المنحدرة من الأصل اليوناني، وينظرون لأمم البحر التي رفضت الاندماج فيها نظرتهم للدخلاء الجامدين أو

---

(١) محمد شفيق غربال: الجامعة الإسلامية واتحاد العرب. مجلة الهلال. السنة ٦٣ـ الجزء١، يناير ١٩٥٥م، ص ص ٤٨ـ٤٩.

(٢) محمد شفيق غربال: الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي، ص ٧٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٩٤.

المتعصبين. ويرى غربال أن هذه الفكرة سياسية قبل أن تكتسي ثوب العلم، وهي من ناحية العلم كما هي من ناحية السياسة لا تصلح لأي عمل قويم(١). وأن الدول التي قامت حول البحر المتوسط تنوعت ثقافتها وتعددت أشكالها وأوضاعها، أثَّرت فيها ظروف البحر الثابتة وقرَّبت فيما بينها في بعض عناصرها ولكن لم تستطع أن تحول ثقافاتها إلى ثقافة واحدة أو حضارة واحدة.

ويُبرهن على ذلك عن طريق استعراضه للحوادث التاريخية الكبرى التي تبين أن البحر كان ملتقى حضارات وليس حضارة موهومة اسمها حضارة البحر المتوسط. ويذكر أنه تم للرومان إخضاع أمم البحر لحكومة واحدة، وبالرغم من ذلك لم تقم حضارة واحدة وكان نجاح الرومان أتم خارج حوض البحر لا داخله فيما وراء جبال الألب في فرنسا وفي الغرب الأوروبي، ولكن الأمم اليونانية والشرقية لم تنهدم شخصيتها بل احتفظت بمقوماتها وانبعثت منها المسيحية، ثم حدثت الإغارات الجرمانية والعربية الإسلامية والصليبية فتمزقت وحدة البحر السياسية، وتم وضع أساس الأوضاع الراهنة حضارة أوروبية على سواحل البحر الشمالية وحضارة عربية إسلامية على سواحله الشرقية والجنوبية. ولم تخل واحدة منها من مؤثرات البحر فاختلفت إسبانيا وفرنسا وإيطاليا عن إنجلترا وألمانيا، واختلف المغرب الإسلامي عن إيران والهند ولكن بقيت إسبانيا وفرنسا وإيطاليا قطعة من أوربا، ويبقى المغرب الإسلامي قطعة من دار الإسلام(٢).

القضية الخامسة هي قضية البطولة في التاريخ الإسلامي. وكان شفيق غربال مؤمنًا بأهمية البطولة ودور الفرد في صناعة التاريخ. والبطولة عنده يمكن أن تكون عمل فرد، ويمكن أن تكون عمل مجموعة، ويمكن أن تتجلى في عمل يحدث بارزًا قائمًا بنفسه، ويمكن أن تتجلى في عصر بأكمله أو في حياة طائفة من الشعب، ويمكن أن تكون عملًا حربيًا كما يمكن أن تكون نشاطًا مدنيًا(٣).

ويدخل في إطار إيمان شفيق غربال بالبطولة تصديه للكتابة عن حياة أعمال عدد من

(١) محمد شفيق غربال: حضارات البحر الأبيض المتوسط. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٤٥، السبت ٢٦ مايو ١٩٥١م، ص ٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧.

(٣) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص٨١.

رواد الفكر الإسلامي كالحسن البصري (ت١١٠هـ/٧٢٨م)، وأبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ/١٠٥٧م)، والغزالي (ت٥٠٥هـ/١١١١)، وابن تيمية (ت٧٢٨هـ/١٣٢٨م). هذا بالإضافة إلى كتابته كذلك عن بعض الشخصيات السياسية المحورية في التاريخ الإسلامي كصلاح الدين الأيوبي، وأحيانًا يتبع غربال طريقة المقارنات التاريخية بين الشخصيات باختلاف عصورهم وبيئاتهم، وباختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، كمقارنته بين صلاح الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م) ومحمد علي الكبير (ت١٢٦٥هـ/١٨٤٩م)[١]، راصدًا لعناصر الشبه والاختلاف بين كل منهما. ويعمل شفيق غربال في دراسته للشخصيات أو تعرضه لها على استخدام المادة التاريخية من أجل الوصول لشخصية صاحب الترجمة، وهو ما عبر عنه بقوله: «منهج ربط شخصية المترجم له بحركة هامة فيعني المتحدث بصفة خاصة ببيان أثر الرجل في الحركة المقترنة به»[٢].

ونجد صدى واضحًا لإيمان شفيق غربال بالبطولة ودور الفرد في التاريخ في اهتمامه بالتراجم كإحدى فنون التأليف التاريخي في الحضارة الإسلامية، ويظهر هذا الاهتمام في عدة صور:

أولها ـ كتابته عن كتب التراجم عند المسلمين باعتبارها أحد العناصر الأساسية للنقد العلمي، ورصده لأنواعها سواء كتب طبقات، أو كتب تراجم عامة، أو خاصة برجال قرن من القرون أو قطر من الأقطار أو حاضرة من الحواضر...إلخ[٣].

ثانيها ـ نقده لحركة التأليف في التراجم عند المسلمين وأنها قلت فيها الترجمة التحليلية التصويرية لرجل واحد[٤].

ثالثها ـ تأكيده على وجوب الاستفادة من الحدود والضوابط التي وضعها علماء المسلمين القدامى فيما يخص أحكام المؤرخين على الرجال، والتي خلاصتها أن لا مبرر للخوض في الرجال إلا لأغراض التحقيق العلمي طبقًا لأصول العلم وأوضاعه أو مصلحة ظاهرة

(١) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٧٢ـ٧٣.

(٢) محمد شفيق غربال: الشخصيات البارزة في تاريخ مصر الحديث. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٠١، السبت ٢١ أغسطس ١٩٤٨م، ص ٦.

(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

للجماعة أو الأمة[١].

رابعها ـ ما أعلنه شفيق غربال في شهر أغسطس سنة ١٩٤٨م عن اهتمام الجمعية الملكية للدراسات التاريخية [الجمعية المصرية الآن] وتصديها لإعداد «معجم شامل لرجال مصر منذ أقدم العصور حتى الآن، وهو عمل ضخم، لا يعادله معاجم الألمانية والإنجليزية والفرنسية والأمريكية التي نعرفها، وذلك على الأقل بحكم طول التاريخ المصري»[٢].

وهو يُظْهِر إيمانه بالبطولة وأثرها في الأحداث التاريخية في مقولته الشهيرة «مصر هبة المصريين» والتي يؤكد من خلالها أن تكوين مصر خلال جميع العصور كان من صنع جماعة المصريين [٣]، أي أن هناك نمطًا آخر من البطولة يمكن تسميته بالبطولة الجماعية.

وقام شفيق غربال بتطبيق نظرته في البطولة الجماعية على إحدى المعارك الكبرى في التاريخ الإسلامي وهي موقعة عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، ويرى أن البطولة في هذه المعركة مرت بثلاثة أدوار: في الدور الأول كانت بطولة جمع الكلمة والتغلب على النزوع إلى التفرق. والدور الثاني بطولة القرار العظيم في الخروج لمواجهة البرابرة الزاحفين دون انتظارهم في أرض الوطن. والدور الثالث كان البطولة التي بدت في القتال[٤]. ومع تعداد غربال للصورة السابقة من البطولة الجماعية إلا أن إيمانه بالبطولة الفردية يفوق اعتقاده بالبطولة الجماعية، ويقول في هذا الصدد: «إن الجماهير وحدها وبلا قيادة لا تستطيع أن تصنع شيئًا على الإطلاق... إن الجماهير دائمًا في حاجة إلى من يكتشفها.. إنها في حاجة إلى رمز تنتقده وتشجعه وتقدسه وتنقل حرارتها إليه.. ثم تسير وراءه.. هذا الرمز هو الفرد.. هو الزعيم»[٥].

---

(١) محمد شفيق غربال: أحكام المؤرخين على الرجال. مجلة الهلال. السنة ٦٣ـ الجزء٤، أبريل ١٩٥٥م، ص ٤١.

(٢) محمد شفيق غربال: الشخصيات البارزة، ص ٦.

(٣) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، ص ٢.

(٤) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص٨٢.

(٥) من حوار أجراه: عبد التواب عبد الحي مع المؤرخ شفيق غربال؛ وذلك في مقالته : «مع المؤرخ شفيق غربال». والمنشورة بمجلة الإذاعة. العدد ١١٩٢، السبت ١٨ يناير ١٩٥٨م، ص ٢٧.

رابعًا- قضايا التاريخ الإسلامي الخاص بمصر:

أُولى هـذه القضايـا قضية الصيغة التي يجب استخدامها في التعبير هـل **تاريخ مصر أم تاريخ المصريين ؟** : ويتسـاءل شـفيق غربال عن نسبة تاريخنا تكون للوطن فنقول تاريخ مصر أم للقوم من المصريين ونقول تاريخ المصريين، أنقصد بذلك أصحاب هذا الوطن أو الوادي في حقبة معينة، أم نطلقـه على أبنـاء الـوادي في جميع الحقب ؟ وهـل إن أطلقناه على جميع الحقب الزمنية سيكون في ذلـك إهمـال الصلات الحقيقية التي كانـت لنا في ماضينا وفي حاضرنـا بمجتمعات وحضارات عالميـة؟. وإن لم نطلق الوصف مصري على جميـع العصور أفلا يكون في ذلك قدر مهم من إهمال العلاقـات الحقيقيـة القائمة بين أطوار التاريـخ في هذا الوادي؟، ويطرح غربال هذه التسـاؤلات المهمة داعيًا المؤرخين إلى مناقشتها من غير استسهال التعميم والتقرير في هذه الشؤون الخطيرة[١].

القضيـة الثانية هنا هي **قضية الأصول العرقية للمصريين**. وهي مسـألة تشـكل رؤية ما لدى البعض إلى الآن[٢] بالرغم من عدم تماشـيها مع الواقع التاريخي. ولقد تناول شـفيق غربال منذ أكثر من خمسين عامًا هذا الأمر؛ خاصة أنه لا بد للمؤرخ أن يتصدى للمشكلات في واقعه ولا ينفصل عنها. وتدور دراسته لهذه القضية على عدة أفكار أهمها:

١ـ نقد الرأي الذي يظنه البعض ممن يعنيهم البحث عن ذرارى قدماء المصريين أنهم يعثرون عليهم في ريف مصر أو في طائفة الأقباط، وينقد ذلك بالقول إن الريف المصري لم يكن بعيدًا عن التأثيرات الخارجية كما يفترض أصحاب هذا الرأي حيث كان هو البقعة التي استوطن فيها مرتزقـة المحاربين من الإغريق، وكذلك رجال القبائل من العرب وبدو الصحراء، أما من يعتقد أنـه سـيجد بغيته في طائفة الأقباط فاحتمال وجودهم فيهم مثـل احتمال وجودهم في غيرهم[٣]، وذلك لأن السلالات المصرية تأثرت عبر تاريخها بمن وفد عليهم واختلط بهم.

---

(١) تقديـم محمد شـفيق غربـال لكتاب: تاريخ الحضارة المصريـة (العصر الفرعوني)، لمجموعة مـن الكتاب، المجلد الأول، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢م. ص ١.

(٢) انظر على سبيل المثال: جريدة المصري اليوم، الأربعاء ١٥ سبتمبر ٢٠١٠م.

(٣) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، ص ٤.

٢ـ أن الإسلام انتشر في مصر عن طريق اعتناق سكان البلاد المسيحيين الإسلام [١].

٣ـ اختلاط المسلمين الوافدين بالمسلمين من أهل البلاد، كما اختلط المسيحيون الذين جاءوا من الشام بالأقباط وغيرهم [٢].

٤ـ «ارتباط مصر بدار الإسلام فتح أبوابها ـ وبخاصة أبواب مدنها ـ للمستوطنين من البلدان الإسلامية الأخرى، وبخاصة من بلاد المغرب ومن فلسطين وسوريا وقيام دول من المماليك، واعتماد تلك الدول على جيوش مؤلفة من أبناء الرق أدى إلى قدوم جموع من الجواري والعبيد من مختلف العناصر والأجناس من أتراك وشراكسة وصقالبة ومن إليهم، أضف إليهم مستوطنين من شتى السلالات الأفريقية» [٣].

وثالث القضايا بالنسبة للتاريخ المصري الإسلامي تتمثل في قضية السمات الحضارية لمصر. وهي قضية يطرحها غربال على هيئة أفكار دون تقديم تفصيلات خاصة بها، ومن أهمها:

١ـ حدوث نوع من التكافؤ بين الاستمرار وبين التغير في التاريخ المصري بعد دخول مصر في الإسلام، ولم تشهد رجحان كفة مبدأ التغير في التاريخ المصري إلا عند استهلال القرن التاسع عشر وبدء الاتصال بالغرب [٤].

٢ـ تطور مصر الإسلامية جرى على نسق خاص بها، مع سرعة تأثره بمبادئ الإسلام الأساسية وبالحركات الإسلامية عامة.

٣ـ تركز الحياة العامة في الحواضر وبخاصة في الحاضرة الكبرى [٥]. وبالرغم من أن مصر كان بها مراكز حضرية لها مكانتها إلا أن الحضارة المصرية ظلت حضارة مجتمع ريفي خلال آلاف

---

(١) المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٨ـ٧٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٥) محمد شفيق غربال: في متحف الحضارة المصرية، ص ٧.

السنين من تاريخها[١].

٤ـ الخصوصية الحضارية المصرية في العصر الإسلامي وهي تلك الخصوصية التي ظهرت بعض معالمها في اتجاهات معينة للفقه الإسلامي، ومساهمة الأدب الشعبي المصري القديم في الأدب الشعبي العربي[٢].

٥ـ اتصفت الثقافة الإسلامية في مصر بالوسطية والأصالة، وتميزت ببقائها فترات طويلة وعدم تلقيها ضربات قاصمة أو نكبات كتلك التي تعرضت لها المغرب على أيدي القبائل البدوية، أو الأندلس من إبادة وفناء، أو الشام والعراق وما حل بهما من تدمير وخراب على أيدي المغول[٣].

٦ـ كان للمسيحيين المصريين سواء من احتفظ بمسيحيته أو تحول إلى الإسلام دور بارز في إجراء الملاءمة بين العناصر الثقافية الوافدة وبين المجتمع المصري[٤] ويرى غربال أنه ليس من اليسير الكلام عن مساهمة الأقباط في الجانب العقلي من الثقافة الإسلامية، والأسلم ـ في رأيه ـ أن يدمج العنصر المسيحي المصري الخاص في مجموع ما ساهم به الفكر الهيليني والفكر السرياني المسيحي في بناء صرح الثقافة الإسلامية عامة[٥].

نتائج البحث :

وأخيرًا يمكن الخروج من هذه الورقة بالكثير من النتائج، لعل من أهمها:

أولًا - أدت موسوعية شفيق غربال إلى تحطيمه للحدود الوهمية بين الفروع التاريخية؛ فلم يقع في أسر القيود التقليدية التي لا زال الكثيرون يضعونها أمام أنفسهم وأمام تلاميذهم. واتجاه شفيق

---

(١) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، ص ٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٣ـ٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٨١.

(٥) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

غربـال في الاهتمام بالموضوعات التاريخية والحضارية للإسـلام يتماشى مـع ذلك الاتجاه الواضح الذي نجـده عنـد بعـض معاصريه؛ ذلك الاتجـاه الذي يرى عدم وجود حواجـز بين التخصصات التاريخية، وهو ما نجده ـ على سـبيل المثال ـ في المقابل عند بعض مؤرخي التاريخ الإسـلامي الذين لهم إسهامات في التاريخ الحديث، مثل: جمال الدين الشيال، وحسين مؤنس وغيرهما.

ثانيًـا – نـرى أن اهتمـام غربال بدراسـة التاريخ الإسـلامي يرجع إلى بواعـث ذاتيه وأخرى علميـة، البواعـث الذاتيـة تتمثـل في قراءاته المبكـرة في هذا التخصـص[١]، وتدريسـه للتاريخ الإسـلامي لعدة سـنوات في مدرسـة المعلمين العليا[٢]. أما البواعث العلمية فقد حتمها إدراكه بعدم فهم المجتمعات الإسـلامية الحديثة إلا بفهم أصولها السـابقة على الأزمنة الحديثة، والربط بين ماضي العالم الإسـلامي وحاضره، حيث يتبين مـن البحث إيمان غربال بوصل الحاضر الذي يعيشـه بالمـاضي؛ ففي كثـير من الأحيان يكون الحـاضر لدى غربال هو الباعث له على دراسـة موضوعات تاريخية محددة في التاريخ الإسلامي.

ثالثًا – يظهر من الدراسـة سـعة اطلاع شـفيق غربـال وتقصيه للمصـادر التاريخية الخاصة بحقـل التاريـخ الإسـلامي من كتب تاريخ عام أو خاص وتراجم وسـير ومغـازٍ وخطط ورحلات ومعاجم، هذا فضلًا عن كتب الأدب والشـعر والفقه والحسـبة، بل إنه يقدم أحكامًا نقدية على أسـاليبها ومناهجها، ودعا إلى الاهتمام بنشر ما لم ينشر منها وتحقيقه تحقيقًا علميًا سـليمًا. كما أنه أبرز أهمية بعض المصادر الخاصة في كتابة التاريخ الإسلامي كالوثائق والآثار وكتب الفتاوى.

رابعًا – تتصف لغة شفيق غربال في كتاباته في التاريخ الإسلامي بالوضوح والإقناع، والبراعة في العرض التاريخي القائم على صناعة بناء متماسك في أسلوب مشوق وجذاب. ومن أبرز معالم

---

(١) قرأ غربال كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) بكامل أجزائه وهو لا يزال طالبًا في المدرسـة الثانويـة. انظر: أحمد عزت عبد الكريم: كلمته في تأبين محمد شـفيق غربال بمعهد الدراسـات العربية العالية، ديسمبر ١٩٦١م. المجلة التاريخية المصرية. مج ١٩، ١٩٧٢م، ص ص ١٠ـ١١.

(٢) عبد المنعم الجميعي: اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ص ١٦٠.

هذا الأسلوب الإيجاز والتلخيص والتركيز الشديد الذي يدل عليه أن وراء السطور وأحيانًا وراء الكلمات معلومات مختزنة تؤكد صرامة الطريقة التي اتبعها شفيق غربال في إيجاز ما يريد أن يقول، والدقة المتناهية في اختيار الألفاظ التي تعينه على هذا الإيجاز.

خامسًا – لم ينتم شفيق غربال لمدرسة معينة في تفسير أحداث التاريخ الإسلامي، وكانت له رؤية متوازنة في دراسة هذا التاريخ تقوم على الإفادة من سمات الكتابة التاريخية عند المسلمين خاصة ما يرتبط منها في إصدار الأحكام على الرجال، وفي الوقت نفسه يدعو إلى الإفادة والتتلمذ على المدارس التاريخية الأوروبية قديمها وحديثها.

سادسًا : اتبع شفيق غربال أسلوب المقارنات التاريخية بين عصر وآخر كالعصرين الروماني والعربي، وبين شخصية تاريخية وأخرى كصلاح الدين الأيوبي ومحمد علي، وبين الحضارة الإسلامية وغيرها من حضارات.

سابعًا : ظهر من دراسة التاريخ الإسلامي عند شفيق غربال إيمانه بأهمية دور الفرد أو النخبة أو الصفوة في قيادة المجتمع الإسلامي، وتقديره لحقيقة الدور البارز لأعلام المسلمين في مجريات حوادث التاريخ الإسلامي، وإن كان لم ينفِ تمامًا دور الجماهير، ولكنه يؤكد في الوقت نفسه على حاجتها إلى الفرد أو الزعيم.

ثامنًا : طرح شفيق غربال العديد من المشروعات العلمية التاريخية التي لا زالت صالحة للتطبيق حتى يومنا هذا، وندعو الجمعية التاريخية إلى الاستفادة منها والعمل على إنجازها خاصة وأن بعض هذه المشروعات كانت ضمن خطة العمل التي وضعها شفيق غربال لما يمكن للجمعية أن تنجزه. مثل: مشروعه في إعداد خطط جديدة، ومثل: خطته حول معجم المصريين عبر العصور، وهما مشروعان كبيران لا يقوم بهما إلا المؤسسات.

تاسعًا : يُستشف من بعض إسهامات شفيق غربال ضرورة وجود تخصص بجانب التخصصات التاريخية الأخرى يُعنى بالنقد التاريخي كعلم له أصوله ومدارسه؛ أي أن يكون هناك في أقسام التاريخ ما يشبه ما يوجد في أقسام اللغة العربية حول النقد الأدبي.

عاشرًا: تحتاج كل قضية من قضايا التاريخ الإسلامي الست عشرة التي تناولها شفيق غربال في كتاباته المختلفة إلى دراسة بل دراسات خاصة بها. والذي يكفينا أن نذكره هو أن شفيق غربال في دراسته لهذه القضايا أظهر مقدرة كبيرة في النقد والتحليل العميق للروايات والحوادث التفصيلية عبر أماكن وأزمان مختلفة واستقرائها، والتركيب من خلالها لاستخلاص الاستنتاجات المهمة؛ وهو في ذلك يقف على الأرضية نفسها التي يقف عليها كبار مؤرخي التاريخ الإسلامي؛ فهو ليس بهاوٍ أو مطلع في حقل هذا التخصص بل إنه يُعد مؤرخًا حقيقيًّا يفوق الكثير جدًّا من الأكاديميين المتخصصين في التاريخ الإسلامي الذين لا هم لهم سوى الجري وراء السرد والتفاصيل يجمعون المادة التاريخية من روايات وشواهد ويؤلفون فيما بينها.



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢١٣٤٩ / ٢٠١٣م